# القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي

- القسطاس المستقيم
- منهاج العارفين
- الرسالة اللدنية
- فيصل التفرقة
- أيها الولد
- مشكاة الأنوار
- رسالة الطير
- الرسالة الوعظية
- إلجام العوام (عن علم الكلام)
- المضنون به على غير أهله
- الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية (المضنون الصغير)

وهي المجموعة المحببة للقلوب، المنيرة للنفوس
لحجة الإسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية
قدس الله روحه ونور ضريحه

---

كتب المقدمة، وترجم للمؤلف، ونوه بالكتاب
صاحب الفضيلة الأستاذ محمد مصطفى أبو العلا
المدير المساعد للتعليم الابتدائي والخاص بالأزهر

---

يطلب من مكتبة الجندي بسيدنا الحسين ت ٩٠١٥١٨

# القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي

- القسطاس المستقيم
- منهاج العارفين
- الرسالة اللدنية
- أيها الولد
- فيصل التفرقة
- مشكاة الأنوار
- رسالة الطير
- الرسالة الوعظية
- إلجام العوام (عن علم الكلام)
- المضنون به على غير أهله
- الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية (المضنون الصغير)

---

وهي المجموعة المحببة للقلوب المنيرة للنفوس

لحجة الإسلام

أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية

قدس الله روحه ونور ضريحه

---



تطلب من مكتبة الجندي بسيدنا الحسين ت ٧٤٥١٨ - بمصر

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٠ و ١٦ شارع المستعلى بالله / بالدراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى

الحمد لله الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، إمدادا لأنوار هدايته ، وأشهد أن لا إله إلا الله فضل المهتدين ، ورفع قدر مرشديهم إلى الاستقامة ومحبته ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله خير من هدى ، وإلى الله دعا ، وفى الخير سعى ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه غيوث الندى ، وأئمة الهدى ، وليوث الجهاد فى سبيل الله .

أما بعد : فمن السادة العلماء الهداة ، المرشدين الدعاة إلى الله — الإمام الذى تتابعت الأجيال — منذ وجوده — على إجلاله ، والاحتفال بثمار أفكاره ، وقدر مؤلفاته الجامعة المشرقة ، الكافية النيرة ، صاحب الإحياء ، الذى من طالعه متدبرا ووقف عند حدوده — كان من الأحياء . ذلكم حجة الإسلام ، وأحد رواد الحكمة الإسلامية الذكى الزكى ، البهى العلى ، الذى أوتى — مع سعة الأفق ، وبسطة العلم — قوة بيان ، ونصاعة تبيان ، أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، الذى وفقه تبارك وتعالى لمجموعات من الكتب والرسائل فى علوم كثيرة ، ولقد أفاد بها وأجاد ، وانتفع بها كثير من العباد ، فى مشارق

الأرض ومغاربها ، وإذا كانت مؤلفاته باللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ـ فلقد قيض الله لبعضها من ترجمها إلى غير العربية ، وذلك دليل إخلاصه فيما كتب ، وشاهد فضل ما وهبه جل وعز من جزيل الهبات ، وجليل العطايا وعظيم الإمدادات ، والإنسان يسعى إلى ما فيه خيره وفائدته ، فطلاب الحكمة والعلم النافع ، والمعرفة الصافية الوافية ـ يجدونها فى مصنفات الغزالى كبيرها وصغيرها ، فأذاعوا ذلك ، ونشروها فى أرجاء المعمورة ، وقد عنى بنشرها العالم الإسلامى عناية فائقة ، فمن الناشرين من نشرها مستقلة كتابا كتابا ، ورسالة رسالة ، ومنهم من نشرها مجموعات متسقات .

ولقد وفق الله تعالى السيد محمد على الجندى ، لنشر كثير منها كذلك ، فنشر الأربعين وحده مستقلا ، وميزان العمل كذلك ، وكذلك المنقذ من الضلال . . . ، ونشر مجموعة منهاج العابدين ، والكشف والتبيين وبداية الهداية ، وكلها تدعو إلى حياة القلوب ، وصفاء الأرواح ، وزيادة الإيمان ، وسعادة الدارين .

وقد جاء اليوم السيد المذكور مشكورا بمجموعة جديدة من النفحات الغزالية تسمو بالروح إلى أوج العزة والسعادة فى درجة رفيعة ، وتحيي القلوب إحياء يخلق من أصحابها فضلاء نبلاء ، أهلا لنظر قيوم الأرض والسماء : بها الحكمة مشرقة ، والتصوف جلى ، والعقيدة محققة ، والمواعظ الموقظة متدفقة ، والإرشادات السنيات واضحات ، ولفت النفوس إلى الحقائق ، قوى الجاذبية ، وموازين

الأمور مقامة بإحسان ودقة ، والمسائل الدنيوية مبينة الإفادة منها برشد ، والمسائل الأخروية فيها جوابها منيف ، وواضح شريف ، وأنوار المعرفة بها لائحة ، والحق فيها ثابت الدعائم ، فهى - حقا - مشكاة الأنوار ومنهاج العارفين ، والقسطاس المستقيم ، والكسب الخير موجهة ، وعن الشر لافتة ، وهى تدعى - لعلو قدرها بعظيم مخزونها ، وعزيز محتوياتها - القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى .

وإذا كانت الأمثال تؤثر فى النفوس أبلغ تأثير ، وتهدى العقول إلى المفاهيم بكمال ، فتقتنع تماما بما يراد منها - فإنها من أحسن الوسائل فى الدعوة إلى مايراد ، والغزالى - فى ضرب الأمثال - آية من آيات الله الحكيم ، الواسع المدد والعطاء (والله واسع عليم) ، فالقارىء - لاشك - واجد من روائع الأمثال فى كتابة الغزالى - مايملك لبه ، ويهدى قلبه ، وكذلك عشاق العبارة المحكمة المتقنة الرزينة - يعشقون أسلوب الغزالى ، فيحرصون على القراءة له ؛ ولا يعدم القارىء للغزالى جم الفوائد ، وكثير العوائد ، فى لذة وابتهاج ، ومن ثم كان من ينشر للغزالى مؤلفا - مهديا جوهرا وهدية غالية ، للقراء الكرام . وإذا كان من يهدى للبدن طعاما شهيا مشكورا - فأحق بالشكر من يهدى للقلب والعقل والروح الطعام الشهى والغذاء البهى السنى ، وأحق منه بالشكر صانع هذا الطعام ، وهذا الغذاء ، والغزالى - بدليل إخلاصه يرى الشكر له - مع خالص الدعاء له - أن يشكر المنتفع بما صنع - لله صاحب الفضل أولا وآخرا ( الله خالق كل شىء ) ( والله ذو الفضل

العظيم )، وفى القرآن الكريم أيضا :(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون )( ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ) ( وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ) والشكر له تعالى ـ أن يصرف العبد جميع ماأنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فيعمل بما تعلم من علم فى هذه المجموعة التى بين يديه من كتب الغزالى ونحوها ، بما تضمن العلم النافع ، الذى يعرف بالله ، وما خلقنا إلا لمعرفته تعالى وعبادته : (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) والإصابة بالبلية نعمة تشكر من حيث ثواب الصبر عليها ، الذى يهتدى إليه مطمئن القلب بماأفادمن هاديات فى هذه المجموعة الغزالية المباركة ، ولنتنبه لقول من قال :

إذا أعطى فقد أرضى ولكن  إذا أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا  وأحمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت ثناء  أم الأخرى التى أهدت ثوابا

ولقد ولد الإمام الغزالى بمدينة طوس من مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ [ ١٠٥٨ م ] وتوفى والده قبل بلوغه سن الرشد ، فنشأ معتمدا على نفسه ، مقبلا إلى طلب العلم وتحصيله والتبحر فيه ، بباعث من نفسه ودافع فطرى ، وعزم يشهد بعظم نفسه النيرة ، وقد تلقى مبادىء العربية والفقه ببلده ، وانتقل إلى جرجان وقرأ بها مبادىء الأصول ، على أحد أعلامها ، ثم عاد إلى طوس ولم يمكث بها إلا قليلا بعد رجوعه من جرجان إليها ، حتى قصد نيسابور ، حيث لازم

إمام الحرمين الجوينى مدة ، انتهت بوفاة الجوينى سنة ٤٧٧ هـ ، فانتقل إلى العراق ، وقد سبق اسمه إلى تلك الآفاق ، فاتصل بالوزير نظام الملك ، ففوض إليه مهمة التدريس بمدرسته - النظامية - ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، فأقام بها ينشر العلم بالتدريس ، ويصنف الكتب مدة أربع سنين مرض على أثرها مرضا اضطره إلى فراق العراق ، فرحل إلى الحجاز ، وحج ، ثم جاء فلسطين ، وأقام بالقدس نحو سنتين ورحل إلى مصر ، فنزل بالاسكندرية ، وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه - طوس - وانقطع للعبادة فألزمه فخر الملك بن نظام الملك التدريس بمدرسته بنيسابور ، فدرس بها مدة قصيرة ، ثم عاد إلى طوس ولزم بيته حتى مات سنة ٥٠٥ هـ [ ١١١١ م ] ودفن بمقبرة الطابران بطوس ، طيب الله ثراه ، وأحسن عقباه وجعل الجنة مستقره ومثواه .

ولعل من خير القول فى خاتمة هذه المقدمة التنويه بالعناية والمعنى بالكتب الغزالية ، وما خطه قلم الغزالى فمن دعا إلى قراءة كتب الغزالى - دعا إلى تحصيل العلم بتعقل وتمحيص .

والعز بالعلم لا بالجاه والمال ... والمجد بالفضل لا بالعم والخال
فكل عز بغير العلم منقطع ... والفضل بالعلم عنه خير أعمال

محمد مصطفى أبو العلا
المدير المساعد للتعليم الابتدائى
والتعليم الخاص بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

# القسطاس المستقيم

أحمد الله تعالى أولا ، وأصلى على نبيه المصطفى ثانياً ، وأقول : إخوانى هل فيكم من يعيرنى سمعه لأحدثه بشىء من اسمارى ، فقد استقبلنى فى بعض أسفارى . رفيق من رفقاء أهل التعليم وغافصنى (١) بالسؤال والجدال . مغافصة من يتحدى (٢) باليد البيضاء . والحجة الغراء(٣) وقال لى أراك تدعى كمال المعرفة . فبأى ميزان تزن حقيقة المعرفة . أبميزان الرأى والقياس (٤) وذلك فى غاية التعارض

---

(١) غافصنى: فاجأنى وأخذنى على غرة والغرة الخدعة والطمع بالباطل.

(٢) من يتحدى : يبرز ويتعمد وينازع الغلبة .

(٣) الحجة ـ بكسر الحاء ـ السنة ـ وبالضم ـ البرهان وما دوفع به الخصم . والغراء : البيضاء .

(٤) الرأى : استنباط الفكر وأصحاب الرأى يطلق على أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه ، لأنه أول من قرر قواعد الفقه ومهد أساس الاجتهاد . وفلان من أهل الرأى أى أنه يرى رأى الخوارج ويقول بمذهبهم وعند المحدثين يطلق على أصحاب القياس لأنهم يأخذون بآرائهم فيما يشكل من الحديث أو لم يأت فيه حديث ولا أثر . والقياس لغة : تقدير الشىء على غيره وعند أرباب المعقول=

والالتباس[١] ولأجله ثار الخلاف بين الناس . أم بميزان التعليم فيلزمك اتباع الإمام المعصوم[٢] المعلم وما أراك تحرص على طلبه فقلت أماميزان الرأى والقياس . فحاش لله أن اعتصم به فإنه ميزان الشيطان . ومن زعم من أصحابى أن ذلك ميزان المعرفة . فأسأل الله تعالى أن يكفينى شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل . وهو شر من عدو عاقل. ولو رزق سعادة مذهب أهل التعليم . لتعلم أولا الجدال من القرآن الكريم . حيث قال الله تعالى ( ادع إلى سبيل ربك[٣] بالحكمة[٤]

---

= كالمناطقة والأصوليين والمتكلمين له أقسام كثيرة منها : القياس البرهانى : وهو المؤلف من مقدمات قطعية لإفادة اليقين . والجدلى : وهو المؤلف من قضايا مشهورة أو مسلمة لإلزام الخصم بحفظ الأوضاع أو هدمها . والخطابى : وهو المؤلف من قضايا ظنية مقبولة أو غير مقبولة لاقناع من هو قاصر عن إدراك البرهان ويعبر عنه بالظنى . والشعرى المركب من قضايا مخيلة لإفادة القبض أو البسط فى الاحجام والاقدام . والمغالطى : وهو المركب من قضايا مشبهة بالمشهورات ويسمى شغبا أو بالأوليات ويسمى سفسطة .

(١) التعارض : التمانع . والالتباس : الاختلاط والاشتباه .

(٢) المعصوم : اسم مفعول من العصمة وهى الوقاية من كل الموبقات ولا تكون إلا فى الأنبياء عليهم السلام .

(٣) ادع إلى سبيل ربك : أى دين ربك وهو دين الإسلام .

(٤) الحكمة : وضع الأشياء فى محلاتها . والمراد منها هنا المقالة الصحيحة المحكمة . وهى الدليل الموضح المزيل الشبهة .

والموعظة الحسنة[١] وجادلهم بالتى هى أحسن[٢] ) وعلم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا[٣] منها، كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى. وأن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن

(١) الموعظة الحسنة : ماتضمنه الكتاب العزيز من الرغبة والرهبة والانذار مع إيقافك خصمك على خالص نصحك له .

(٢) وجادلهم بالتى هى أحسن : بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين . ومن هذا التفصيل تبين أن الناس على ثلاثة أقسام القسم الأول : هو العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون الأشياء على حقائقها . فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أى بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها فينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم وهم أفراد . والقسم الثانى : هم أصحاب الفطرة السليمة الأصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوسط الأقسام المشار إليهم بقوله : والموعظة الحسنة : أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة . والقسم الثالث : هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار إليهم بقوله : وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه لينالوا السعادة وعلى هذا كثير من المفسرين .

(٣) اشمأز : نفر وانقبض واجتمع بعضه إلى بعض .

غذى البدوي بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر أو البلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر ، وليته[1] كانت له أسوة حسنة كما تعلم من القرآن فى إبراهيم الخليل — صلوات الله عليه — حيث حاج خصمه[2] فقال : ( ربى الذى يحي ويميت[3] ) فلما رأى أن ذلك[4] لا يناسبه[5] وليس حسناً عنده حين قال : (أنا أحي وأميت) عدل [6] إلى الأوفق

---

(١) ليته : الضمير راجع إلى من زعم من أصحابى الخ

(٢) خصمه : الضمير يعود إلى نمرود بن كنعان الجبار . وقيل ابن كوش وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض وادعى الربوبية إلى أن هلك وكان ملكا على بابل والأهواز وسواد العراق .

(٣) ربى الذى يحي ويميت : هذا حد أصغر من الشكل الأول من القياس الاقترانى . والحد الأكبر : محذوف مع النتيجة وتقريره . ربى الذى يحي ويميت وكل من يحي ويميت فهو إله حقيق ينتج . فربى الذى يحي ويميت إله حقيق وقد وقع هذا الدليل جوابا السؤال مقدر من طرف نمرود تقديره : من ربك؟ فقال إبراهيم عليه السلام ربى الخ .

(٤) ذلك :أى القياس الذى أقامه الخليل .

(٥) لايناسبه:لايقتنع به نمرود لأنه زعم أنه مالك لرقاب رعيته مطلق فى تصرفاته . فإذا قتل كان بحق وإذا عفى كان كمن عفى عن الشىء بعد قدرته عليه ولذا قيل إنه دعا برجلين فقتل أحدهما وعفا عن الآخر جاعلا ترك القتل له احياء .

(٦) عدل : مال الخليل عن دليله الأول إلى ما يلائم طبع نمرود ويقرب الفهم إليه لأن حجة الخليل لازمة وحجة نمرود باطلة قياساً وعقلا حيث القصد

لطبعه والأقرب إلى فهمه فقال : ( إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ) . ولم يرتكب الخليل ظهر اللجاج[١] فى تحقيق عجزه عن إحياء الموتى إذ علم[٢] أن ذلك يعسر عليه فهمه فإنه ظن أن القتل إماتة من جهته وتحقيق ذلك[٣] لا يلائم قريحته[٤] ولا يناسب حده فى البصيرة[٥] ودرجته ، ولم يكن من قصد الخليل إفناؤه[٦] بل إحياؤه ، والتغذية بالغذاء الموافق احياء . واللجاج بالإرهاق[٧] إلى مالا يوافق إفناء . فهذه دقائق لا تدرك إلا بنور التعليم المقتبس من إشراق عالم النبوة فلذلك حرموا التفطن له إذ حرموا من سرمذهب التعليم . فقال : إذا استوعرت سبيلهم

---

من الاحياء احياء الموتى والنمرود قصد بالاحياء العفو مع القدرة فاختلف القياس . فكان للخليل أن يلزمه بالعجز بقوله : أحى من قتلت ولكنه عدل إلى مالا يأتى فيه مغالطة مجاراة لخصمه .

(١) اللجاج : شدة التمادى على الشىء وعدم الانصراف عنه والضمير فى عجزه عائد إلى نمرود

(٢) علم : أى الخليل أن البرهان السابق يعسر فهمه على نمرود ، لأنه ظن ن قتله للرجل إماتة من طرفه .

(٣) وتحقيق ذلك : أى إظهار وإيضاح تلك المناظرة .

(٤) القريحة : طبيعة الانسان التى جبل عليها والضمير راجع إلى نمرود .

(٥) البصيرة : عقيدة القلب .

(٦) أى إعدامه بافحام المناظرة .

(٧) الارهاق : الكلفة والعسر .

واستوهنت دليلهم فبماذا تزن معرفتك ؟ فقلت : أزنها بالقسطاس المستقيم[١] ليظهر إلى حقها وباطلها . ومستقيمها ومائلها . اتباعاً لله تعالى وتعلما من القرآن المنزل على لسان نبيه الصادق حيث قال: (وزنوا بالقسطاس المستقيم) . فقال : وما القسطاس المستقيم ؟ قلت : هى الموازين الخمس التى أنزلها الله فى كتابه وعلم أنبياءه الوزن بها . فمن تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزن بميزان الله فقد اهتدى . ومن ضل عنها إلى الرأى والقياس فقد ضل وتردى . فقال : أين الموازين فى القرآن وهل هذا إلا إفك وبهتان ؟[٢] قلت: ألم تسمع قوله تعالى فى سورة الرحمن : (الرحمن علم القرآن،خلق الإنسان علمه البيان ) إلى قوله : ووضع الميزان[٣] (أن لا تطغوا فى الميزان ) ، ( وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ) ألم تسمع قوله فى سورة الحديد : ( لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ) أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضة ؟ أتتوهم أن الميزان المقابل وضعه برفع السماء فى قوله:( والسماء رفعها ووضع الميزان) هو الطيار

---

(١) القسطاس المستقيم : أقوم الموازين وأعدلها .

(٢) الإفك : الكذب وحديث الباطل والبهتان : الافتراء .

(٣) الميزان : العدل . لأنه آلة روحانية توزن بها كل الأشياء وتعرف مقاديرها ، والميزان هنا العدل . وقيل الآلة التى يوزن بها وترجع إلى العدل . وأول من نزل بالميزان جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام . وقال له : مر قومك يزنوا به . والله أعلم .

والقبان . ما أبعد هذا الحسبان . وأعظم هذا البهتان . فاتق الله ولا تتعسف[1] فى التأويل. واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا هم من ملائكته . فإن الله تعالى هو المعلم الأول ، والثانى جبريل، والثالث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ما ليس لهم طريق إلى المعرفة به إلا بهم. فقال : فبم عرفت أن ذلك الميزان صادق أم كاذب ؟ أبعقلك ونظرك؟ فالعقول متعارضة . أم بالإمام المعصوم الصادق القائم بالحق فى العالم ؟ وهو مذهبى الذى أدعو إليه . فقلت : ذلك أيضاً أعرفه بالتعليم ولكن من إمام الأئمة محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم فإنى وإن كنت لا أراه فإنى أسمع تعليمه الذى تواتر إلى تواتراً لا أشك فيه . وإنما تعليمه القرآن . وبيان صدق موازين القرآن معلوم من نفس القرآن . فقال : ( هات برهانك )[2] وأخرج من

(١) التعسف : السير بغير هداية . وفى نسخة : لا تتعصب من العصبية وهى أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته ظالمين أومظلومين . ثم أطلق التعصب على من يعلم الحق ويميل عنه طمعا فى نيل شهواته وأغراضه الخاصة .

(٢) البرهان فى اللغة الحجة الفاصلة البينة القاطعة للدد الخصم . وعند المناطقة قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين ، واليقينيات ستة : أوليات . مشاهدات حسية ، مشاهدات وجدانية ، مجربات ، متواترات ، قضايا ملتصقة القياس .

القرآن ميزانك . وأظهر لى كيف فهمت من نفس القرآن صدقه وصحته.
فقلت له : حدثنى أنت بم تعرف صحة ميزان الذهب والفضة وصدقه
ومعرفة ذلك فرض دينك إذا كان عليك دين حتى تقضيه تاماً من غير
نقصان . أو كان لك على غيرك دين حتى تأخذه عدلا من غير رجحان .
فإذا دخلت سوقاً من أسواق المسلمين . وأخذت ميزاناً من الموازين.
وقضيت أو استقضيت به الدين . فبم تعرف أنك لم تظلم بنقصان فى
الأداء. أو برجحان فى الاستيفاء . فقال : أحسن الظن بالمسلمين .
وأقول إنهم لا يشتغلون بالمعاملة إلا بعد تعديل الموازين . فإن عرض
لى شك فى بعض الموازين . أخذته ورفعته . ونظرت إلى كفتى الميزان
ولسانه . فإذا استوى انتصاب اللسان من غير ميل إلى أحد الجانبين .
ورأيت مع ذلك تقابل الكفتين . عرفت أنه ميزان صحيح صادق .
قلت : هب[1] أن اللسان قد انتصب على الاستواء . وأن الكفتين
متحاذيتان على السواء . فمن أين تعلم أن الميزان صادق ؟ فقال : أعلم
ذلك علما ضرورياً يحصل لى من مقدمتين . إحداهما تجريبية .
والأخرى حسية ـ أما التجريبية فهى أنى علمت بالتجربة أن الثقيل
يهوى إلى أسفل ، وأن الأثقل أشد هوياً . فأقول : لو كانت إحدى
الكفتين أثقل لكانت أشد هوياً . فهذه مقدمة كلية تجريبية حاصلة
عندى ضرورة . والمقدمة الثانية هى أن هذا الميزان بعينه رأيته لم

(١) هب : كلمة تستعمل لمجاراة الخصم بمعنى افرض لو سلمنا كذا .

تهو إحدى كفتيه بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة . وهذه مقدمة حسية شاهدتها بالبصر فلا أشك لا فى المقدمة الحسية ولا فى الأولى وهى مقدمة التجربة . فيلزم فى قلبى من هاتين المقدمتين نتيجة ضرورية . وهى العلم باستواء الميزان . إذ أقول : لو كانت إحداهما أثقل لكانت أهوى ومحسوس أنها ليست بأهوى . فعلوم أنها ليست بأثقل . قلت له : فهل هذا إلا رأى وقياس عقلى . قال : هيهات فإن هذا علم ضرورى لزم من مقدمات يقينية حصل اليقين بها من التجربة والحس فكيف يكون هذا رأياً وقياساً . والرأى والقياس حدس[1] وتخمين . لا يفيدان برد اليقين . وأنا أحس فى هذا برد اليقين . قلت: فإن عرفت صحة الميزان . بهذا البرهان فبم عرفت الصنجة[2] والمثقال. فلعله أخف أو أثقل من المثقال الصحيح فقال : إن شككت فى هذا أخذت عيارة من صنجة معلومة عندى فأقابلها بها فإذا ساوى علمت أن الذهب إذا ساواه كان مساوياً لصنجة فإن المساوى للمساوى مساو قلت : وهل تعلم واضع الميزان فى الأصل من هو ، وهل هو الواضع الأول ؟ والذى وضعه منه يعلم هذا الوزن قال . لا : ومن أين احتاج إليه وقد عرفت صحة الميزان بالمشاهدة والعيان . بل آكل البقل من حيث يؤتى به ولا أسأل عن المبقلة ، فإن واضع الميزان لا يراد لعينه. بل يراد ليعرف منه صحة الميزان وكيفية الوزن به . وأنا قد عرفته .

---

(١) الحدس : الظن والتوهم

(٢) صنجة الميزان: عياره أو معياره وهى فارسية معربة .

كما حكيته . وعرفته . فاستغنيت عن مراجعة صاحب الميزان عند كل وزن . فإن ذلك يطول ولا يظفر به فى كل حين مع أنى فى غنية عنه . قلت : فإن أتيتك بميزان فى المعرفة مثل هذا وأوضح منه وأزيد عليه بأنى أعرف واضعه ومعلمه ومستعمله فيكون واضعه هو الله تعالى ومعلمه جبريل ومستعمله الخليل ومحمد وسائر النبيين عليهم السلام أجمعين . وقد شهد الله تعالى لهم فى ذلك بالصدق . فهل تقبل ذلك منى؟ وهل تصدق به؟ فقال إى والله : وكيف لا أصدق به إن كان فى الظهور مثل ما حكيته لى . فقلت : الآن أتوسم فيك شمائل الكياسة[1] . وقد صدق رجائى فى تقويمك وتفهيمك حقيقة مذهبك فى تعليمك فأكشف لك عن الموازين الخمس . المنزلة فى القرآن لتستغنى به عن كل إمام وتجاوز حد العميان فيكون إمامك المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقائدك القرآن . ومعيارك المشاهدة والعيان . فاعلم أن موازين القرآن فى الأصل ثلاثة : ميزان التعادل ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند . لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إلى الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فيصير الجميع خمسة .

---

(١) شمائل جمع شمال وهى خليقة الرجل . والكياسة : إظهار العقل والظرف

## القول فى الميزان الأكبر من موازين التعادل

ثم قال لى هذا الرفيق الكيس من رفقاء أهل التعليم اشرح لى الميزان الأكبر من موازين التعادل أولا واشرح لى معنى هذه الألقاب وهى التعادل والتلازم والتعاند، والأكبر والأوسط والأصغر، فإنها ألقاب عجيبة غريبة. ولا أشك فى أن تحتها معانى دقيقة. فقلت: أما معنى هذه الألقاب فلا تفهمها إلا بعد شرحها وفهم معانيها لتدرك بعد ذلك مناسبة ألقابها لحقائقها. وأعلمك أولا أن هذا الميزان يشبه الميزان الذى حكيته فى المعنى دون الصورة فإنه ميزان روحانى. فلا يساوى الجسمانى. ومن أين يلزم أن يساويه والموازين الجسمانية أيضاً تختلف. فإن القلسطون [1] ميزان والطيار ميزان بل الاصطرلاب ميزان لمقادير حركات الفلك والمسطرة ميزان لمقادير الأبعاد فى الخطوط والشاقول ميزان لتحقيق الاستقامة والانحناء. وهى وإن اختلفت صورها مشتركة فى أنها تعرف بها الزيادة والنقصان. بل العروض ميزان الشعر يعرف به أوزان الشعر ليتميز منزحفه عن مستقيمه وهو أشد روحانية من الموازين المجسمة ولكنه غير متجرد عن علائق الأجسام لأنه ميزان الأصوات ولا ينفصل الصوت عن الجسم. وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة إذ به توزن أعمال العباد وعقائدهم ومعارفهم،

---

(١) القلسطون والطيار هما ميزانان من أنواع الموازين الجسمانية واسمهما اصطلاحى فى عصر المؤلف وبعضهم فسر القلسطون بالقبان .

والمعرفة والإيمان لاتعلق لهما بالأجسام ولذلك كان ميزانهما روحانياً صرفاً ، وكذلك ميزان القرآن للمعرفة روحانى لكن يرتبط تعريفه فى عالم الشهادة بغلاف لذلك الغلاف التصاق بالأجسام وإن لم يكن جسما فإن تعريف الغير فى هذا العالم لايمكن إلا مشافهة وذلك بالأصوات . والصوت جسمانى أو بالمكاتبة وهى الرقوم وهى أيضاً نقش فى وجه القرطاس وهو جسم . هذا حكم غلافه الذى يعرض فيه وإنما هو فى نفسه روحانى محض لا علاقة له مع الأجسام إذ توزن به معرفة الله الخارجة عن عالم الأجسام المقدس عن أن يناسب الجهات والأقطار فضلا عن نفس الأجسام ولكنه مع ذلك ذو عمود وكفتين ، والكفتان متعلقتان بالعمود فالعمود مشترك فى الكفتين لارتباط كل واحدة منهما به هذا فى ميزان التعادل وأما ميزان التلازم فهو بالقبان أشبه لأنه ذو كفة واحدة ولكن يقابلها من الجانب الآخر الرمانة وبها يظهر التفاوت والتقدير . فقال : هذه طنطنة عظيمة فأين المعنى فانى أسمع جعجعة[1] ولا أرى طحناً . فقلت له: اصبر (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً ) واعلم أن العجلة من الشيطان والتأنى من الله . واعلم أن الميزان الأكبر[2] هو ميزان الخليل صلوات

---

(١) أسمع الخ : هذا مثل للعرب يضرب للرجل الذى يكثر الكلام ولا يعمل أو يعد ولايفعل . والجعجعة : صوت الرحى والطحن الدقيق فعل بمعنى مفعول والمراد هنا أرى مقدمات ولاأرى نتيجة .

(٢) الميزان الأكبر : كناية عن الشكل الأول ، لأن حده الأوسط محمول

الله عليه وسلامه الذى استعمله مع نمرود فمنه تعلمنا هذا الميزان لكن بواسطة القرآن وذلك أن نمرود ادعى الالهية وكانت الالهية عنده بالاتفاق عبارة عن القادر على كل شيء . فقال إبراهيم الاله إلهى لأنه الذى يحي ويميت وهو القادر عليه وأنت لاتقدرعليه .فقال:(أناأحي وأميت) يعنى أنه يحي النطفة بالوقاع ويميت بالقتل فعلم إبراهيم عليه السلام أن ذلك يعسر عليه فهم بطلانه فعدل إلى ما هو أوضح عنده . فقال :( إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ) وقد أثنى الله عليه فقال ( وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ) فعلمت من هذا أن الحجة والبرهان فى قول إبراهيم وميزانه . فنظرت فى كيفية وزنه كما نظرت أنت فى ميزان الذهب والفضة فرأيت فى هذه الحجة أصلين قد ازدوجا فتولدمنهما نتيجه هى المعرفة إذ القرآن مبناه على الحذف والإيجاز . وكمال صورة هذا الميزان أن تقول كل من يقدر على اطلاع الشمس فهو الاله . فهذا أصل . وإلهى هو القادرعلى الاطلاع .وهذاأصل آخر . فلزم من مجموعهما أن إلهى هو الاله دونك يانمرود . فانظر الآن هل يمكن أن يعترف بالأصلين معترف ثم يشك

---

فى الصغرى وموضوع فى الكبرى كما سيجيء عند قوله : (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لأن ذلك الدليل فى قوة أنت لا تقدر أن تأتى بالشمس من المغرب وكل من لايقدر أن يأتى بالشمس من المغرب فليس بربه فأنت لست برب لأن المكرر بين مقدمتى القياس لاتقدر أن تأتى بالشمس من المغرب وهو محمول الصغرى وكل من لايقدر أن يأتى بالشمس من المغرب فليس برب موضوع الكبرى فينتج أنت لست برب وهو تقرير الشكل الأول.

فى النتيجة ، أوهل يتصور أن يشك فى هذين الأصلين شاك ؟ فإن قولنا الاله هو القادر على إطلاع الشمس لا يشك فيه لأن الاله كان عندهم وعند كل أحد عبارة عن القادر على كل شىء ، وإطلاع الشمس هو من جملة تلك الأشياء . وهذا أصل معلوم بالوضع والاتفاق . وقولنا القادر على الإطلاع هو الله تعالى دونك معلوم بالمشاهدة فإن عجز نمرود وعجز كل أحد سوى من يحرك الشمس مشاهد بالحس ونعنى بالاله محرك الشمس ومطلعها . فيلزمنا من معرفة الأصل الأول المعلوم بالوضع المتفق عليه . ومن الأصل الثانى المعلوم بالمشاهدة أن نمرود ليس هو القادر على تحريك الشمس . فنعلم بعد معرفة هذين الأصلين أن نمرود ليس بإله وإنما الاله هو الله تعالى . فراجع نفسك الآن هل ترى هذا أوضح من المقدمة التجريبية والحسية اللتين بنيت[1] عليهما صحة ميزان الذهب والفضة. فقال : هذه المعرفة لازمة منه بالضرورة ولا يمكننى أن أشك فى الأصلين ولا أن أشك فى لزوم هذه النتيجة منهما ولكن هذا لا ينفعنى إلا فى هذا الموضع وعلى الوجه الذى استعمله الخليل عليه الصلاة والسلام وذلك فى نفى الهية نمرود وإقرار الالهية لمن تفرد باطلاع الشمس ، فكيف أذن بها سائر المعارف التى تشكل على واحتاج إلى تمييز الحق فيها عن الباطل فقلت : من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضة وسائر الجواهر لأن الموزون عرف مقداره

---

(١) بنيت : أسست . وفى نسخة اثبت والمعنى واحد .

لا لأنه ذهب بل لأنه ذو مقدار ولذلك هذا البرهان كشف لنا عن هذه المعرفة لا لعينها بل لأنها حقيقة من الحقائق ومعنى من المعانى فتأمل أنه لم لزمت منه هذه النتيجة ونأخذ روحه ونجرده عن هذا المثال الخاص حتى ننتفع به حيث أردنا وإنما لزم هذا لأن الحكم على الصفة حكم على الموصوف بالضرورة وبيانه أن إيجاز هذه الحجة إن ربى مطلع والمطلع الاله فيلزم منه إن ربى إله فالمطلع صفة الرب وقد حكمنا على المطلع الذى هو صفته بالالهية فلزم منه الحكم على ربى بالالهية وكذلك فى كل مقام حصلت لى معرفة بصفة الشيء وحصلت معرفة أخرى بثبوت حكم لتلك الصفة فيتولد منهما معرفة ثالثة بثبوت الحكم على الموصوف بالضرورة . فقال: هذا يكاد دركه يدق على فهمى فإن تشككت فيه فماذا أصنع حتى يزول الشك . قلت: خذ عياره من الصنجة المعروفة عندك كما فعلت فى ميزان الذهب والفضة . فقال: كيف آخذ عيارها وأين الصنجة المعروفة فى هذا الفن . قلت: الصنجة المعروفة هى العلوم الأولية[1] الضرورية المستفادة إما من الحس أو التجربة أو غريزة العقل فانظر فى الأوليات هل تتصور أن يثبت حكم على صفة إلا ويتعدى إلى الموصوف فإذا مر بين يديك مثلاً حيوان منتفخ البطن وهو بغل فقال قائل هذا حامل فقلت له: ألم تعلم أن البغل عقيم لا يلد فقال نعم أعلم هذا بالتجربة فقلت له: فهل تعلم أن هذا بغل فنظر فقال نعم قد عرفت ذلك بالحس والابصار فقلت

(١) العلوم الأولية: قصد بها اليقينيات المؤلفة القياس .

فالآن هل تعرف أنه ليس بحامل فلا يمكنه أن يشك فيه بعد معرفة الأصلين اللذين أحدهما تجريبي والآخر حسى بل يكون العلم بأنه ليس بحامل علماً ضرورياً متولداً من بين العلمين السابقين كما تولد علمك في الميزان من العلم التجريبي بأن الثقيل هاو والعلم الحسى بأن إحدى الكفتين ليست هاوية بالإضافة إلى الأخرى . فقال قد فهمت هذا فهماً واضحاً ولكن لم يظهر لي أن سبب لزومه أن الحكم على الصفة حكم على الموصوف . فقلت : تأمل فإن قولك هذا بغل وصف والصفة هو البغل وقولك كل بغل عقيم حكم على البغل الذى هو صفة بالعقم فلزم الحكم بالعقم على الحيوان الموصوف بأنه بغل وكذلك إذا ظهر لك مثلاً أن كل حيوان حساس ثم ظهر لك في الدود أنه حيوان فلا يمكنك أن تشك في أنه حساس . ومنهاجه[1] أن تقول : كل دود حيوان وكل حيوان حساس . فكل دود حساس لأن قولك كل دود حيوان وصف الدود بأنه حيوان والحيوان صفته فإذا حكمت على الحيوان بأنه حساس أو جسم أو غيره دخل فيه الدود لا محالة وهذا ضرورى لا يمكن الشك فيه . نعم شرط هذا[2] أن تكون الصفة مساوية للموصوف أو أعم منه حتى يكون الحكم عليه يشمل الموصوف به بالضرورة، وكذلك من سلم في النظر

---

(١) منهاجه : أى طريق القياس الاقترانى .

(٢) الإشارة عائدة إلى القياس الاقترانى لأن قوله : كل دود حيوان فالحيوان وقع هنا أعم من الدود ، لأنه يصدق على كل ذى روح سواء كان دودا أو غيره .

الفقهى [١] أن كل نبيذ مسكر وكل مسكر حرام لم يمكنه أن يشك فى أن كل نبيذ حرام لأن المسكر وصف النبيذ فالحكم عليه بالتحريم يتناول النبيذ إذ يدخل فيه الموصوف لامحالة فكذلك فى جميع أبواب النظريات .
فقال : قد فهمت فهماً ضرورياً أن إيقاع الازدواج بين أصلين على هذا الوجه مولد لنتيجة ضرورية وأن برهان الخليل صلوات الله عليه برهان صحيح وميزانه ميزان صادق وتعلمت حده وحقيقته وعرفت عياره من الصنجات المعروفة عندى ولكنى أشتهى أن أعرف مثالا لاستعمال هذا الميزان فى مظان الاشكال فى العلوم فإن هذه الأمثلة واضحة بأنفسها لايحتاج فيها إلى ميزان وبرهان . فقلت : هيهات فبعض هذه الأمثلة ليست معلومة بأنفسها بل هى متولدة من ازدواج الأصلين إذ لا يعرف كون هذا الحيوان مثلا عقيما إلا من عرف بالحس أنه بغل وبالتجربة أن البغل لا يلد ، وإنما الواضح بنفسه هو الأول . فأما المتولد من أصلين فله أب وأم فلا يكون أولياً واضحاً بنفسه بل بغيره ولكن ذلك الغير أعنى الأصلين قد يكون واضحاً فى بعض الأحوال وذلك بعد التجربة وبعد الابصار ، وكذلك كون النبيذ حراماً ليس واضحاً بنفسه بل يعرف بأصلين ( أحدهما ) أنه مسكر وهذا يعلم بالتجربة ( والثانى ) أن

---

(١) هو القياس عند الفقهاء والأصوليين لأنه أصل رابع فالأصل الأول القرآن العزيز . والثانى : الحديث الشريف . والثالث : الإجماع . والرابع : القياس وبعضهم جعله كالأصل لا أصلا ذاتيا ويعمل به عند فقدان النص من الأصول الثلاثة .

كل مسكر حرام وهذا بالخبر الوارد عن الشارع ﷺ . فهذا يعرفك كيفية الوزن بهذا الميزان وكيفية استعماله . وإن أردت مثالا أغمض من هذا فأمثلة ذلك عندنا لا تنحصر ولا تتناهى بل بهذا الميزان عرفنا أكثر الغوامض فاقنع منه بمثال واحد :

فمن الغوامض أن الإنسان ليس حادثا بنفسه إذ له مسبب وصانع وكذلك العالم . فإذا راجعنا هذا الميزان عرفنا أن له صانعاً وأن صانعه عالم . فانا نقول : كل جائز فله سبب ، واختصاص العالم أو الإنسان بمقداره الذى اختص به جائز . فاذن يلزم منه أن له سبباً ولا يقدر على التشكك فى هذه النتيجة من سلم الأصلين وعرفهما لكن إن شك فى الأصلين فيستنتج أيضاً معرفتهما من أصلين آخرين واضحين إلى أن ينتهى إلى العلوم الأولية التى لايمكن التشكيك فيها فان العلوم الخفية الأولية هى أصول العلوم الغامضة الجلية وهى بذورها ولكن يستثمرها منها من يحسن الاستثمار بالحراثة والاستنتاج بإيقاع الازدواج بينهما .

فان قلت : أنا شاك فى الأصلين جميعاً فلم قلت ان كل جائز فله سبب ولم قلت ان اختصاص الإنسان بمقدار مخصوص جائز وليس بواجب . فأقول : أما قولى كل جائز له سبب فواضح إذا فهمت معنى الجائز لأنى أعنى بالجائز مايتردد بين قسمين متساويين فاذا تساوى شيئان لم يختص أحدهما بوجود وعدم من ذاته لأن ما ثبت للشىء ثبت لمثله بالضرورة ، وهذا أولى . وأما قولى اختصاص الإنسان بهذا المقدار مثلا جائز وليس بواجب كقولى إن الخط الذى يكتبه الكاتب وله مقدار

مخصوص جائز إذ الخط من حيث انه خط لا يتعين له مقدار واحد بل يتصور أن يكون أطول وأقصر . فاختصاصه بمقدار عما هو أطول وأقصر سببه الفاعل لا محالة إذ نسبة المقادير إلى قبول الخط لها متساوية، وهذا ضروري . كذلك نسبة المقادير إلى شكل الإنسان وأطرافه متساوية فتخصيصها لا محالة بفاعل . ثم أترقى منه وأقول فاعله عالم لأن كل فعل مرتب محكم فيسند إلى علم فاعله وبنية الإنسان بنية مرتبة محكمة فلا بد أن يستند ترتيبها وتدبيرها إلى علم فاعل بها . فههنا أصلان إذا عرفتهما لم تشك فى النتيجة . أحدهما أن بنية الآدمى بنية مرتبة محكمة هذا يعرف بالمشاهدة من تناسب أعضائه واستعداد كل واحد لمقصود خاص كاليد للبطش والرجل للمشى . ومعرفة تشريح الأعضاء يورث علماً ضرورياً به . وأما افتقار المرتب المنظوم إلى علم فهو واضح أيضاً فلا يشك العاقل فى أن الخط المنظوم لا يصدر إلا من عالم بالكتابة وإن كان بواسطة القلم الذى لا يعلم ، وأن البناء الصالح لافادة مقاصد الاكتنان كالبيت والحمام والطاحونة وغيرها لا يصدر إلا من عالم بالبناء . فان أمكن التشكيك فى شىء من هذا فطريقه أن يترقى منه إلى أوضح منه حتى يترقى إلى الأوليات . وشرح ذلك ليس من غرضنا بل الغرض أن نبين أن ازدواج الأوليات على الوجه الذى أوقعه الخليل عليه السلام ميزان صادق مفيد لمعرفة حقيقية. ولا قائل بابطال هذا فانه إبطال لتعليم الله تعالى أنبياءه وإبطال لما أتى

الله عليه إذ قال:(وتلك حجتنا(١) آتيناها إبراهيم على قومه ) والتعليم لا محالة حق إن لم يكن الرأى حقاً وفى إبطال هذا إبطال الرأى والتعليم جميعاً ولا قائل به أصلا .

## القول فى الميزان الأوسط(٢)

قال : قد فهمت الميزان الأكبر وحده وعياره ومظنته وحقيقة استعماله فاشرح لى الميزان الأوسط ماهو ومن أين حصل تعليمه ومن وضعه ومن استعمله ؟ فقلت : الميزان الأوسط أيضا للخليل عليه السلام حيث قال : ( لا أحب الآفلين ) وكمال صورة هذا الميزان أن القمر آفل والإله ليس بآفل فالقمر ليس باله . ولكن القرآن على

(١) تلك حجتنا :إشارة إلى ما جرى بين إبراهيم وقومه واستدلال على حدوث الكواكب وإقامة الحجة على قومه .

(٢) الميزان الأوسط : قصد به الشكل الثانى من القياس الاستثنائى ،لأن الحد الأوسط آفل ، وهو محمول فى الصغرى والكبرى . وبهذا استدل مشايخ الماتريدية بوجوب إجالة العقل لمعرفة الله تعالى ووجوده واتصافه بما يليق لأن سيدنا إبراهيم لم يكن وقتئذ نذير له وبقوله تعالى : (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فهذه الآية تدل أيضا على أن حجة الإيمان تلزم الخلق قبل أن يأتيهم النذير وهو الرسول لأنها لوكانت لم تلزمهم لكانوا فى أمن من نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير فلا يخوفون بنزول العذاب بهم قبل أن ينذروا فلما خوفوا به قبل الانذار دل على أن الحجة لازمة عليهم وأن الله يعذبهم لتركهم التوحيد وإن لم يرسل إليهم الرسل .

الايجاز والاضمار مبناه لكن العلم بنفى الالهية عن القمر لا يصدر ضروريا إلا بمعرفة هذين الأصلين وهو أن القمر آفل وأن الإله ليس بآفل فإذا عرفت الأصلين صار العلم بنفى الالهية عن القمر ضروريا . فقال : أنا لا أشك فى أن نفى الالهية عن القمر يتولد من هذين الأصلين أن عرفا جميعاً لكنى أعرف أن القمر آفل وهذا معلوم بالحس أما الإله ليس بآفل فلا أعلمه ضرورة ولا حساً . قلت : وليس غرضى من حكاية هذا الميزان أن أعرفك أن القمر ليس بآفل بل إنى أعلمك أن هذا الميزان صادق والمعرفة الحاصلة منه بهذا الطريق من الوزن ضرورية وإنما حصل العلم به فى حق الخليل عليه السلام إذ كان معلوما عنده أن الاله ليس بآفل وإن لم يكن ذلك العلم أولياً له بل مستفاداً من أصلين آخرين ينتجان العلم بان الاله ليس بمتغير وكل متغير حادث والأفول هو التغير فبنى الوزن على المعلوم عنده فخذ أنت الميزان واستعمله حيث يحصل لك العلم بالأصلين . قال : فهمت بالضرورة أن هذا الميزان صادق وأن هذه المعرفة تلزم من الأصلين إذ صارا معلومين ولكن أريد أن تشرح حد هذا الميزان وحقيقته ثم تشرح لى عياره من الصنجة المعروفة عندى ثم مثال استعماله فى مظان الغموض فإن نفى الالهية عن القمر كالواضح عندى . قلت : أما حده[1] فهو أن كل مثلين

---

(١) الحد لغة الفصل بين الشيئين والضمير عائد إلى الميزان . وفى اصطلاح أهل العربية والأصوليين يستعمل بمعنى التصريف مطلقا سواء كان حدا أو رسما . والمراد منه الجامع المانع سواء كان بالذاتيات أو العرضيات . وعند المناطقة

وصف أحدهما بوصف فسلب ذلك الوصف عن الآخر فهما متباينان
أى أحدهما يسلب ذلك الوصف عن الآخر ولا يوصف به ولما كان
حد الميزان الأكبر أن الحكم على الأعم حكم على الأخص ويندرج
فيه لامحالة فحد هذا أن الذى ينفى عنه مايثبت لغيره مباين لذلك الغير
فالاله ينفى عنه الأفول والقمر يثبت له الأفول فهذا يوجب التباين
بين الاله والقمر وهو أن لا يكون القمر إلهاً ولاالاله قمراً. وقدعلم الله
تعالى نبيه محمدا ﷺ الوزن بهذا الميزان فى مواضع كثيرة من القرآن
اقتداء بأبيه الخليل صلوات الله عليهما فاكتف بالتنبيه على موضعين
واطلب الباقى من آيات القرآن أحدهما: قوله تعالى لنبيه (قل فلم
يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) وذلك أنهم ادعوا أنهم أبناء
الله فعلمه الله تعالى كيفية إظهار خطابهم بالقسطاس المستقيم فقال: (قل
فلم يعذبكم بذنوبكم). وكمال صورة هذا الميزان أن البنين لا يعذبون وأنتم
معذبون فإذاً لستم أبناء فهنا أصلان اما أن البنين لايعذبون يعرف
بالتجربة واما أنتم معذبون فيعرف بالمشاهدة ويلزم منهما ضرورة نفى
البنوة الموضع الثانى: قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم
أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه

---

قول دال على ماهية الشىء. وينقسم إلى قسمين تام وناقص. فالتام هو الذى
يتركب من جنس الشىء وفصله القريبين كالحيوان الناطق فى تعريف الإنسان.
والحد الناقص هو الذى يتركب من جنس الشىء البعيد وفصله القريب كالجسم
الناطق فى تعريف الإنسان

أبدا بما قدمت أيديهم ) وذلك أنهم ادعوا الولاية وكان من المعلوم أن الولى يتمنى لقاء وليه وكان من المعلوم أنهم لايتمنون الموت الذى هو سبب اللقاء فلزم ضرورة أنهم ليسوا أولياء الله . وكمال صورة هذا الميزان أن يقال: كل ولى يتمنى لقاء وليه واليهودى ليس يتمنى لقاء الله فلزم منه أنه ليس بولى لله . وحده أن التمنى يوصف به الولى وينفى عن اليهود فيكون الولى واليهودى متباينين لسلب أحدهما عن الآخر فلا يكون الولى يهودياً ولا اليهودى ولياً . وأما عياره من الصنجة المعلومة فما عندى أنك تحتاج إليه مع وضوحه ولكن إن أردت استظهاراً فانظر أنك إذا عرفت أن الحجر جماد ثم عرفت أن الإنسان ليس بجماد كيف يلزمك منه أن تعرف أن الإنسان ليس بحجر لأن الجمادية تثبت للحجر وتنفى عن الإنسان فلا جرم يكون الإنسان مسلوبا عن الحجر والحجر مسلوباً عن الإنسان فلا الإنسان حجراً ولا الحجر إنساناً . وأما مظنة استعماله فى مواضع الغموض فكثير وأحد شطرى المعرفة معرفة التقديس وهو ما يتقدس عنه الرب تعالى علواً كبيراً وجميع معارفه توزن بهذا الميزان إذ الخليل عليه السلام استعمل هذا الميزان فى التقديس وعلمنا كيفية الوزن به إذ عرف بهذا الميزان نفى الجسمية عن الله تعالى . وكذلك تقول إن الاله ليس بجوهر متحيز لأن الاله ليس بمعلول وكل متحيز فاختصاصه بحيزه الذى يختص به معلول فيلزم منه انه ليس بجوهر وتقول ليس بعرض لأن العرض ليس بحى عالم والاله حى عالم فليس بعرض ، وكذلك سائر أبواب التقديس تتولد معرفتها

أيضاً من ازدواج أصلين على هـــذا الوجه (أحدهما) أصل سالب مضمونه النفى (والثانى) أصل موجب مضمونه الاثبات وتتولد منهما معرفة النفى والتقديس .

## القول فى الميزان الأصغر [١]

قال : قد فهمت هـذا أيضاً فهماً ضروريا فاشرح لى الميزان الأصغر وحده وعياره ومظنة استعماله من الغوامض . قلت : الميزان الأصغر تعلمناه من الله تعالى حيث علمه محمداً صلى الله عليه وسلم فى القرآن وذلك فى قوله تعالى (وماقدروا اللهحق قدره) إذ قالوا (ماأنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس) ووجه الوزن بهذا الميزان أن تقول قولهم بنفى إنزال الوحى على البشر قول باطل الازدواج المنتج بين الأصلين (أحدهما) أن موسى عليه السلام بشر (والثانى) أن موسى أنزل عليه الكتاب فيلزم منه بالضرورة قضية خاصة وهو أن بعض البشر أنزل عليه الكتاب وتبطل به الدعوى العامة بأنه لا ينزل كتاب على بشر أصلا ـ أما الأصل الأول فهو قولنا موسى بشر فمعلوم بالحس ، وأما الثانى وهو أن موسى منزل عليه الكتاب فكان معلوماً باعترافهم إذ كانوا يخفون بعضه

---

(١) الميزان الأصغر : كناية عن الشكل الثالث من القياس الاستثنائى لأن حد أمثلته موضوع فى الصغرى والكبرى كما سيجىء .

ويظهرون بعضه كما قال تعالى (يبدونها[١] ويخفون كثيراً) وإنما ذكر هذا في معرض المجادلة بالأحسن . ومن خاصية المجادلة أنه يكفي فيه أن يكون الأصلان مسلمين من الخصم مشهورين عنده وإن أمكن الشك فيه[٢] لغيره فإن النتيجة تلزمه إذ كان هو معترفا به وأكثر أدلة القرآن تجري على هذا الوجه فإن صادفت من نفسك إمكان الشك في بعض أصولها ومقدماتها فاعلم أن المقصود بها محاجة من لم يشك فيه . وأما أنت فالمقصود في حقك أن تتعلم منه كيفية الوزن في سائر المواضع ، وأما عيار هذا الميزان أن من يقول لا يتصور أن يمشي الحيوان بغير رجل فيعلم منك إذا قلت الحية حيوان والحية تمشي بغير رجل فيلزم منه أن بعض الحيوان يمشي بغير رجل وأن قول من يقول لا يمشي الحيوان إلا برجل قول باطل منقوض ، وأما موضع استعماله من

---

(١) يبدونها : يظهرونها . والضمير عائد إلى قراطيس التوراة . وأول الآية : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس يبدونها وتخفون كثيرا) .

(٢) فيه : الضمير عائد إلى الشك أي فيعمل به وذلك لغير الخصم المسلم وأما له فتلزمه النتيجة ، لأن التصديق وما في معناه من المركبات الناقصة إذا قاله أحد يقال له الدعوى أو المدعى وقائله المعلل ومن حقه التعليل عليه فإن لم يكن مقرونا بدليل ولم يكن الدليل بديهيا جليا فلا يصح منعه ويسمى منه مكابرة وإن كان المدعى مقرونا بدليل فللخصم حينئذ المنع والمعارضة والنقض وهنا ليس كذلك ، لأن الأصلين مسلمان لدى الخصم فلزمته النتيجة ضرورة .

الغوامض فكثير فإن بعض الناس مثلا يقول كل كذب فهو قبيح لعينه فنقول من رأى نبياً من الأنبياء أو وليا من الأولياء قد اختفى من ظالم فسأله الظالم عن موضعه فأخفاه فقوله هل هو كذب . قال : نعم قلنا فهل هو قبيح . قال : لا بل القبيح الصدق المفضى إلى هلاكه فنقول له : انظر إلى الميزان فإنا نقول قوله فى إخفاء محله كذب فهو أصل معلوم وهذا القول ليس بقبيح وهو الأصل الثانى فيلزم منه أن كل كذب ليس بقبيح فتأمل الآن هل يتصور الشك فى هذه النتيجة بعد الاعتراف بالأصلين وهل هذا أوضح مما ذكرته من المقدمة التجريبية والحسية بعد الاعتراف بالأصلين وهل هذا أوضح مما ذكرته من المقدمة التجريبية والحسية فى معرفة ميزان التقديس ، وأما حد هذا الميزان فهو أن كل وصفين اجتمعا على شىء واحد فبعض آحاد الوصفين لابد وأن يوصف بالآخر بالضرورة ولا يلزم أن يوصف بأنه كله لزوماً ضرورياً بل قد يكون فى بعض الأحوال وقد لايكون فلايوثق ألا ترى أن الانسان يجتمع عليه الوصف بأنه حيوان وأنه جسم فيلزم منه بالضرورة أن بعض الجسم حيوان ولا يلزم منه[1] أن كل جسم حيوان ولا يغرنك إمكان وصف كل حيوان بأنه جسم فإن وصف كل وصفه

---

(١) منه : أى من وصف الانسان بأنه جسم أن يكون جسما لأن الجسم نوع متوسط بالنسبة للجوهر والجسم المطلق وهو أعم من الانسان ولا يلزم من وجود الأخص وجود الأعم ولا عكس فالجسم يجتمع بالانسان عند حده الناقص وينفرد عنه بالجمادات .

بالآخر إذا لم يكن ضرورياً فى كل حال لم تكن المعرفة الحاصلة به ضرورية ، ثم قال الرفيق قد فهمت هذه الموازين الثلاثة ولكن لم خصصت الأول باسم الأكبر والثانى بالأوسط والثالث بالأصغر . قلت : لأن الأكبر هو الذى يتسع لأشياء كثيرة ، والأصغر خلافه ، والأوسط بينهما والميزان الأول أوسع الموازين إذ يمكن أن تستفاد منه المعرفة بالاثبات العام والاثبات الخاص والنفى العام والنفى الخاص فقد أمكن أن يوزن به أربعة أجناس من المعارف . وأما الثانى فلا يمكن أن يوزن به إلا النفى ولكن يوزن به النفى العام والخاص جميعاً . وأما الثالث فلا يوزن به إلا الخاص كما ذكرت لك أنه يلزم منه أن بعض أحد الوصفين يوصف بالآخر لاجتماعهما على شىء واحد وما لا يتسع إلا للحكم الواحد الجزئى فهو أصغر لامحالة . نعم وزن الحكم العام به من موازين الشيطان وقد وزن به أهل التعليم بعض معارفهم وألقاه فى أمنية الخليل صلوات الله عليه وسلامه فى قوله :(هذا ربى هذا أكبر). وسأتلو عليك قصته بعد هذا إن شاء الله .

## القول فى ميزان التلازم[١]

قال : فاشرح لى ميزان التلازم فقد فهمت الأقسام الثلاثة من موازينه

---

(١) التلازم: هو أن يلزم من وجود الشىء وجود شىء آخر وفقه، فالصفة أغلبية فى باب التفاعل .

التعادل[١] قلت : هذا الميزان مستفاد من قوله تعالى (لو كان فيهما[٢] آلهة إلا الله لفسدتا[٣]) ومن قوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا

---

(١) موازين : الصواب ميزان كما فى بعض النسخ ولكن جمعه باعتبار قسميه .

(٢) فيهما : الضمير عائد إلى السماء والأرض .

(٣) لفسدتا : الفساد ضد الاصلاح والمراد لخربتا وهلك من فيهما لوجود برهان التمانع . وقوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا قياس استثنائى متصل لأن مقدمته الأولى شرطية متصلة وقد استثنى فيها نفى التالى فنتج عن ذلك نفى المقدم . هذا من جهة فن الميزان . ومن جهة علم الكلام . فقد قال العلامة علاء الدين الخازن نقلا عن الامام فخر الدين الرازى مانصه : قال المتكلمون القول بوجوب إلهين يفضى إلى المحال فوجب أن يكون القول بوجوب إلهين محالا . وإنما قلنا إنه يفضى إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلابد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد تسكينه . فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك أيضا محال لوجهين : أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادرا على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة وإذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون

لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ) . ومن قوله تعالى : ( لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها ) وتحقيق صورة هذا الميزان أن تقول : لو كان للعالم

---

قادراً والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال ولو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لامكانه فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فليستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه إليهما معاً وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد فنقول القول بوجود إلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً أو نقول لو قدرنا إلهين فاما أن يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا فاما أن يقع المراد أو أن لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثانى والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات. واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع مافى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى . وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن . واعلم أن كل من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والأرض آلهة يقول بإلهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم لأنه جمادات لاتقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم فى قوله : أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به جل جلاله . وقوله :(لو كان معه آلهة ـ الخ ) هذا أيضا قياس استثنائى متصل وتقريره كما تقدم .

إلهان لفسد ، فهذا أصل. ومعلوم أنه لم يفسد ، وهذا أصل آخر . فيلزم عنهما نتيجة ضرورية وهي نفي أحد الالهين ولو كان مع ذى العرش آلهة لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، ومعلوم أنهم لم يبتغوا فيلزم نفي آلهة سوى ذى العرش . وأما عيار هذا الميزان بالصنجة المعلومة قولك: إن كانت الشمس[١] . طالعة فالكواكب خفية . وهذا يعلم بالتجربة ثم تقول ومعلوم أن الشمس طالعة وهذا يعلم بالحس فيلزم منه أن الكواكب خفية وتقول إن لم يأكل فلان[٢] فهو شبعان وهذا يعلم بالتجربة ثم تقول ومعلوم أنه أكل وهذا يعلم بالحس فيلزم من الأصل التجريبي والأصل الحسى بالضرورة أنه غير شبعان . وأما موضع استعماله فى الغوامض فكثير حتى يقول الفقيه إن كان بيع الغائب صحيحاً فيلزم بتصريح الالزام ومعلوم أنه لا يلزم بتصريح الالزام فيلزم منه أنه ليس بصحيح ويعلم الأصل الأول بالاستقراء الشرعى المفيد للظن وإن لم يفد العلم ، والثانى بتسليم الخصم ومساعدته وتقول فى النظريات[٣]

---

(١) إن — الخ هذا قياس استثنائى لتركبه من مقدمتين . الأولى : شرطية لاشتمالها على أداة الشرط وهى أن . والأخرى : استثنائية لاشتمالها على أداة الاستثناء وهى لكن . وهنا أتى المؤلف بما يقوم مقامها وهو قوله ومعلوم أن الشمس طالعة .

(٢) إن لم يأكل فلان الخ هذا أيضا قياس استثنائى . ولكن فى المثال السابق نتج عن إحدى طرفى الشرطية وهنا نقيضها .

(٣) أى فى البراهين النظرية وهى القضايا التى يحكم فيها العقل بواسطة النظر والاستدلال ولا تكون نتيجتها إلا يقينية لأنها ناتجة من وجه قطعى .

إن كان صنعة العالم وتركيب الآدمى مرتباً عجيباً محكماً فصانعه عالم وهذا فى العقل أولى ومعلوم أنه عجيب مرتب وهذا مدرك بالعيان فيلزم منه أن صانعه عالم ثم نترقى . فنقول : إن كان صانعه عالماً فهو حى ومعلوم بالميزان الأول أنه عالم فيلزم منه أنه حى ثم نقول إن كان حياً عالماً فهو قائم بنفسه وليس بعرض ومعلوم بالميزانين[1] السابقين الأولين أنه حى عالم فيلزم منه أنه قائم بنفسه وكذلك[2] تعرج من صفة تركيب الآدمى إلى صفة صانعه وهو العلم ثم تعرج من العلم إلى الحياة ثم منها إلى الذات وهذا هو المعراج الروحانى وهذه الموازين سلاليم العروج إلى السماء ثم إلى خالق السماء وهذه الأصول درجات السلاليم — وأما المعراج الجسمانى فلا تفى به كل قوة بل يختص ذلك بقوة النبوة — وأما حد هذا الميزان فإن كل ما هو لازم للشىء فهو تابع له فى كل حال فنفى اللازم يوجب بالضرورة نفى الملزوم ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم . أما نفى الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما بل هما من موازين الشيطان وقد يزن به بعض أهل التعليم معرفته . أما ترى أن صحة الصلاة يلزمها لا محالة كون المصلى متطهراً فلا جرم يصح أن تقول إن كانت صلاة زيد صحيحة

---

(١) هما الميزان الأول الذى نتج منه أن صانعه عالم . والثانى الذى نتج منه أنه حى .

(٢) أى اجعل النتيجة مقدمة لقياس آخر لتتوصل بها لشىء أقرب من الأول

فهو متطهر ومعلوم أنه غير متطهر وهو نفى اللازم فلزم منه أن صلاته غير صحيحة وهو نفى الملزوم وكذلك إن قلت ومعلوم أن صلاته صحيحة وهذا وجود الملزوم فيلزم منه أنه متطهر وهو وجود اللازم. أما إن قلت ومعلوم أنه متطهر فيلزم منه أن صلاته صحيحة فهذا خطأ لأنه ربما بطلت صلاته بعلة أخرى فهذا وجود اللازم ولم يدل على وجود الملزوم وكذلك إن قلت ومعلوم أن صلاته ليست بصحيحة فهو إذا كان غير متطهر وهذا خطأ غير لازم لأنه يجوز أن يكون عدم صحة الصلاة لفقدان شرط آخر سوى الطهارة — فهذا نفى الملزوم ولم يدل على نفى اللازم.

## القول فى ميزان التعاند

ثم قال اشرح لى ميزان التعاند واذكر لى من القرآن موضعه وعياره ومحل استعماله. قلت: أما موضعه من القرآن فقوله تعالى فى تعليم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) فإنه لم يذكر قوله إنا أو إياكم فى معرض التسوية والتشكيك بل فيه إضمار أصل آخر وهو لسنا على ضلال فى قولنا: إن الله يرزقكم من السماء والأرض فإنه الذى يرزق من السماء بانزال الماء ومن الأرض بانبات النبات فاذاً أنتم ضالون بانكار ذلك. وكمال صورة هذا الميزان إنا أو إياكم لعلى ضلال مبين، وهذا أصل. ثم نقول: ومعلوم أنا لسنا فى ضلال، وهذا أصل آخر. فيلزم من ازدواجهما نتيجة ضرورية وهو أنكم فى ضلال. وأما عياره

من الصنجات المعروفة فهو أن من دخل داراً ليس فيها إلا بيتان ثم دخلنا أحدهما فلم نره فيه فنعلم علماً ضرورياً أنه في البيت الثانى . وهذا الازدواج من أصلين أحدهما قوله إنه فى أحد البيتين قطعاً والثانى أنه ليس فى هذا البيت أصلا فيلزم منهما أنه فى البيت الثانى فاذاً نعلم أنه فى البيت الثانى فاذاً نعلم كونه فى البيت الثانى تارة بأن نراه فيه وتارة بأن نرى البيت الثانى خالياً عنه فان علمناه برؤيتنا إياه فيه كان علماً عيانياً وإن عرفناه بأن لم نره فى البيت الثانى كان هذا علماً ميزانياً ويكون هذا العلم الميزانى قطعياً كالعيان . وأما حد هذا الميزان فهو أن كل ما انحصر فى قسمين فيلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة فالوزن بالقسمة المنتشرة وزن الشيطان وبه وزن بعض أهل التعليم كلامهم فى مواضع كثيرة ذكرناها فى القواصم وفى جواب مفصل الخلاف والكتاب المستظهرى وغيرهما من الكتب المستعملة . وأما موضع استعمال هذا من الغوامض فلا ينحصر ولعل أكثر النظريات تدور عليه فان من أنكر موجوداً قديماً فنقول له الموجودات إما أن تكون كلها حادثة أو بعضها حادث وبعضها قديم وهذا حاصر لأنه بين النفى والاثبات دائر ثم نقول ومعلوم أن كلها ليست بحادثة فيلزم أن فيها قديماً فان قيل فلم قيل إن كلها ليست حادثة فنقول لأن كلها لو كانت حادثة لكان حدوثها بأنفسها من غير سبب فبطل أن تكون كلها حادثة فثبت أن فيها موجوداً قديماً . ونظائر استعمال هذا الميزان لا تنحصر فقال قد فهمته

بالحقيقة صدق هذه الموازين الخمس ولكن اشتهى أن أعرف معنى ألقابها ولم خصصت الأول بأنه ميزان التعادل والثانى بالتلازم والثالث بالتعاند

قلت : سميت الأول ميزان التعادل لأن فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متحاذيتان ، وسميت الثانى ميزان التلازم لأن أحد الأصلين يشتمل على جزئين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) فان قوله لفسدتا لازم والملزوم قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله ولزمت النتيجة من نفى اللازم وسميت الثالث ميزان التعاند لأنه رجع إلى حصر قسمين بين النفى والاثبات يلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر فبين القسمين تعاند وتضاد

فقال : هذه الأسامى أنت ابتدعتها وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها أم سبقت إليها قلت : أما هذه الأسامى فإنى ابتدعتها ، وأما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن وماعندى انى سبقت إلى استخراجها من القرآن لكن أصل الموازين قد سبقت إلى استخراجها ولها عند مستخرجها من المتأخرين أسماء أخر سوى ماذكرته ، وعند بعض الأمم السابقة على بعثة محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم أسامى أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ولكن بعثنى على إبدال كسوتها بأسامى أخر غير ماسموها به ماعرفت من ضعف قريحتك وطاعة نفسك إلى الأوهام فانى رأيتك من الاغترار بالظواهر بحيث لو سقيت عسلا أحمر فى قارورة حجام لم تطق تناوله لنفور طبعك عن المحجمة وضعف عقلك عن أن يعرفك أن العسل طاهر فى أى زجاجة

كان بل ترى التركى يلبس المرقعة والدراعة فتحكم عليه بأنه صوفى أو فقيه ولو لبس الصوفى القباء والقلنسوة حكم عليه وهمك بأنه تركى فأبداً يتحرك وهمك إلى ملاحظة غلاف الأشياء دون اللباب وكذلك لا تنظر إلى القول من نفس القول وذاته بل من حسن صنعته أو حسن ظنك بقائله فاذا كانت عبارته مستكرهة عندك أو قائله قبيح الحال فى اعتقادك رددت القول وإن كان فى نفسه حسناً وحقاً فلو قيل لك قل لا إله إلا الله عيسى رسول الله نفر عن ذلك طبعك وقلت هذا قول النصارى فكيف أقوله ولم يكن لك من العقل ما تعرف به أن هذا القول فى نفسه حق وأن النصرانى ما مقت لهذه الكلمة ولا لسائر الكلمات بل لكلمتين فقط إحداهما قوله: الله ثالث ثلاثة والثانية قوله: محمد ليس برسول الله وسائر أقواله وراء ذلك حق فلما رأيتك ورأيت رفقاءك من أهل التعليم ضعفاء العقول لا تخدعهم إلا الظواهر نزلت إلى حدك فسقيتك الدواء فى كوز الماء وسقتك به إلى الشفاء وتلطفت بك تلطف الطبيب بمريضه ولو ذكرت لك أنه دواء وعرضته فى قدح الدواء لكان يشمئز عن قبوله طبعك ولو قبلته لكنت تتجرعه ولا تكاد تسيغه فهذا غرضى فى إبدال تلك الأسامى وإبداع هذه يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله وينكره من ينكره. فقال: لقد فهمت هذا كله ولكن أين ما كنت وعدت به من أن هذا الميزان له كفتان وعمود واحد تتعلق به الكفتان جميعاً ولست أرى فى هذا الميزان الكفة والعمود وأين ما ذكرته من الموازين التى هى أشبه بالقبان قلت: هذه المعارف الست قد استفدتها من أصلين فكل أصل

كفة والجزء المشترك بين الأصلين الداخل فيهما عمود واضرب لك مثالا من الفقهيات فلعله أقرب إلى فهمك فأقول : قولنا: كل مسكر حرام كفة وقولنا : كل نبيذ مسكر كفة أخرى والنتيجة أن كل نبيذ حرام فههنا فى الأصلين ثلاثة أمور فقط النبيذ والمسكر والحرام . أما النبيذ فانه يوجد فى أحد الأصلين فقط فهو كفة ، وأما الحرام فيوجد فى الأصل الثانى فقط فهو الكفة الثانية ، وأما المسكر فمذكور فى الأصلين جميعاً وهو مكرر فيهما مشترك بينهما فهو العمود والكفتان متعلقتان به إذ يتعلق به أحدهما ويتعلق الموصوف بالصفة وهو قولك كل نبيذ مسكر فان النبيذ موصوف بالمسكر والأخرى متعلقة به لتعلق الصفة بالموصوف وهو قولك: وكل مسكر حرام فتأمل ذلك حتى تعرف فان فساد هذا الميزان تارة يكون من الكفة وتارة يكون من العمود وتارة يكون من تعلق الكفة بالعمود على ما أنبهك على رمز يسير منه فى ميزان الشيطان ، وأما المشبه بالقبان فهو ميزان التلازم إذ أحد طرفيه أطول من الآخر كثيرا فإنك تقول لو كان بيع الغائب صحيحاً للزم بصريح الالزام وهذا أصل طويل مشتمل على جزئين لازم وملزوم والثانى وهو قولك وليس يلزم بصريح الالزام وهذا أصل آخر أقصر منه فكان أشبه بالرمانة القصيرة المقابلة لكفة القبان — وأما ميزان التعادل فتتعادل فيه كفتان ليست إحداهما أطول من الأخرى بل كل واحدة منهما تشتمل على صفة وموصوف فقط فافهم هذا مع ماعرفتك من أن الميزان الروحانى لا يكون كالميزان الجسمانى بل يناسبه مناسبة ما ولذلك يمكن تشبيهه

يتولد النتيجة من ازدواج الأصلين إذ يجب أن يدخل شيء من أحد الأصلين في الآخر وهو المسكر الموجود في الأصلين حتى تتولد النتيجة فإن لم يدخل جزء من أحد الأصلين في الآخر لم تتولد نتيجة كما لم تتولد من قولك كل مسكر حرام وكل مغصوب مضمون نتيجة أصلاً وهما أصلان لكن لم يجر بينهما نكاح وازدواج إذ ليس يدخل جزء من أحدهما في الآخر وإنما النتيجة تتولد من الجزء المشترك الداخل من أحدهما في الآخر وهو الذي سميناه عمود الميزان ولو فتح لك باب الموازنة بين المحسوس والمعقول لانفتح لك باب عظيم في معرفة الموازنة بين عالم الملك والشهادة وبين عالم الغيب والملكوت وتحته أسرار عظيمة، من لم يطلع عليها حرم الاقتباس من أنوار القرآن والتعلم منه ولم يحظ من علمه إلا بالقشور فكما أن في القرآن موازين كل العلوم فكذلك فيه مفاتيح كل العلوم كما أشرت إليه في كتاب جواهر[1] القرآن فاطلبه منه وليست الموازنة بين عالم الملك والشهادة وعالم الغيب والملكوت إلا بما يتجلى بعضه في المنام من الحقائق المعنوية في الأمثلة الخيالية لأن الرؤيا جزء من النبوة وفي عالم النبوة يتجلى تمام الملك والملكوت، ومثاله من النوم رجل[2] رأى في منامه كأن في يده خاتماً يختم به أفواه الرجال

---

(١) لم يعقد المؤلف لذلك بابا بل أشار إليه في الفصل الخامس من الكتاب المذكور عند قوله في كيفية انشعاب علم الأولين منه والآخرين .

(٢) ذكر المؤلف ذلك في جواهر القرآن وبعده ورأى آخر كأنه يصب الزيت في الزيتون فقال له إن كان تحتك جارية فهي أمك قد سبيت وبيعت

وفروج النساء فقص رؤياه على ابن سيرين . فقال : إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل الصبح فقال هو كذلك فانظر الآن لم تجلى له حاله من عالم الغيب في هذا المثال واطلب الموازنة بين هذا المثال والأذان قبل الصبح في رمضان وربما يرى هذا المؤذن نفسه يوم القيامة وفي يده خاتم من نار ويقال له هذا هو الخاتم الذي كنت تختم به أفواه الرجال وفروج النساء فيقول والله ما فعلت هذا فيقال نعم كنت تفعله ولكن تجهله لأن هذا روح فعلك ولا تتجلى حقائق الأشياء وأرواحها إلا في عالم الأرواح ويكون الروح في غطاء من الصور في عالم التلبيس عالم الحس والخيال والآن قد كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وكذلك يفتضح كل من ترك حداً من حدود الشرع وإن أردت له حقيقة فاطلبه من باب حقيقة الموت في الإحياء أو من كتاب جواهر القرآن(١)

---

واشتريتها أنت ولا تعرف فكان كذلك فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركا للأذان قبل الصبح في روح الخاتم وهو المنع وإن كان مخالفا في صورته وقس على ما ذكرته مالم أذكره .

(١) أشار إلى ذلك في الفصل العاشر من القسم الرابع من الكتاب المذكور وأول ما يتعلق بذلك قوله تعالى ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ) وقوله : ( تلك الدار الآخرة الخ ) وقوله ( من جاء بالحسنة الخ ) وقوله ( مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء الخ ) وقوله ( ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة الخ ) وقوله ( فأقم وجهك للدين حنيفا الخ ) وقوله ( وأذقنا الناس رحمة الخ ) وهكذا أورد من الآيات إلى آخر الفصل العاشر من الكتاب المذكور فليرجع إليه من أراده .

فترى فيه العجائب وأطل التأمل فيه فعساك تنفتح لك باب رؤيته إلى عالم الملكوت تسترق منها السمع فانى ما أراك ينفتح لك بابها وأنت إنما تنتظر معرفة الحقائق من معلم غائب لاتراه ولو رأيته لوجدته أضعف منك فى المعرفة كثيراً فخذها ممن سافر وتعرف وبحث فعلى الخبير سقطت فيه . فقال : هذا الآن حديث آخر يطول بينى وبينك اللجاج فيه فإن هذا المعلم الغائب وإن كنت لم أر منظره فقد سمعت خبره كالليث إن لم أره فقد رأيت أثره ولقد رأيت والدتى إلى أن ماتت ومولانا(١) صاحب قلعة الموت يثنيان عليه ثناء بالغاً حتى قالا إنه المطلع على كل مايجرى فى العالم ولو على ألف فرسخ أفأ كذب والدتى وهى العجوز العفيفة الستيرة أومولانا وهو الإمام الحسن السيرة والسريرة كلا بل هما شاهدان صادقان كيف وقد طابقهما على ذلك جميع رفقائى من أهل دامغان (٢)

---

(١) هو الحسن بن الصباح مقدم الاسماعيلية صاحب قلعة الموت وهو الذى أظهر بدعة الطائفة الاسماعيلية قال الشهرستانى واستظهر المذكور بالرجال وتحصن بالقلاع وكان بدء صعوده على قلعة الموت فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وهو الذى دعا الناس إلى تعيين إمام صادق ومنع العوام من الخوض فى العلوم ومنع الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة. توفى سنة ثمان عشر وخمسمائة كذا فى تاريخ ابن الوردى .

(٢) دامغان: بلد كبيرة بين الرى ونيسابور وهو قصبة قومس قال مسعر بن مهلهل الدامغان مدينة كثيرة الفواكه وفاكهتها نهاية والرياح لا تنقطع بها ليلا ولانهارا ، وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة فى

وأصبهان (١) ولهم الأمر المطاع وفى حكمهم سكان القلاع أفترى أنهم منخدعون وهم الأذكياء أو متنمسون وهم الأتقياء هيهات هيهات دع عنك الغيبة فإن مولانا يطلع على ما يجرى بيننا من غير ريبة إذ لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فأخشى أن أتعرض

---

الجبل إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسما لمائة وعشرين رستاقا لا يزيد قسما على صاحبه ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة وهو مستظرف جدا ما رأيت فى سائر البلدان مثله ولا مشاهدات أحسن منه وهناك قرية تعرف بقرية الجمالين فيها عين تنبع دما لا يشك فيه لأنه جامع لأوصاف الدم كلها إذا ألقى فيه الزيبق صار لوقته حجرا يابسا صلبا متفننا وتعرف هذه القرية أيضا بفنجان وبالدامغان وفيها معادن الذهب وبينها وبين بسطام مرحلتان وبينها وبين كردكوه قلعة الملاحدة يوم واحد والواقف بالدامغان يراها فى وسط الجبال وقد نسبوا إلى الدامغان جماعة وافرة من أهل العلم منهم : إبراهيم بن إسحاق الزراد الدامغانى وقاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن على بن محمد الدامغانى وغيرهما . انتهى باختصار من معجم البلدان .

(١) أصبهان : مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون فى وصف عظمها حتى يتجاوز واحد الاقتصاد إلى غاية الاسراف وهى اسم للإقليم بأسره وهى صحيحة الهواء نفيسة الجو خالية من جميع الهوام تبلى الموتى فى تربتها ولا تتغير فيها رائحة اللحم ولو بقيت القدر بعد أن تطبخ شهرا ، وتربتها أصح تراب الأرض ويبقى التفاح فيها غضا سبع سنين ولا تسوس بها الحنطة ومساحتها ثمانون فرسخا فى مثلها وهى ستة عشر رستاقا كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثة . انتهى بغاية الاختصار من معجم البلدان لياقوت الحموى

تلقته بمجرد السماع والإصغاء فاطو طومار (١) الهذيان وارجع إلى حديث الميزان واشرح لى ميزان الشيطان وكيفية وزن أهل التعليم به .

## القول فى موازين الشيطان وكيفية وزن أهل التعليم بها

فقلت اسمع الآن يا مسكين شرح ميزان رفقائك فإنك بعد فى غلوائك واعلم أن كل ميزان ذكرته من موازين القرآن فللشيطان فى جانبه ميزان ملصق به يمثله بالميزان الحق ليوزن به فيغلط لكن الشيطان إنما يدخل من مواقع الثلم فمن سد الثلم وأحكمها أمن الشيطان . ومواقع ثلمه عشرة قد جمعتها وشرحتها فى كتاب محك النظر وكتاب معيار العلم إلى غير ذلك من الدقائق فى شروط الميزان لم أذكرها الآن لقصور فهمك عن إدراكها فإن أردت معاقد جملها ألفيتها فى كتاب المحك وإن أردت شرح تفاصيلها وجدتها فى كتاب المعيار لكن أقدم الآن أنموذجا واحدا وذلك هو الذى ألقاه الشيطان فى خاطر إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال الله تعالى ( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ) وإنما ذلك فى مبادرته إلى الشمس . وقوله : هذا ربى هذا أكبر لأجل أنه أكبر أراد أن يخدعه به . وكيفية الوزن به أن الإله هو الأكبر فهذا أصل معلوم بالاتفاق والشمس هى أكبر من الكواكب

---

(١) الطومار : الصحيفة قيل هو دخيل وجعله ابن سيده عربيا محضا لأن سيبويه قد اعتد به فى الأبنية وجعله ملحقا بفسطاط ( لسان العرب )

وهذا أصل آخر معلوم بالحس فيلزم منه أن الشمس إله وهي النتيجة وهذا ميزان ألصقه الشيطان بالميزان الأصغر من موازين التعادل لأن الأكبر وصف وجد للإله ووجد للشمس فيوهم أن أحدهما يوصف بالآخر وهو عكس الميزان الأصغر وحد ذلك الميزان أن يوجد شيئان لشيء واحد لا أن يوجد شيء واحد لشيئين فإنه إن وجد شيئان لشيء واحد وصف بعض أحدهما بالآخر كما سبق ذكره . أما إذا وجد شيء واحد لشيئين فلا يوصف أحد الشيئين بالآخر فانظر كيف يلبس الشيطان بالعكس . وعيار هذا الميزان الباطل من الصنجة الظاهرة البطلان اللون فإنه يوجد للسواد والبياض جميعاً ثم لا يلزم أن يوصف البياض بالسواد أو السواد بالبياض بل لو قال قائل البياض لون والسواد لون فيلزم منه أن السواد بياض كان خطأ باطلا فكذلك قوله الإله أكبر والشمس أكبر فالشمس إله فهذا خطأ إذ يجوز أن يوصف المتضادان بوصف واحد فاتصاف شيئين بوصف واحد لا يوجب بين الشيئين اتصالا . أما اتصاف شيء واحد بشيئين فيوجب بين الوصفين اتصالا وكل من فهمه أدرك التفرقة بين اتصاف شيء واحد بشيئين وبين اتصاف شيئين بشيء واحد فقال : قد اتضح لي بطلان هذا لكن متى وزن أهل التعليم كلامهم به ؟ قلت : وزنوا به كلاما كثيراً أشح على أوقاتي أن أضيعها بحكايته لكن أريك أنموذجاً واحداً فلقد سمعت كثيراً من قولهم إن الحق مع الوحدة والباطل مع الكثرة ومذهب الرأي يفضي إلى الكثرة ومذهب التعليم يفضي إلى الوحدة فيلزم

أن يكون الحق فى مذهب التعليم قال : نعم سمعت هذا كثيراً واعتقدت هذا برهاناً وأعرفه برهاناً قاطعاً لا أشك فيه فقلت : هذا ميزان الشيطان فانظر كيف انتكس رفقاؤك واستعملوا قياس الشيطان وميزانه فى ابطال ميزان الخليل صلوات الله عليه وسلامه وسائر الموازين قال : وما وجه تخريجه عليه ؟ فقلت: الشيطان إنما يلبس فى الموازين بتكثير الكلام فيه وتشويشه حتى لا يعلم منه موضع التلبيس وهذا كلام كثير حاصله يرجع إلى أن الحق يوصف بالوحدة فهذا أصل وأن مذهب التعليم يوصف بالوحدة فهذا أصل آخر فلزم منه أن مذهب التعليم يوصف بالوحدة وصف واحد بالحق لأن الوحدة فى شىء واحد فاتصف به شيئان فيجب اتصاف أحد الشيئين بالآخر كقول القائل اللون وصف واحد اتصف به البياض والسواد جميعا فيلزم اتصاف البياض بالسواد وكقول الشيطان الأكبر وصف واحد يتصف به الإله والشمس فيلزم منه أن تتصف الشمس بالاله فلا فرق بين هذه الموازين الثلاثة أعنى وجود اللون للسواد والبياض ووجود الأكبر للاله والشمس ووجود الوحدة للتعليم والحق فتأمل لتفهم ذلك فقال : قد فهمت هذه قطعاً ولكنى لا أقنع بمثال واحد فاذكر لى مثالا آخر من موازين رفقائى ليزداد قلبي سكوناً إلى معرفة انخداعهم بموازين الشيطان قلت : أما سمعت قولهم إن الحق إما أن يعرف بالرأى المحض أو بالتعليم المحض وإذا بطل أحدهما ثبت الآخر وباطل أن يكون مدركا بالرأى العقلى المحض لتعارض العقول والمذاهب فثبت أنه بالتعليم

فقال اى والله قد سمعت ذلك كثيراً وهو مفتاح دعوتهم وعنوان حجتهم قلت : فهذا وزن بميزان الشيطان الذى ألصقه بميزان التعاند فان ابطال أحد القسمين ينتج ثبوت الآخر ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة ، والشيطان يلبس المنتشرة بالمنحصرة فهذه منتشرة إذ ليست دائرة بين النفى والاثبات بل يمكن بينهما قسم ثالث وهو أن يدرك بالعقل والتعليم جميعاً وعياره من الصنجات المعلوم بطلانها قول القائل الألوان لا تدرك بالعين بل بنور الشمس فقلنا لم فقال لا تخلو إما أن تدرك بالعين أو بنور الشمس وباطل أن تدرك بالعين لأنه لا يدرك بالليل فثبت أنه يدرك بنور الشمس فيقال له يامسكين ثم قسم ثالث وهو أن يدرك بالعين ولكن عند نور الشمس فقال : قد فهمت هذا أيضاً لكن أريد أن تزيدنى شرحاً للغلط الواقع فى الأنموذج الأول وهو حديث الحق والوحدة فإن التفطن لموضع الغلط منه لطيف جداً . قلت : وجه الغلط ما ذكرت وهو التباس اتصاف شىء واحد بشيئين باتصاف شيئين بشىء واحد ولكن أصل هذا الغلط إيهام العكس فان من علم أن كل واحد حق ربما يظن أن كل حق واحد وليس يلزم هذا العكس بل اللازم منه عكس خاص وهو أن بعض الواحد حق فان قولك كل إنسان حيوان لا يلزم منه عكس عام وهو أن كل حيوان إنسان بل اللازم أن بعض الحيوان إنسان ولا يستولى الشيطان بحيله على الضعفاء بأشد وأكثر من تحيله بايهام العكس العام

حتى ينتهى إلى المحسوسات حتى أن من رأى حبلا أسود مبرقش اللون يرتاع منه لشبهه بالحية وسببه معرفته أن كل حية فطويل متبرقش اللون فيسبق وهمه إلى عكسه العام ويحكم بأن كل طويل متبرقش اللون فهو حية فيظن منه عكساً عاماً وهو أن كل طويل متبرقش اللون أسود فهو حية وإنما اللازم منه عكس خاص وهو أن بعض الطويل المتبرقش حية لا أن كله كذلك وفى العكس والنقيض دقائق كثيرة لا تفهمها إلا من كتاب محك النظر ومعيار العلم فقال : إنى أجد بكل مثال تذكره طمأنينة أخرى لمعرفة موازين الشيطان فلا تبخل على بمثال آخر من موازين الشيطان . قلت : إن فساد ذلك الميزان تارة يكون من سوء التركيب بأن لا يكون تعلق الكفتين بالعمود تعلقاً مستقيما وتارة يكون من نفس الكفة وفساد طينتها التى منها اتخذت فإنها إما أن تتخذ من حديد أو نحاس أو جلد حيوان فلو اتخذت من الثلج أو القطن لم يكن الوزن به والسيف تارة يفسد لخلل شكله بأن يكون على هيئة العصا غير معترض ولا حاد وتارة يكون من فساد طينته ومادته التى منها اتخذ بأن يكون متخذاً من خشب أو طين وكذلك ميزان الشيطان قد يكون فساده لفساد تركيبه كما ذكرته فى مثال كبر الشمس ووحدة الحق فإن صورتهما مختلة معكوسة كالذى يجعل الكفتين فوق العمود فيريد أن يزن به وتارة يكون لفساد المادة كقول إبليس أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فى جواب قوله تعالى ( مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ) وقد أدرج إبليس فى هذا ميزانين إذ علل منع السجود

بكونه خيراً منه ثم أثبت الخيرية بأنه خلق من نار وإذا صرح بجميع
أجزاء حجته وجد ميزانه مستقيم التركيب لكن فاسد المادة وكمال
صورته أن يقول ماخلق من نار خير والخير لايسجدفانا إذاً لاأسجد
فكلا أصلى هذا القياس ممنوع لأنه غير معلوم والعلوم الخفية توزن
بالعلوم الجلية وما ذكره غير جلى ولا مسلم إذ نقول له نسلم أنك
خير منه وهذا منع الأصل الأول والآخر أنا لانسلم أن الخير لايلزمه
السجود لأن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية لكن ترك ابليس
الدلالة على الأصل الثانى وهو أن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية
واشتغل باقامة الدليل على أنه خير لأنى خلقت من نار وهذه دعوى
الخيرية بالنسب وكمال صورة دليله وميزانه أن يقول المنسوب إلى الخير
خير وأنا منسوب إلى الخير فاذا أنا خير وكلتا هاتين الكفتين أيضا
فاسدة فانا لانسلم أن المنسوب إلى الخير خير بل الخيرية بصفات الذات
لا بالنسب فيجوز أن يكون الحديد خيراً من الزجاج ثم يتخذ من
الزجاج بحسن الصنعة ماهو خير من المتخذ من الحديد وكذلك نقول
إبراهيم صلوات الله عليه خير من ولد نوح وإن كان إبراهيم مخلوقا
من آزر وهو كافر وولد نوح من نبى . وأما أصله الثانى وهو أنه مخلوق
من خير لأن النار خير من الطين فهذا أيضا غير مسلم بل الطين خير
لأنه من التراب والماء وربما يقال إن بامتزاجهما قوام الحيوان والنبات
وبهما يحصل النشوء والنمو ، وأما النار فمفسدة ومهلكة للجميع فقوله
إن النار خير باطل . فهذه الموازين صحيحة الصورة فاسدة المادة تشبيها

بالسيف المتخذ من الخشب بل هى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه وكذا يرى أهل التعليم أحوالهم يوم القيامة إذا كشفت لهم حقائق موازينهم وهذا أيضا مدخل من مداخل الشيطان ينبغى أن يسد بل المادة الصحيحة التى تستعمل فى النظر كل أصل معلوم قطعا إما بالحس وإما بالتجربة وإما بالتواتر الكامل أو بأول العقل أو بالاستنتاج من هذه الجملة. أما الذى يستعمل فى المحاجة والمجادلة فما يعترف به الخصم ويسلمه وإن لم يكن معلوما فى نفسه فانه تصير حجته عليه وكذلك تجرى بعض أدلة القرآن فلا ينبغى أن تنكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك فى أصولها لأنها أوردت على طوائف كانوا معترفين بها .

القول فى الاستغناء بمحمد صلى الله عليه وسلم
وبعلماء أمته عن إمام معصوم آخر
وبيان معرفة صدق محمد صلى الله عليه وسلم
بطريق أوضح من النظر فى المعجزات
وأوثق منه وهو طريق العارفين

فقال : لقد أكملت الشفاء وكشفت الغطاء وأتيت باليد البيضاء لكن بنيت قصراً وهدمت مصراً فانى إلى الآن كنت أتوقع أن أتعلم منك الوزن بالميزان وأستغنى بك وبالقرآن عن الإمام المعصوم فالآن إذ ذكرت هذه الدقائق فى مداخل الغلط فقد آيست من الاستقلال به فانى لا آمن أن أغلط لو اشتغلت بالوزن وقد عرفت الآن لم اختلف

الناس فى هذه المذاهب وذلك لأنهم لم يتفطنوا لهذه الدقائق كما فطنت
فغلط بعضهم وأصاب بعضهم فاذاً أقرب الطرق لى أن أعول على
الإمام المعصوم حتى أتخلص من هذه الدقائق. فقلت: يامسكين معرفتك
بالإمام الصادق ليست ضرورية فهى إما أن تكون تقليداً للوالدين
أو موزونة بشىء من هذه الموازين فان كل علم ليس أوليا فبالضرورة
يكون حاصلا عند صاحبه بقيام هذه الموازين فى نفسه وإن كان هو
لا يشعر به فانك عرفت صحة ميزان التقدير بانتظام الأصلين فى ذهنك
التجريبى والحسى وكذلك سائر الناس وهم لا يشعرون به ومن يعرف
مثلاأن هذا الحيوان غير حامل لأنه بغل عرفه بانتظام الأصلين اللذين
ذكرناهما فى صدر الكتاب وإن كان لا يشعر بمصدر علمه . وكذلك
كل علم فى العالم يحصل للانسان فيكون كذلك فأنت إن أخذت اعتقاد
العصمة فى الإمام الصادق بل فى محمد صلى الله عليه وسلم تقليداً
للوالدين والرفقاء لم تتميز عن اليهود والنصارى والمجوس فإنهم كذلك
فعلوا وإن أخذته من الوزن بشىء من هذه الموازين فلعلك غلطت فى دقيقة
من دقائقه فينبغى على زعمك أن لا تثق به فقال : صدقت فأين الطريق
فلقد سددت على طريق التعليم والوزن جميعا قلت : هيهات راجع
القرآن فقد علمك الطريق إذ قال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم
طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ولم يقل سافروا إلى
الإمام المعصوم فاذا هم مبصرون فأنت تعلم أن المعارف كثيرة فلو
ابتدأت فى كل مشكلة سفرا إلى الإمام المعصوم بزعمك طال عناؤك

وقل علمك لكن طريقك أن تتعلم منى كيفية الوزن وتستوفى شروطه فان أشكل عليك شيء عرضته على الميزان وتفكرت فى شروطه بفكر صاف وجد واف فاذا أنت مبصر وهذا كما لو حسبت ماللبقال عليك أو لك عليه أو قسمت فى مسألة من مسائل الفرائض وشككت فى الاصابة والخطأ فيطول عليك أن تسافر إلى الإمام المعصوم ولكن تحكم علم الحساب وتتذكره ولا تزال تعاوده مرة بعد أخرى حتى تستيقن قطعا أنك ماغلطت فى دقيقة من دقائقها وهذا يعرفه من يعرف علم الحساب وكذلك من يعرف الوزن به كما أعرفه فينتهى به التذكر والتفكر والمعاودة مرة بعد أخرى إلى اليقين الضرورى بأنه ماغلط فان لم تسلك هذه الطريق لم تفلح قط وصرت تشكك بلعل وعسى ولعلك قد غلطت فى تقليدك لامامك بل للنبى الذى آمنت به فان معرفة صدق النبى صلى الله عليه وسلم ليست ضرورية فقال : لقد ساعدتنى على أن التعليم حق وأن الإمام هو النبى صلى الله عليه وسلم واعترفت بأن كل واحد لايمكنه أن يأخذ العلم من النبى صلى الله عليه وسلم دون معرفة الميزان وأنه لايمكنه معرفة تمام الميزان إلا منك فكأنك ادعيت الامامة لنفسك خاصة فما برهانك ومعجزتك فإن إمامى إما أن يقيم معجزة وإما أن يحتج بالنص المتعاقب من آبائه إليه فأين نصك وأين معجزتك فقلت : أما قولك إنك تدعى الامامة لنفسك خاصة فليس كذلك فانى أرجو أن يشاركنى غيرى فى هذه المعرفة فيمكن أن يتعلم منه كما يتعلم منى ولا أجعل التعليم وقفاً على نفسى . وأما قولك تدعى الامامة

لنفسك فاعلم أن الإمام قد نعنى به الذى يتعلم من الله تعالى بواسطة جبريل وهذا لا أدعيه لنفسى .وقد نعنى به الذى يتعلم من الله بغير جبريل ومن جبريل بواسطة الرسول ولهذا سمى على رضى الله عنه إماماً فانه تعلم من الرسول لا من جبريل وأنا بهذا المعنى أدعى الإمامة لنفسى . أما برهانى عليه فأوضح من النص ومما تعتقده معجزة فإن ثلاثة أنفس لو ادعوا عندك أنهم يحفظون القرآن . فقلت : ما برهانكم ؟ فقال أحدهم برهانى أنه نص على الكسائى أستاذ المقرئين إذ نص على أستاذى واستاذى نص على فكأن الكسائى نص على . وقال الثانى إنى أقلب العصا حية فقلب العصا حية . وقال الثالث برهانى أنى أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف فليت شعرى أى هذه البراهين أوضح عندك وقلبك بأيها أشد تصديقاً فقال بالذى قرأ القرآن فهو غاية البراهين إذ لا يخالجنى فيه ريب ـ أما نص أستاذه عليه ونص الكسائى على أستاذه فيتصور أن تقع فيه أغاليط لاسيما عند طول الاسفار . وأما قلب العصا حية فلعله فعل ذلك بحيلة وتلبيس وإن لم يكن تلبيساً فغايته أنه فعل عجيب ومن أين يلزم أن من قدر على فعل عجيب ينبغى أن يكون حافظاً للقرآن . قلت : فبرهانى إذا أيضاً أنى كما عرفت هذه الموازين فقد عرفت وأفهمت وأزلت الشك عن قلبك فى صحته فيلزمك الإيمان بإمامتى كما أنك إذا تعلمت الحساب وعلمته من أستاذ فإنه إذا علمك الحساب حصل لك علم بالحساب وعلم آخر ضرورى بأن أستاذك حاسب وعالم بالحساب كذلك فقد علمت من تعليمه علمه

وصحة دعواه أيضاً فى أنه حاسب وكذلك آمنت أنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق موسى عليه السلام لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية بمجردهما فإن ذلك يتطرق إليه حينئذ التباس كثير فلا يوثق به بل من يؤمن بقلب العصا حية يكفر بخوار العجل. فان التعارض فى عالم الحس والشهادة كثير جداً لكنى تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الالهية[1] بل أحوال المعاد[2] وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة[3] كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن فوجدت جميعها موافقة لما فى القرآن ولما فى الأخبار فتيقنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق وأن القرآن حق وفعلت كما قال على رضى الله عنه إذ قال « لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق

---

(١) أشار إلى ذلك فى تسع وأربعين آية من سورة النحل من قوله تعالى: ( أتى أمر الله فلا تستعجلوه ـ إلى قوله ـ لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ) وغير ذلك .

(٢) أشار إلى ذلك فى ست عشرة آية من سورة الحج من قوله : ( ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ـ إلى قوله ـ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ) وغير ذلك .

(٣) أشار إلى ذلك فى النمط الثانى من الكتاب المذكور فى جملة آيات فليرجع إليه .

بعرف أهله ، فكانت معرفتى بصدق النبى عليه السلام ضرورية كمعرفتك
إذا رأيت رجلا عربياً يناظر فى مسألة من مسائل الفقه ويحسن فيها
ويأتى بالفقه الصحيح الصريح فانك لاتتمارى فى أنه فقيه ويقينك
الحاصل به أوضح من اليقين الحاصل بفقهه لو قلب ألف عصا
ثعباناً لأن ذلك يتطرق إليه احتمال السحر والتلبيس والطلسم وغيرهم
ولا يحصل العلم بالقرآن بينها وبين هذه الأشياء وكونها معجزة إلا بعد
بحث طويل ونظر دقيق ويحصل به إيمان ضعيف هو إيمان العوام
والمتكلمين ، فأما إيمان أرباب المشاهدة الناظرين من مشكاة الربوبية
كذلك تكون . فقال : فأنا أيضاً أشتهى أن أعرف النبى صلى الله عليه
وسلم كما عرفته وقد ذكرت أن ذلك لايعرف إلا بأن توزن جميع
المعارف الالهية بهذا الميزان وما اتضح عندى أن جميع المعارف الدينية
يمكن وزنها بهذه الموازين فبم أعلم ذلك . قلت : هيهات لا أدعى أنى
أزن بها المعارف الدينية فقط بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية
والطبيعية والفقهية والكلامية وكل علم حقيقى غير وضعى فانى أميز
حقه عن باطله بهذه الموازين وكيف لا وهو القسطاس المستقيم
والميزان الذى هو رفيق الكتاب والقرآن فى قوله تعالى ( لقد أرسلنا
رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط )
وأما معرفتك بقدرتى على هذا فلا تحصل لابنص ولا بقلب العصا
ثعباناً ولكن تحصل بأن تستكشف ذلك تجربة وامتحاناً فمدعى
الفروسية لاينكشف صدقه حتى يركب فرساً ويركض ميداناً فسلنى

عماشئت من العلوم الدينية لأكشف لك الغطاء عن الحق فيه واحداً واحداً وأزنه بهذا الميزان وزناً يحصل لك علم ضرورى بأن الوزن صحيح وأن العلم المستفاد منه مستيقن ومن لم يجرب لم يعرف . فقال : وهل يمكنك أن تعرف جميع الحقائق والمعارف الالهية جميع الخلق فترفع الاختلافات الواقعة بينهم . قلت : هيهات لاأقدر عليه وكان إمامك المعصوم إلى الآن قد رفع الاختلافات بين الخلائق وأزال الاشكالات عن القلوب بل الأنبياء متى رفعوا الاختلاف ومتى قدروا عليه بل اختلاف الخلق حكم ضرورى أزلى . ولا يزالوان مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك أفأدعى أن أرد قضاء الله الذى قضى به فى الأزل أو يقدر إمامك أن يدعى ذلك فان كان يدعيه فلم ادخره إلى الآن والدنيا طافحة بالاختلافات . وليت شعرى رئيس الأمة على ابن أبى طالب رضى الله عنه كان سبب رفع الاختلافات بين الخلق أو سبب تأسيس اختلافات لاتنقطع أبد الدهر .

## القول فى طريق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات

فقال : كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات . قلت : أن اصغوا إلى ، رفعت الاختلاف بينهم بكتاب الله تعالى ولكن لاحيلة فى إصغائهم فانهم لم يصغوا بأجمعهم إلى الأنبياء ولا إلى إمامك فكيف يصغون إلى وكيف يجتمعون على الاصغاء وقد حكم عليهم فى الأزل بأنهم لايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وكون

الخلاف بينهم ضرورياً تعرفه من كتاب جواب مفصل الخلاف وهو الفصول الاثنا عشر . فقال : فلو أصغوا كيف كنت تفعل . قلت : كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى إذ قال (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد ) الآية وإنما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم . فقال : فمن هم وكيف علاجهم . قلت : الناس ثلاثة أصناف عوام وهم أهل السلامة ، البله وهم أهل الجنة ،وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة . أما الخواص فانى أعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها فيرتفع الخلاف بينهم على قرب وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال ( إحداها ) القريحة النافذة والفطنة القوية وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية لايمكن كسبها (والثانية) خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع فان المقلد لايصغى والبليد وإن أصغى فلا يفهم ( الثالثة ) أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لايمكنه أن يتعلم منك .

( والصنف الثانى البله ) وهم جميع العوام وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق وإن كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب بل شغلتهم الصناعات والحرف وليس فيهم أيضا داعية الجدل بخلاف المتكايسين فى العلم مع قصور الفهم عنه فهؤلاء لايختلفون

ولكن يتخيرون بين الأئمة المختلفين فادعوا هؤلاء إلى الله بالموعظة كما ادعوا أهل البصيرة بالحكمة وادعوا أهل الشغب بالمجادلة وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة فى آية واحدة كما تلوته عليك أولا فأقول لهم ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعرابى جاءه فقال علمنى من غرائب العلم فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليس أهلا لذلك فقال وماذا عملت فى رأس العلم أى الإيمان والتقوى والاستعداد للآخرة اذهب فأحكم رأس العلم ثم ارجع لأعلمك من غرائبه . فأقول للعامى ليس الخوض فى الاختلافات من عشك فادرج فإياك أن تخوض فيه أو تصغى إليه فتهلك فانك إذا صرفت عمرك فى صناعة الصياغة لم تكن من أهل الحياكة وقد صرفت عمرك فى غير العلم فكيف تكون من أهل العلم ومن أهل الخوض فيه. فإياك ثم إياك أن تهلك نفسك فكل كبيرة تجرى على العامى أهون من أن يخوض فى العلم فيكفر من حيث لا يدرى . فان قال : لابد من دين أعتقده وأعمل به لأصل به إلى المغفرة والناس مختلفون فى الأديان فبأى دين تأمرنى أن آخذ أو أعول عليه. فأقول له للدين أصول وفروع والاختلاف إنما يقع فيهما أما الأصول فليس عليك أن تعتقد فيها إلا مافى القرآن فان الله تعالى لم يستر عن عباده صفاته وأسماءه فعليك أن تعتقد أن لا إله إلا الله وأن الله حى عالم قادر سميع بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شىء إلى جميع ماورد فى القرآن واتفق عليه الأئمة فذلك كاف فى صحة الدين وإن تشابه عليك شىء فقل آمنا كل من عند ربنا واعتقد

كل ما ورد فى إثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفى المماثلة واعتقاد أنه ليس كمثله شيء وبعد هذا لا تلتفت إلى القيل والقال فانك غير مأمور به ولا هو على حد طاقتك فان أخذ يتحذلق ويقول قد علمت أنه عالم من القرآن ولكنى لا أعلم أنه عالم بالذات أو بعلم زائد عليه وقد اختلف فيه الأشعرية والمعتزلة. فقد خرج بهذا عن حد العوام إذ العامى لا يلتفت قلبه إلى مثل هذا ما لم يحركه شيطان الجدل فان الله لا يهلك قوما إلا يؤتيهم الجدل كذلك ورد الخبر وإذا التحق بأهل الجدل فسأذكر علاجهم هذا ما أعظ به فى الأصول وهو الحوالة على كتاب الله فان الله أنزل الكتاب والميزان والحديد وهؤلاء أهل الحوالة على الكتاب - وأما الفروع فأقول لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف مالم تفرغ عن جميع المتفق عليه فقد اتفقت الأمة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع وأن الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام والفرائض كلها واجبة فان فرغت من جميعها علمتك طريق الخلاص من الخلاف فإن هو طالبنى بها قبل الفراغ من هذا كله فهو جدلى وليس بعامى ومتى تفرغ العامى من هذا إلى مواضع الخلاف. أفرأيت رفقاءك قد فرغوا من جميع هذا ثم أخذ إشكال الخلاف يخنقهم هيهات ما أشبه ضعف عقولهم فى خلافهم إلا بعقل مريض به مرض أشرف على الموت وله علاج متفق عليه بين الأطباء وهو يقول قد اختلف الأطباء فى بعض الأدوية أنها حارة أو باردة وربما افتقرت إليه يوما فأنا لا أعالج نفسى حتى أجد من يعلمنى رفع الخلاف فيه. نعم

لو رأيتم صالحا قد فرغ من حدود التقوى كلها . وقال : ها أنا تشكل على مسائل فانى لا أدرى أتوضأ من اللمس والقىء والرعاف وأنوى الصوم بالليل فى رمضان أو بالنهار إلى غير ذلك فأقول له : إن كنت تطلب الأمان فى طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ بما يتفق عليه الجميع فتوضأ من كل مافيه خلاف فان كل من لا يوجبه يستحبه وانو الصوم بالليل فى رمضان فان من لا يوجبه يستحبه فإن قال هو ذا يثقل على الاحتياط ويعرض لى مسائل تدور بين النفى والإثبات وقال لاأدرى أأقنت فى الصبح أم لا وأجهر بالتسمية أم لا فأقول له الآن اجتهد مع نفسك وانظر إلى الأئمة أيهم أفضل عندك وصوابه أغلب على قلبك كما لو كنت مريضاً وفى البلد أطباء فإنك تختار بعض الأطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد فى أمر دينك فمن غلب على ظنك أنه الأفضل فاتبعه فإن أصاب فيما قال عند الله فله فى ذلك أجران وإن أخطأ فله عند الله فى ذلك أجر واحد وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» ورد الله تعالى الأمر إلى أهل الاجتهاد وقال تعالى لتعليمه الذين يستنبطونه منهم وارتضى الاجتهاد لأهله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: بم تحكم؟ قال بكتاب الله قال فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد؟ قال اجتهد رأيى قال ذلك قبل أن أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى

وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله . ففهم من ذلك أنه مرضى به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وغيره كما قال الأعرابي إنى هلكت وأهلكت واقعت أهلى فى نهار رمضان فقال اعتق رقبة ففهم أن التركى أو الهندى لو جامع أيضاً لزمه الاعتاق وهذا لأن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله فإن ذلك غير مقدور عليه ولا تكليف بما لايطاق بل كلفوا ما يظنونه صوابا كما لم يكلفوا الصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنونه أنه طاهر فلو تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء إذ نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله فى أثناء الصلاة لما أنبأه جبريل أن عليه قذراً ولم يعد الصلاة ولم يستأنف وكذلك لم يكلف أن يصلى إلى القبلة بل إلى جهة يظن أنها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس فإن أصاب فله أجران وإلا فله أجر واحد ولم يكلفوا أداء الزكاة إلى الفقير بل إلى من ظنوا فقره لأن ذلك لايعرف باطنه ولم يكلف القضاة فى سفك الدماء وإباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقه وإذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود فلم لاتجوز الصلاة بظن شهادة الأدلة عند الاجتهاد ، وليت شعرى ماذا يقول رفقاؤك فى هذا يقولون إذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر إلى الإمام ويسأله أو يكلفه الإصابة التى لايطيقها أو يقول اجتهد لمن لايمكنه الاجتهاد إذ لايعرف أدلة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب والجبال والرياح قال لا أشك فى أنه يأذن له فى الاجتهاد ثم لا يؤثمة إذا

بذل كنه مجهوده وإن أخطأ أو صلى إلى غير القبلة . قلت فاذا كان من جعل القبلة خلفه معذوراً مأجوراً فلا يبعد أن يكون من أخطأ فى سائر الاجتهادات معذوراً فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم معذورون بعضهم مصيبون ماعند الله وبعضهم يشاركون المصيبين فى أحد الأجرين فناصبهم متقاربة وليس لهم أن يتعاندوا وأن يتعصب بعضهم مع بعض لاسيما والمصيب لايتعين وكل واحد منهم يظن أنه مصيب كما لو اجتهد مسافران فى القبلة فاختلفا فى الاجتهاد فحقهما أن يصلى كل واحد منهما إلى الجهة التى غلبت على ظنه وأن يكف إنكاره وإعراضه واعتراضه على صاحبه لأنه لم يكلف إلا استعمال موجب ظنه — أما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه وكذلك كان معاذ فى اليمن يجتهد لا على اعتقاد أنه لايتصور منه الخطأ لكن على اعتقاد انه إن أخطأ كان معذوراً وهذا لأن الأمور الوضعية الشرعية التى يتصور أن تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشىء من نقيضه بعد كونه مظنونا فى سر الاستبصار — وأما مالا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف ، وحقيقة هذا الفصل تعرفه من أسرار اتباع السنة وقد ذكرته فى الأصل العاشر[1] من الأعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن

( وأما الصنف الثالث ) وهم أهل الجدل فانى أدعوهم بالتلطف إلى الحق وأعنى بالتلطف أن لا أتعصب عليهم ولا أعنفهم لكن أرفق وأجادل بالتى هى أحسن وكذلك أمر الله تعالى رسوله ومعنى المجادلة بالأحسن

---

(١) أشار إلى ذلك فى الفصل العاشر من القسم الثانى .

أن آخذ الأصول التى يسلمها الجدلى وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذى أوردته فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وإلى ذلك الحد فان لم يقنعه ذلك لتشوفه بفطنته إلى مزيد كشف رقيته إلى تعليم الموازين فان لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجاجه وعناده عالجته بالحديد فان الله سبحانه جعل الحديد والميزان قرينى الكتاب ليفهم منه أن جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه الثلاث فالكتاب للعوام والميزان للخواص والحديد الذى فيه بأس شديد للذين يتبعون ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأنهم وأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم دون أهل الجدل وأعنى بأهل الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة لكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد فذلك يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير وفى الخبر أن أكثر أهل الجنة البله وأن عليين لذوى الألباب ويخرج من جملة الفريقين الذين يجادلون فى آيات الله وأولئك أصحاب النار ويزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن وهؤلاء ينبغى أن يمنعوا من الجدال بالسيف والسنان كما فعل عمر رضى الله عنه برجل إذ سأله عن آيتين متشابهتين فى كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة وكما قال مالك رضى الله عنه لما سئل عن الاستواء على العرش فقال الاستواء حق والإيمان

به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة وحسم بذلك باب الجدال ، وكذلك فعل السلف كلهم وفى فتح باب الجدال ضرر عظيم على عباد الله تعالى فهذا مذهبى فى دعوة الناس إلى الحق وإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الحق وذلك بأن دعوة الخواص إلى الحكمة بتعليم الميزان حتى إذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة فإن من معه ميزان فانه يعرف به مقادير أعيان لانهاية لها كذلك من معه القسطاس المستقيم فعه الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً لانهاية له ولولا اشتمال القرآن على الموازين لما صح تسمية القرآن نوراً لأن النور مايبصر بنفسه ويبصر به غيره غيره وهو نعت الميزان ولما صدق قوله ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . فان جميع العلوم غير موجودة فى القرآن بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التى بها تفتح أبواب الحكمة التى لانهاية لها فبهذا ادعوا الخواص ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالإحالة على الكتاب والاقتصار على مافيه من الصفات الثابتة لله تعالى ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التى هى أحسن فان أبى عرضت عن مخاطبته وكففت شره بيأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان فليت شعرى الآن يارفيقى بم يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة أيعلم العوام فيكلفهم مالايفهمون ويخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرج الجدال من أدمغة المجادلين بالمحاجة . ولم يقدر على ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة محاجة الله تعالى فى القرآن مع الكفار فما أعظم قدرة إمامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله أو يدعو أهل البصيرة إلى تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعبانا بل يقولون وهو فعل غريب ولكن من أين يلزم منه صدق فاعله وفى العالم من غرائب السحر والطلسمات ماتتحير فيه العقول ولا يقوى على تمييز المعجزة عن السحر والطلسم إلا من عرف جميعها وجملة أنواعها ليعلم أن المعجز خارج عنها كما عرف سحرة فرعون معجزة وموسى عليه السلام إذ كانوا من أئمة السحرة . ومن الذى يقوى على ذلك بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة أن يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب صدق أستاذه فى قوله إنى حاسب فهذه هى المعرفة اليقينية التى بها يقنع أولوا الألباب وأهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتة وهم إذا عرفوا بمثل هذا المنهاج صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك وأخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن فمن أين يحتاجون إلى إمامك المعصوم وما الذى حل من إشكالات الدين وعن ماذا كشف عن غوامضه قال الله تعالى ( هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ) وقد سمعت الآن منهاجى فى موازين العلوم فأرنى ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من إمامك إلى الآن وما الذى يتعلمون منه وليت شعرى ما الذى تعلمت من إمامك المعصوم ارنى مارأيتها :

مايسدى بى رتسدى أوف . خرابن وقلب يارفوت(١)

فليس الغرض من الدعوة إلى المائدة مجرد الدعوة دون الأكل والتناول منها وإنى أراكم تدعون الناس إلى الامام ثم أرى المستجيب أمامك بعد الاستجابة على جهله الذى كان قبله لم يحل له الإمام عقداً بل ربما عقد له حلا ولم تفده استجابته له علماً بل ربما زاد به طغياناً وجهلا فقال : قد طالت صحبتى مع رفقائى ولكن ما تعلمت منهم شيئاً إلا أنهم يقولون عليك بمذهب التعليم وإياك والرأى والقياس فانه متعارض مختلف . قلت : فمن الغرائب أن يدعوا إلى التعليم ثم لايشتغلوا بالتعليم فقل لهم قد دعوتمونى إلى التعليم فاستجبت فعلمونى ما عندكم فقال : ما أراهم يزيدوننى على هذا شيئاً . قلت : فإنى قائل أيضا بالتعليم وبالامام وببطلان الرأى والقياس وأنا أزيدك على هذا لو أطقت ترك التقليد تعليم غرائب العلوم وأسرار القرآن فاستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها كما استخرجت منه موازين العلوم كلها على ما أشرت إلى كيفية انشعاب العلوم كلها منه فى كتاب جواهر القرآن لكنى لست أدعو إلى إمام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ولا إلى كتاب سوى القرآن فمنه استخرج جميع أسرار العلوم: وبرهانى على ذلك لسانى وبيانى ، وعليك إن شككت تجربتى وامتحانى أقرانى أولى بأن يتعلم منى من رفقائك أم لا ؟ .

---

(١) البيت فارسى . وقد نظمت معناه فيما يقرب منه فجاء كما ترى :

يبعد قلب المحب وما مضى يهدم إسداء عرف ولم تصل حقيقته

## القول فى تضاوير الرأى والقياس وإظهار بطلانهما

فقال أما الانقطاع عن الرفقاء والتعليم منك فربما يمنعنى منه ما حكيته لك من وصية والدتى حين كانت تموت ولكنى أشتهى أن تكشف عن وجه فساد الرأى والقياس فإنى أظنك تستضعف عقلى فتلبس على فتسمى القياس والرأى ميزاناً وتتلو على وفق ذلك قرآناً وأنا أظنه أنه بعينه القياس الذى يدعيه أصحابك : قلت : هيهات فهاأنا أشرح لك ما أريده وأرادوه بالرأى والقياس . اما الرأى والقياس فمثاله قول المعتزلة يجب على الله سبحانه وتعالى رعاية الأصلح لعباده وإذا طولبوا بتحقيقه لم يرجعوا إلى شىء إلا أنه رأى استحسنوه بعقولهم من مقايسة الخالق على الخلق وتشبيه حكمته بحكمتهم ، ومستحسنات العقول هى الرأى الذى لا أرى التعويل عليه فإنه ينتج نتائج تشهد موازين القرآن بفسادها كهذه المقالة فإنى إذا وزنتها بميزان التلازم قلت : لو كان الأصلح واجباً على الله تعالى لفعله ومعلوم أنه لم يفعله فدل على أنه غير واجب فإنه لا يترك الواجب فإن قيل سلمت أنه لو كان واجباً لفعله ولكن لا أسلم أنه لم يفعله فأقول لو فعل الأصلح لخلقهم فى الجنة وتركهم فيها فإن ذلك أصلح لهم ومعلوم أنه لم يفعل ذلك فدل على أنه لم يفعل الأصلح وهذه أيضا نتيجة من ميزان التلازم والآن الخصم بين أن ينكر ويقول تركهم فى الجنة فيشاهد كذبه أو يقول كان الأصلح لهم أن يخرجوا إلى الدنيا دار البلايا

ويعرضهم للخطايا ثم يقول لآدم يوم يكشف عن الخفايا اخرج يا آدم نصيب النار فيقول كم فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كما ورد فى الخبر الصحيح ويزعم أن ذلك أصلح لهم من خلقهم فى الجنة وتركهم فيها لأن نعيمهم إذ ذاك لا يكون لسعيهم واستحقاقهم فتعظم المنة عليهم والمنة ثقيلة وإذا سمعوا وأطاعوا كان ما أخذوه جزاء وأجرة لا منة فيها وأنا أنزه سمعك ولسانى عن حكاية مثل هذا الكلام فضلا عن الجواب عنه . فانظر فيه لترى قبايح نتايج الرأى كيف هى . وأنت تعلم أن الله تعالى ينزل الصبيان إذا ماتوا فى منزل من الجنة دون منازل البالغين المطيعين فإذا قالوا الهنا أنت لا تبخل بالأصلح لنا والأصلح لنا أن تبلغنا درجتهم فيقول الله على زعم المعتزلة كيف أبلغكم درجتهم وقد بلغوا وتعبوا وأطاعوا وأنتم متم صبياناً فيقولون أنت أمتنا فحرمتنا طول المقام فى الدنيا ومعالى الدرجات فى الآخرة فكان الأصلح لنا والأصلح بنا أن تبلغنا درجتهم أو أن لا تميتنا فلم أمتنا فيقول الله تعالى على رأى المعتزلة إنى قد علمت أنكم لو بلغتم لكفرتم واستحققتم النار خالدين فيها فعلمت أن الأصلح لكم الموت فى الصبا وعند هذا ينادى الكفار البالغون من دركات النار يصطرخون ويقولون أما علمت أنا إذا بلغنا كفرنا فهلا أمتنا فى الصبا فأنا راضون بعشر عشر درجات الصبيان فعند هذا لا يبقى للمعتزلى جواب يجيب به عن الله تعالى فتكون الحجة للكفار على الله سبحانه تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً . نعم لفعل الأصلح سر يستمد من معرفة سر الله

تعالى فى القدر ولكن المعتزلى لا ينظر من ذلك الأصل فإنه لا يطلع ببضاعة الكلام على ذلك السر فمن هذا خبط خبط عشواء واضطربت عليه الآراء فهذا مثال الرأى الباطل عندى. وأما مثال القياس فهو إثبات الحكم فى شىء بالقياس على غيره كقول المجسمة إن الله تعالى وتقدس عن قولهم جسم قلنا لم قالوا لأنه فاعل صانع فكان جسما قياساً على سائر الصناع والفاعلين وهذا هو القياس الباطل كما قلنا لم قلتم إن الفاعل كان جسما لأنه فاعل وذلك لا يقدر على إظهاره مهما وزن بميزان القرآن فإن ميزانه هو الميزان الأكبر من موازين التعادل وصورة وزنه أن يقال كل فاعل جسم والبارىء تعالى فاعل فهو أيضاً جسم فنقول نسلم أن البارىء تعالى فاعل ولكن لا نسلم الأصل الأول وهو أن كل فاعل جسم فمن أين عرفتم ذلك؟ وعند هذا لا يبقى لهم إلا الاعتصام بالاستقراء والقسمة المنتشرة وكلاهما لا حجة فيه. أما الاستقراء فهو أن يقول تصفحت الفاعلين من حائك وحجام واسكاف وخياط ونجار وفلان وفلان فوجدتهم أجساماً فعلمت أن كل فاعل جسم فيقال له تصفحت كل الفاعلين أو شذعنك فاعل فان قال تصفحت البعض فلا يلزم منه الحكم على الكل وإن قال تصفحت الكل فلا نسلم له ذلك فليس كل الفاعلين معلوماً عنده كيف وهل تصفح فى جملة ذلك فاعل السموات والأرض فإن لم يتصفح الكل بل البعض لم يلزم الكل وإن تصفح فهل وجد جسما فان قال نعم فيقال له فاذا وجدت ذلك فى مقدمة قياسك فكيف جعلته أصلا تستدل به

عليه فجعلت نفس وجدانك دليل ماوجدته وهذا خطأ بل ماهو فى
تصفحه الأكمن يتصفح الفرس والإبل والفيل والحشرات والطيور
فيراها تمشى برجل وهو لم ير الحية والدود فيحكم بأن كل حيوان يمشى
برجل وكمن يتصفح الحيوانات فيراها عند المضغ جميعها تحرك الفك
الأسفل فيحكم بأن كل حيوان يحرك عند المضغ الفك الأسفل وهو لم
ير التمساح فإنه يحرك الفك الأعلى وهذا لأنه يجوز أن يكون ألف
شخص من جنس واحد على حكم ويخالف الألف واحد وهو لا يفيد
برد اليقين فهو القياس الباطل . وأما اعتصامه بالقسمة المنتشرة فكقوله
سبرت أوصاف الفاعلين فكانوا أجساماً لكونهم فاعلين أو لكونهم
موجودين أو كيت وكيت ثم يبطل جميع الأجسام فيقول فيلزم من
هذا أنهم أجسام لكونهم فاعلين وهذه هى القسمة المنتشرة التى بها
يزن الشيطان مقاييسه وقد ذكرنا بطلانها فقال : أظن أنه إذا بطل
سائر الأقسام تعين القسم الذى أراده وأرى هذا برهاناً قويا عليه
تعويل أكثر المتكلمين فى عقائدهم فانهم يقولون فى مسألة رؤية
البارى تعالى مرئى لأن العالم مرئى وباطل أن يقال إنه مرئى لأنه ذو
بياض لأن السواد يرى وباطل أن يرى لكونه جوهراً لأن العرض
يرى وباطل أن يكون عرضاً لأن الجوهر يرى وإذا بطلت الأقسام
بقى أنه يرى موجوداً فأريد أن تكشف لى عن فساد هذا الميزان
كشفاً ظاهراً لا أشك فيه فقلت : فأنا أورد فى ذلك مثالا حقا لم ينتج
من قياس باطل واكشف الغطاء عنه فأقول : قولنا العالم حادث حق

ولكن قول القائل إنه حادث لأنه مصور قياساً على البيت وسائر الأبنية المصورة قول باطل لا يفيد العلم بحدوث العالم إذ يقال ميزانه الحق أن يقال كل مصور حادث والعالم مصور فيلزم منه أنه حادث والأصل الآخر مسلم لكن قولك كل مصور حادث لا يسلمه الخصم وعند هذا يعدل إلى الاستقراء فيقول استقريت كل مصور فوجدته حادثا كالبيت والقدح والقميص وكيت وكيت وقد عرفت فساد هذا وقد يرجع إلى السبر فيقول البيت حادث فنسبر أوصافه وهو أنه جسم وقائم بنفسه وموجود ومصور وهذه أربع صفات وقد بطل تعليله بكونه جسما وقائماً بنفسه وموجوداً فثبت أنه معلل بكونه مصوراً وهو الرابع فيقال له هذا باطل من وجوه كثيرة وأذكر منها الأربعة الأول أنه إن سلم لك بطلان الثلاث فلا تثبت العلة التى طلبتها فلعل الحكم معلل بعلة قاصرة غير عامة ولا متعدية ككونه مثلا بيتاً فإن ثبت كون البيت غير محدث أيضاً فلعل الحكم معلل بالمعنى القاصر على ما ظهر كونه حادثاً إذ يمكن تقدير وصف خاص يجمع الجميع ولا يتعدى الثانى أنه إنما يصح اذا تم السبر على الاستقصاء بحيث لا يتصور أن يشذ منه قسم وإذا لم يكن حاصراً بين النفى والإثبات دائراً تصور أن يشذ منه قسم وليس الاستقصاء الحاصر أمراً هينا والغالب أنه لا يهتم به المتكلمون والفقهاء بل يقولون إن كان فيه قسم آخر فابرزه وربما قال الآخر لا يلزمنى ابرازه وطال اللجاج فيه وربما استدل القايس وقال لو كان فيه قسم آخر لعرفناه ولعرفته فعدم معرفتنا تدل على نفى قسم

آخر إذ عدم رؤيتنا الفيل فى مجلسنا تدل على نفى الفيل ولا يدرى قط هذا المسكين أنه لم نعهد قط فيلا حاضراً لم نره ثم رأيناه وكم رأينا معانى حاضرة عجزنا جميعاً عن إدراكها ثم تنبهنا لها بعد مدة فلعل فيه قسما آخر شذ عنا لسنا نتنبه له الآن وربما لم نتنبه له طول عمرنا . الثالث أنا وإن سلمنا الحصر فلا يلزم من إبطال ثلاث ثبوت رابع بل التركيب الذى يحصل من أربعة يزيد على عشرة وعشرين إذ يحتمل أن تكون العلة آحاد هذه الأربعة أو اثنين منها أو ثلاثة منها ثم لا يتعين الاثنان منها ولا الثلاثة بل يتصور أن تكون العلة كونه موجوداً أو جسما أو موجوداً وقائما بنفسه أو جسما موجوداً وقائما بنفسه وموجوداً أو موجوداً وبيتا أو بيتا ومصوراً أو بيتا قائما بنفسه أو بيتاً وجسما أو جسما ومصوراً أو جسما وقائماً بنفسه أو جسما وموجوداً أو قائماً بنفسه وموجوداً . فهذه بعد تركيبات الاثنين فقس على هذه التركيبات من الثلاث . واعلم أن الأحكام تتوقف على وجود أسباب كثيره مجتمعة فليس يرى الشىء لكون الرائى ذا عين إذ لا يرى بالليل ولا لاستنارة المرئى بالشمس إذ لا يرى الأعمى ولا لهما جميعاً إذ لا يرى الهواء ولكن لجملة ذلك مع كون المرئى متلونا وأمور أخر هذا حكم الوجود . أما حكم الرؤية فى الآخرة فحديث آخر . الرابع أنه إن سلم الاستقصاء وسلم الحصر فى أربعة وتركنا التركيب فإبطال ثلاثة لا يوجب تعلق الحكم بالرابع مطلقاً بل بانحصار الحكم فى الرابع ولعل الرابع ينقسم قسمين والحكم

يتعلق بأحدهما أرأيت لو قسم أولا وقال اما كونه جسما أو موجوداً أو قائماً بنفسه أو مصوراً مثلا بصورة مربعة أو مصوراً بصورة مدورة ثم أبطل الأقسام الثلاثة لم يتعلق الحكم بالصورة مطلقاً بل ربما اختص بصورة مخصوصة فبسبب الغفلة عن مثل هذه الدقائق خبط المتكلمون وكثر نزاعهم إذ تمسكوا بالرأى والقياس وذلك لايفيد برد اليقين بل يصلح للأقيسة الفقهية الظنية ولا مالة قلوب العامة إلى صوب الصواب والحق فإنه لايمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة أما ترى العامى الذى به صداع يقول له غيره استعمل ماء الورد فانى إذا كان بى صداع فاستعملته انتفعت به كأنه يقول هذا صداع فينفعه ماء الورد قياساً على صداعى فيميل قلب المريض إليه فيستعمله ولا يقول له اثبت أولا أن ماء الورد يصلح لكل صداع كان من البرودة أو من الحرارة أو من أبخرة المعدة وأنواع الصداع كثيرة فاثبت أن صداعى كصداعك ومزاجى كمزاجك وسنى كسنك وصناعتى كصناعتك وأحوالى كأحوالك فان جميع ذلك يختلف به العلاج فان طلب تحقيق هذه الأمور ليس من شأن العوام لأنهم لايتشوفون إليها ولا من شأن المتكلمين لأنهم وإن تشوفوا إليها على خلاف العوام فلا يهتدون إلى الطرق المفيدة برد اليقين وإنما هى من شنشنة[1] قوم عرفوها من أحمد صلى الله عليه وسلم وهم قوم اهتدوا بنور الله إلى ضياء القرآن

---

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة .

وأحذوا منه الميزان بالقسط والقسطاس المستقيم فأصبحوا قوامين لله بالقسط. فقال الآن هو هذا يلوح لى مخايل الحق وتباشيره من كلامك فهل تأذن لى فى أن أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً . قلت: هيهات انك لاتستطيع معى صبراً وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً. قال ستجدنى : إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا. قلت : أتظن أنى نسيت اتعاظك بنصيحة رفقائك ووالدتك ومن نبض عليه عرق من عروق التقليد فلا تصلح لصحبتى ولا أصلح لصحبتك فاذهب عنى فهذا فراق بينى وبينك فانى مشغول بتقويم نفسى عن تقويمك وبالتعلم من القرآن عن تعليمك فلا ترانى بعد هذا ولا أراك فلا تسع أوقاتى أكثر من هذا لاصلاح الفاسد والضرب فى الحديد البارد وقد نصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد نبينا سيد المرسلين .

فها كم إخوانى قصتى مع رفيق تلوتها عليكم بعجرها وبجرها لتقضوا منها العجب وتنتفعوا فى إثبات هذه المحادثات بالتفطن لأمور هى أجل من تقويم مذهب التعليم ولم يكن ذلك من غرضى ولكن إياك أعنى واسمعى ياجارة . والتماسى من المخاصين قبول معذرتى عند مطالعة هذه المحادثات فيما آثرته فى المذاهب من العقد والتحليل وأبدعته في الأسامى من التغيير والتبديل . واخترعته فى المعانى من التخييل والتمثيل ، فلى تحت كل واحد من ذلك غرض صحيح . وسر عند ذوى البصائر صريح . وإياكم أن تغيروا هذا النظام وتنتزعوا هذه

المعانى من هذه الكسوة فقد علمتكم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول. ليكون القول منهما أسرع إلى القبول . وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلا والمنقول تابعا ورديفا فإن ذلك شنيع منفر . وقد أمركم الله سبحانه بترك الشنيع والمجادلة بالأحسن ، وإياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتهلكوا وتضلوا وتضلوا . وماذا تنفع وصيتى وقد اندرس الحق وانكسر البثق [1] وانتشرت الشناعة وطارت فى الأقطار . وصارت ضحكة فى الأمصار . فإن قوما اتخذوا هذا القرآن مهجورا وجعلوا التعليمات النبوية هباء منثورا . وكل ذلك من قصور الجاهلين ودعواهم فى نصرة الدين منصب العارفين . وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين .

---

(١) البثق : منبعث من الماء .

بسم الله الرحمن الرحيم

# منهاج العارفين

الحمد لله الذى نور قلوب العارفين بذكره ، وأنطق ألسنتهم بشكره ، وعمر جوارحهم بخدمته ، فهم فى رياض الانس يرتعون وإلى أوكار المحبة يأوون ، ذكرهم فذكروه ، وأحبهم فأحبوه ، ورضى عنهم فرضوا عنه ، رأس مالهم الافتقار ونظام أمرهم الاضطرار ، علمهم دواء الذنوب ، وعرفهم طب القلوب ، فهم مصابيح أنوار حجته ، ومفاتيح خزائن حكمته ، إمامهم القمر الطالع ، وقائدهم النور الساطع ، سيد الموالى والعرب محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، الثمرة الزاكية من الشجرة المباركة ، التى أصلها التوحيد ، وفرعها التقوى ، ( لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ) ، صلى الله عليه وسلم صلاة تلوح فى السموات آثارها وتعلو فى جنان الخلد أنوارها وتطيب فى مشاهد الأنبياء أخبارها ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المطهرين .

## باب البيان نحو المريدين

يدور على ثلاثة أصول . الخوف والرجاء والحب . فالخوف : فرع العلم والرجاء : فرع اليقين ، والحب : فرع المعرفة فدليل الخوف: الهرب ، ودليل الرجاء الطلب ودليل الحب إيثار المحبوب ومثال ذلك الحرم والمسجد والكعبة فمن دخل حرم الإرادة أمن من الخلق ، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها فى معصية الله تعالى، ومن دخل الكعبة أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عز وجل . فاذا أصبح العبد لزمه أن ينظر فى ظلمة الليل ونور النهار ويعلم أن أحدهما إذا ظهر عزل صاحبه عن الولاية فكذلك نور المعرفة إذا ظهر عزل ظلمة المعاصى عن الجوارح ، فان كانت حالته حالة يرضاها لحلول الموت شكر الله تعالى على توفيقه وعصمته وإن كانت حالته حالة يكره معها الموت انتقل عنها بصحة العزيمة وكمال الجهد وعلم أن لاملجأ من الله إلا إليه كما أنه لا وصول إليه إلا به فندم على ما أفسد من عمره بسوء اختياره واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب وتصفية باطنه من العيوب وقطع زنار الغفلة عن قلبه وأطفأ نار الشهوة عن نفسه واستقام على طريق الحق وركب مطية الصدق فان النهار دليل الآخرة والليل دليل الدنيا والنوم شاهد الموت ، والعبد قادم على ما أسلف ونادم على ماخلف يقول الله عز وجل (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) .

## باب الأحكام

إعراب القلوب على أربعة أنواع ، رفع وفتح وخفض ووقف

فرفع القلب فى ذكر الله تعالى ، وفتح القلب فى الرضاء عن الله تعالى ، وخفض القلب فى الاشتغال بغير الله تعالى ، ووقف القلب فى الغفلة عن الله تعالى ، فعلامة الرفع ثلاثة أشياء وجود الموافقة وفقد المخالفة ودوام الشوق ، وعلامة الفتح ثلاثة أشياء التوكل والصدق واليقين ، وعلامة الخفض ثلاثة أشياء العجب والرياء والحرص وهو مراعاة الدنيا ، وعلامة الوقف ثلاثة أشياء زوال حلاوة الطاعة وعدم مرارة المعصية والتباس الحلال .

## باب الرعاية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( طلب العلم فريضة على كل مسلم ) وهو علم الأنفاس فيجب أن يكون نفس المريد شكراً أو عذرا ، فإن قبل فقضل وإن رد فعدل فطائع الحركة بالتوفيق والسكون بالعصمة ولا يستقيم ذلك له إلا بدوام الافتقـــار والاضطرار .

## ومفتاح ذلك

ذكر الموت لأن فيه راحة من الحبس ونجاة من العدو وقوامه برذ العمر إلى يوم واحد وان يلتئم ذلك إلا بالتفكر فى الأوقات ، وباب الفكر الفراغ ، وسبب الفراغ الزهد . وعماد الزهد التقوى ، وسنام التقوى الخوف ، وزمام الخوف اليقين ، ونظام اليقين الخلوة والجوع ، وتمامها الجهد والصبر وطريقهما الصدق ، ودليل الصدق العلم

## باب النية

لا بد للعبد من النية فى كل حركة وسكون ( فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ونية المؤمن خير من عمله ) والنية تختلف على حسب اختلاف الأوقات وصاحب النية نفسه منه فى تعب والناس منه فى راحة وليس شىء على المريد أصعب من حفظ النية .

## باب الذكر

اجعل قلبك قبلة لسانك واشعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية واعلم بأن الله تعالى يعلم سر قلبك ويرى ظاهر فعلك ويسمع نجوى قولك ، فاغسل قلبك بالحزن وأوقد فيه نار الخوف فاذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به مع ذكره لك قال الله تعالى ( ولذكر الله أكبر ) لأنه ذكرك مع الغناء عنك وأنت ذكرته مع الفقر إليه ، فقال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيكون اطمئنان القلب فى ذكر الله له ووجله فى ذكره لله ، قال الله تعالى ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) والذكر ذكران ذكر خالص بموافقة القلب فى سقوط النظر إلى غير الله ، وذكر صاف بفناء الهمة عن الذكر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ) .

## باب الشكر

وفى كل نفس من أنفاس العبد نعمة لله تتجدد عليه يلزمه القيام بشكرها وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى ويرضى بما

أعطاه ولا يخالفه بشيء من نعمه وتمام الشكر فى الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على أصغر جزء من نعمه وإن بلغوا غاية المجهود ؛ لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها فليلزمك على كل شكر شكراً إلى مالا نهاية له ، فإذا تولى الله العبد حل عنه شكره فرضى عنه بيسير وحط عنه مايعلم أنه لا يبلغه ويضعفه ( وما كان عطاء ربك محظورا ) .

## باب اللبس

اللباس نعمة من الله على عبده يستر به البشرة ولباس التقوى ذلك خير ، وخير لباسك مالا يشغل سرك عن الله تعالى فاذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده فلا تفضح أحدا من خلقه بعيب تعلمه منه واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الاضطرار إلى الله تعالى فى تطهيره فان العبد إذا نسى ذنبه كان ذلك عقوبة له وازداد به جرأة على المعاصى ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عينى قلبه نصبا ولبكى عليه بجفون سره واستولى عليه الوجل فذاب حياء من ربه وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها انقطع عن حول الله وقوته فاطرح همتك بين يدى الخوف والرجاء ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) .

## باب القيام

فاذا قمت من فراشك فأقم قلبك عن فراش البطالة وأيقظ نفسك عن نوم الجهالة وانهض بكلك إلى من أحياك ورد إليك نفسك وقم بفكرك

عن حركتك وسكونك واصعد بقلبك إلى الملكوت الأعلى ولاتجعل قلبك تابعا لنفسك فان النفس تميل إلى الأرض والقلب يميل إلى السماء واستعمل قول الله عز وجل ( إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) .

## باب السواك

واستعمل السواك فانه مطهرة للفم مرضاة للرب وطهر ظاهرك وباطنك عن دنس الاساءة واخلص أعمالك عن كدر الرياء والعجب واجل قلبك بصافى ذكره ودع عنك مالا ينفعك بل يضرك .

## باب التبرز

وإذا تبرزت لقضاء وطرك فاعتبر فإن الراحة فى إزالة النجاسة واستنج ونكس رأس همتك واغلق باب الكبر وافتح باب الندم واجلس على بساط الندامة واجتهد فى إيثار أمره واجتناب نهيه والصبر على حكمه واغسل شرك بترك الغضب والشهوة واستعمل الرغبة والرهبة فإن الله تعالى مدح قوما فقال ( إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين )

## باب الطهارة

وإذا تطهرت ففكر فى صفوة الماء ورقته وتطهيره وتنظيفه فإن الله تعالى جعله مباركا فقال ( ونزلنا من السماء ماء مباركا ) فاستعمله فى الأعضاء التى فرض الله عليك تطهيرها ولتكن صفوتك

مع الله كصفوة الماء فاغسل وجه قلبك عن النظر إلى غير الله واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره وامسح رأسك عن الافتخار بغيره واغسل رجليك عن السعى لغيره واحمد الله على ماألهمك من دينه .

## باب الخروج

فإذا خرجت من منزلك إلى مسجدك فاعلم أن لله تعالى حقوقا عليك يلزمك أداؤها من ذلك السكينة والوقار والاعتبار بخلق الله برهم وفاجرهم ، قال الله تعالى ( وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ) وغض بصرك عن نظر الغفلة والشهوة وافش السلام مبتدأ ومجيبا وأعن من استعانك على الحق وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن كنت من أهله وأرشد الضال

## باب دخول المسجد

فإذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قصدت بيت ملك عظيم قدره لا يقبل إلا الطاهر ولا يصعد إليه إلا الخالص ففكر فى نفسك من أنت ولمن أنت وأين أنت ومن أى ديوان يخرج اسمك فإذا استصلحت نفسك لخدمته فادخل فلك الاذن والأمان وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطعت عنه الحيل وانسدت عنه السبل فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه أذن لك فتكون أنت بلا أنت والله يرحم عبده ويكرم ضيفه ويعطى سائله ويبر المعرض عنه فكيف المقبل إليه

## باب إفتتاح الصلوات

فإذا استقبلت بوجهك القبلة استقبل بقلبك الحق ولا تنبسط فلست من أهل الانبساط ، واذكر وقوفك بين يديه يوم العرض الأكبر وقف على قدمى الخوف والرجاء وارفع قلبك عن النظر إلى الدنيا والخلق وارسل همتك إليه فإنه لا يرد الآبق ولا يخيب السائل . فإذا قلت الله أكبر فاعلم أنه لايحتاج إلى خدمتك له وذكرك إياه لأن الحاجة من حيلة الفقراء وذلك سمة الخلق والغنى من صفات ذاته وإنما وظف على عبيده وظائف ليقربهم بها إلى عفوه ورحمته ويبعدهم بها من سخطه وعقوبته قال الله عز وجل ( وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ) وقال عز من قائل ( ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ) الآية واشكر الله إذ جعلك أهلا للوقوف بين يديه فإنه ( أهل التقوى وأهل المغفرة ) أهل أن يتقيه خلقه فيغفر لمن اتقاه.

## باب القراءة

قال الله تعالى ( فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ( إنما سلطانه على الذين يتولونه أنه من تولاه فأنه يضله ) واذكر عهد الله عليك وميثاقه فى وحيه وتنزيله وانظر كيف تقرأ كلامه وكتابه فرتل وتدبر وقف عند وعده ووعيده وأمثاله ومواعظه وأمره ونهيه ومحكمه ومتشابهه وإنى لأخشى أن تكون إقامتك حدوده غفلة من تضييعك حدوده . قال الله عز وجل ( فبأى حديث بعده يؤمنون ).

## باب الركوع

واركع ركوع خاشع لله بقلبه خاضعا بجوارحه واستوف ركوعك وانحط عن همتك فى القيام بأمره فإنك لا تقدر على أداء فرضه إلا بعونه ولا تبلغ دار رضوانه إلا برحمته ولا تستطيع الامتناع من معصيته إلا بعصمته ولا تنجو من عذابه إلا بعفوه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته)

## باب السجود

واسجد لله سجود عبد متواضع علم أنه خلق من تراب يطؤه جميع الخلق وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد فإذا فكر فى أصله وتأمل تركيب جوهره من ماء وطين ازداد لله تواضعا ويقول فى نفسه ويحك لم رفعت رأسك من سجودك لم لم تمت بين يديه وقد جعل الله السجود سبب القرب إليه فقال تعالى (واسجد واقترب) فمن اقترب منه بعد من كل شىء سواه واحفظ صفة سجودك فى هذه الآية (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى). واستغن بالله عن غيره فإنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (قال الله تبارك وتعالى لا أطلع على قلب عبد فأعلم منه حب العمل بطاعتى إلا توليت تقويمه وسياسته.

## باب التشهد

والتشهد ثناء وشكر له وتعرض لمزيد فضله ودوام كرامته فاخرج عن دعواك وكن له عبدا بفعلك كما أنت عبد له بقولك فانه خلقك عبدا وأمرك أن تكون له عبدا كما خلقك ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ) فاستعمل العبودية فى الرضى بحكمته واستعمل العبادة فى النزول تحت أمره وصل على حبيبه عقب الثناء عليه فانه وصل محبته بمحبته وطاعته بطاعته ومتابعته بمتابعته فقال تعالى ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ) وقال ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) وقال ( إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ) وأمر رسوله بالاستغفار لك فقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ) وأمرك بالصلاة عليه فقال تعالى ( إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا وعامله بالفضل ) فقال تعالى ( ورفعنا لك ذكرك ) ثم أمره بمعاملته بالعدل فقال لغيره ( فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ) وقال له ( فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ) .

## باب السلام

السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه فى معاملته ومعاشرة خلقه فاذا أردت السلامة فليسلم منك صديقك وارحم من لا يرحم نفسه فإن الخلق بين فتن ومحن إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكره وإما مبتلى بالشدة ليظهر صبره ، قال الله تعالى (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهان ) كلا فالكرامة فى طاعته والهوان فى معصيته ومن ركب الهوى أهانه الله .

## باب الدعاء

واحفظ آداب الدعاء وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ولماذا تسأل . والدعاء استجابة الكل منك للحق وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الاجابة ، قال مالك بن دينار أنتم تستبطؤن المطر وأنا أستبطىء الحجر ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه ولو لم يشترط لنا الإجابة لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابة . فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء قال الله تعالى (قل مايعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم ) وقال تعالى ( ادعونى أستجب لكم ) وسئل أبو يزيد البسطامى عن اسم الله الأعظم فقال فرغ قلبك من غيره وادعه بأى أسمائه شئت ، وقال يحي بن معاذ اطلب صاحب الاسم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا يستجيب الله الدعاء من قلب لاه فاذا أخلصت فابشر بإحدى ثلاث ) إما أن يعجل لك

ماسئلت وإما أن يدخر لك ماهو أعظم منه وإما أن يصرف عنك من البلاء مالو صبه عليك لهلكت وادع دعاء مستجد لا دعاء مشير ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (قال الله تبارك وتعالى من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين) وقال أبو الحسين الوراق دعوت الله مرة فاستجاب دعائى فنسيت الحاجة فاحفظ حق الله عز وجل عليك فى الدعاء ولا تشتغل بحظك فإنه أعلم بمصلحتك .

## باب الصوم

فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات فان الصوم فناء مراد النفس وفيه صفاء القلب وضمارة الجوارح والتنبيه على الاحسان إلى الفقراء والالتجاء إلى الله والشكر على ماتفضل به من النعم وتخفيف الحساب ، ومنة الله فى توفيقك للصوم أعظم من أن تقوم بشكرها ومن صومك أن لا تطلب منه عوضا .

## باب الزكاة

وعن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله فزكاة القلب التفكر فى عظمته وحكمته وقدرته وحجته ونعمته ورحمته وزكاة العين النظر بالعبرة والغض عن الشهوة وزكاة الأذن الاستماع إلى مافيه نجاتك اللسان النطق بما يقربك إليه وزكاة اليد القبض عن الشر والبسط إلى الخير وزكاة الرجل السعى إلى مافيه صلاح قلبك وسلامة دينك .

## باب الحج

والمريد إذا حج يعقد النية خوف الرد واستعد استعداد من لا يرجو الإياب وأحسن الصحبة وتجرد عند الاحرام عن نفسه واغتسل من ذنبه ولبس ثوب الصدق والوفاء ولبا موافقة للحق فى إجابة دعوته . واحرم فى الحرم من كل شيء يبعده عن الله تعالى وطاف بقلبه حول كرسى كرامته ، وصفى ظاهره ، وباطنه عند الوقوف على الصفا وهرول هربا من هواه ولم يتمن على الله تمنى مالا يحل له واعترف بالخطاء بعرفة وتقرب إلى الله بمزدلفة ورمى الشهوات عند رمى الجمرات ، وذبح هواه وحلق الذنوب وزار البيت معظماً صاحبه واستلم الحجر رضاء بقضائه وودع مادون الله فى طواف الوداع .

## باب السلامة

واطلب السلامة فليت من طلبها وجدها فكيف لمن تعرض للبلاء ، والسلامة قد عزت فى هذا الزمان وهى فى الخمول فإن لم تكن فى الخمول فالعزلة وليست كالخمول فإن لم تكن عزلة فالصمت وليس كالعزلة فإن لم تكن فى صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر وليس كالصمت وإن أردت السلامة فلا تنازع الأضداد ولا تنافس الاشكال. كل من قال أنا فقل أنت وكل من قال لى فقل لك والسلامة فى زوال العرف وزوال العرف فى فقد الارادة وفقد الإرادة فى ترك دعوى العلم فيما استأثر الله به من تدبير أمرك قال الله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وقال ( يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ) .

## باب العزلة

صاحب العزلة يحتاج إلى عشرة أشياء علم الحق والباطل والزهد واختيار الشدة واغتنام الخلوة والسلامة والنظر فى العواقب وأن يرى غيره أفضل منه ويعزل عن الناس شره ولا يفتر عن العمل فإن الفراغ بلاء ولا يعجب بما هو فيه ويخلو بيته من الفضول والفضول مافضل عن يومك لأهل الإرادة وما فضل عن وقتك لأهل المعرفة ويقطع مايقطعه عن الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان : كن حلس بيتك وقال عيسى بن مريم عليه السلام : املك لسانك وليسعك بيتك وانزل نفسك منزلة السبع الضارى والنار المحرقة ، وقد كان الناس ورقا بلا شوك فصاروا شوكا بلا ورق وكانوا أدواء يستشفى بهم فصاروا داء لادواء له . قيل لداود الطائى مالك لا تخالط الناس فقال كيف أخالط من يتبع عيوبى كبير لا يعرف الحق وصغير لا يوقر ، من استأنس بالله استوحش من غيره ، وقال الفضيل: إن استطعت أن تكون فى موضع لاتَعرف ولا تُعرف فافعل وقال سليمان : همى من الدنيا أن ألبس عباءة وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفنى ولا غذاء لى ولا عشاء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( يأتى زمان المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر وله أجر خمسين منكم ) وفى العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسقوط حقوق الخلق وإغلاق أبواب الدنيا وكسر سلاح الشيطان وعمارة الظاهر والباطن .

## باب العبادة

اقبل على أداء الفرائض فان سلم لك فرضك فأنت أنت واطلب بالنوافل حفظ الفرائض وكلما ازددت عبادة فازدد شكراً وخوفا ؛ قال يحيى بن معاذ عجبت لطالب فضيلة تارك فريضة ومن كان عليه دين فأهدى إلى صاحب الدين مثل حقه كان مطالبا بالحق إذا حل الأجل وقال أبو بكر الوراق : ابذل فى هذا الزمان أربعة على أربعة الفضائل على الفرائض والظاهر على الباطن والخلق على النفس والكلام على الفعل .

## باب التفكر

تفكر فى قوله عز وجل ( هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ) واذكر كيف أحوالك واعتبر بما مضى من الدنيا على ماتراه . هل أبقت على أحد ، وما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة ) وقيل لنوح عليه السلام ( كيف وجدت الدنيا ياأطول الأنبياء عمرا قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ) والفكرة أبو كل خير وهى مرآة تريك الحسنات والسيئات .

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده

(١) قال الشيخ محمد بن على بن الساكن فى كتاب دليل الطالب إلى نهاية المطالب قال فالطالب المجتهد إذا أراد لبس الخرقة فالواجب عليه أن يخلع الثوب الذى كان يلبسه فى أيام العادة وأحسن ماتلبس

---

(١) هذه العبارة وجدت بالأصل هكذا .

هذه الطائفة الصوف إذ هم منسوبون إليه ، قيل إن أول من لبس الصوف آدم وحوى عليهما السلام ، وكان موسى وعيسى ويحي عليهم السلام يلبسون الصوف ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء وكان يلبس عباءة كان مقدار ثمنه خمس دراهم وينبغي أن لا يلبس الصوف إلا من صفى من كدر النفس فقد قال الحسن البصرى بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تلبسوا الصوف إلا وقلوبكم نقية فانه من لبس الصوف على دغل وغش قلاه جبار السماء فإذا لبسه وجب أن يقوم بوظائف حروفه ، وهى ثلاثة ، أما وظيفة الصاد : فهى الصدق والصفاء والصيانة والصبر والصلاح ، وأما وظيفة الواو : فهى الوصلة والوفاء والوجد ، وأما وظيفة الفاء : فهى الفرح والتفجع فلو لبس المرقع وجب عليه أن يؤدى حق حروفه ، وهى أربعة فحق الميم المعرفة والمجاهدة والمذلة وحق الراء الرحمة والرأفة والرياضة والراحة ، وحق القاف القناعة والقربة والقوة والقول الصدق ، وحق العين : العلم والعمل والعشق والعبودية ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلبس المرقع حيث قال لعائشة رضى الله عنها إن سرك اللحوق بي فإياك ومجالسة الموتى ولا تستبدلي ثوبا حتى ترقعيه انتهى والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

# الرسالة اللدنية

الحمد لله الذى زين قلوب خواص عباده بنور الولاية ، وربى أرواحهم بحسن العناية ، وفتح باب التوحيد على العلماء العارفين بمفتاح الدراية ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين صاحب الدعوة والرعاية ، ودليل الأمة إلى الهداية ، وعلى آله سكان حرم الحماية ، اعلم أن واحداً من أصدقائى حكى عن بعض العلماء أنه أنكر العلم الغيبى اللدنى الذى يعتمد عليه خواص المتصوفة ، وينتمى إليه أهل الطريقة ، ويقولون إن العلم اللدنى أقوى وأحكم من العلوم المكتسبة المحصلة بالتعلم ، وحكى أن ذلك المدعى يقول بأنى لا أقدر على تصوير علم الصوفية ، ولا أظن أن أحداً فى العالم يتكلم فى العلم الحقيقى من فكر وروية دون تعلم وكسب ، فقلت كأنه ما اطلع على طرق التحصيل ، وما درى أمر النفس الإنسانية وصفاتها وكيفية قبولها لآثار الغيب وعلم الملكوت ، فقال صديقى نعم إن ذلك الرجل يقول بأن العلم هو الفقه وتفسير القرآن والكلام حسب ، وليس وراءها علم وهذه العلوم لا تحصل إلا بالتعلم والتفقه ، فقلت نعم فكيف يعلم علم التفسير فإن القرآن هو البحر المحيط المشتمل على جميع الأشياء

وليس جميع معانيه وحقائق تفسيره مذكورة فى هذه التصانيف المشهورة بين العوام بل التفسير غير ما يعلم ذلك المدعى ، فقال ذلك الرجل لا يعد التفاسير إلا التفاسير المعروفة المذكورة والمنسوبة إلى القشيرى والثعلبى والماوردى وغيرهم ، فقلت لقد بعد عن منهج الحقيقة فإن السلمى جمع شيئا فى التفسير من كلمات المحققين شبه التحقيق ، وتلك الكلمات غير مذكورة فى سائر التفاسير . وذلك الرجل الذى لا يعد العلم إلا الفقه والكلام . وهذا التفسير العامى كأنه ماعلم أقسام العلوم وتفاصيلها ومراتبها وحقائقها وظواهرها وبواطنها ، وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشىء ينكر ذلك الشىء وذلك المدعى ماذاق شراب الحقيقة وما اطلع على العلم اللدنى فكيف يقر بذلك ، ولا أرضى بإقراره تقليدا أو تخمينا مالم يعرف ، فقال ذلك الصديق أريد أن تذكر طرفا من مراتب العلوم وتصحح هذا العلم وتعزيه أنت لنفسك وتقر على إثباته ، فقلت إن هذا المطلوب بيانه عسير جداً لكن أشرع فى مقدماته بحسب اقتضاء حالى وموافقة وقتى وماسنح بخاطرى ولا أريد تطويل الكلام فإن خير الكلام ماقل ودل ، وسألت الله عزوجل التوفيق والإعانة ، وذكرت مطلوب صديقى الفاضل فى هذا المفضول .

## ( فصل )

اعلم أن العلم تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة ، والعالم هو المحيط المدرك المتصور ، والمعلوم هو ذات

الشيء الذي ينتقش علمه في النفس ، وشرف العلم على قدر شرف معلومه ، ورتبة العالم تكون بحسب رتبة العلم . ولا شك أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلها هو الله الصانع المبدع الحق الواحد ، فعلمه وهو علم التوحيد أفضل العلوم وأجلها ، وأكملها وهذا العلم ضروري واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام ( طلب العلم فريضة على كل مسلم ) وأمر بالسفر في طلب هذا العلم . فقال صلى الله عليه وسلم ( اطلبوا العلم ولو بالصين ) وعالم هذا العلم أفضل العلماء ، وبهذا السبب خصهم الله تعالى بالذكر في أجل المراتب، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) فعلماء علم التوحيد بالاطلاق هم الأنبياء وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وهذا العلم وإن كان شريفا في ذاته كاملا في نفسه لا ينفي سائر العلوم بل لا يحصل إلا بمقدمات كثيرة ، وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى مثل علم السموات والأفلاك وعلم جميع المصنوعات ، ويتولد عن علم التوحيد علوم أخر كما سنذكر أقسامها في مواضعها .

فاعلم أن العلم شريف بذاته من غير نظر إلى جهة المعلوم حتى أن علم السحر شريف بذاته وإن كان باطلا ، وذلك أن العلم ضد الجهل والجهل من لوازم الظلمة ، والظلمة من حيز السكون ، والسكون قريب من العدم ويقع الباطل والضلالة في هذا القسم ، فاذا الجهل حكمه حكم العدم ، والعلم حكمه حكم الوجود ، والوجود خير من

العدم ، والهداية والحق والنور كلها فى سلك الوجود ، فاذا كان الوجود أعلى من العدم فالعلم أشرف من الجهل فإن الجهل مثل العمى والظلمة ، والعلم مثل البصر والنور ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، وصرح سبحانه بهذه الاشارات فقال ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ) فاذا كان العلم خيراً من الجهل والجهل من لوازم الجسم ، والعلم من صفات النفس ، والنفس أشرف من الجسم ، وللعلم أقسام كثيرة نحصيها فى فصل آخر . وللعالم فى طلب العلم طرق عديدة نذكرها فى فصل آخر . والآن لايتعين عليك بعد معرفة فضل العلم إلا معرفة النفس التى هى لوح العلوم ومقرها ومحلها ، وذلك أن الجسم ليس بمحل للعلم لأن الأجسام متناهية ، ولا تسع كثرة العلوم بل لا يحتمل إلا النقوش والرقوم ، والنفس قابلة لجميع العلوم من غير ممانعة ولا مزاحمة وملال وزوال ، ونحن نتكلم فى شرح النفس على سبيل الاختصار .

## فصل فى شرح النفس والروح الانسانى

اعلم أن الله تعالى خلق الانسان من شيئين مختلفين أحدهما : الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابى الذى لايتم أمره إلا بغيره ، والآخر : هو النفس الجوهرى المفرد المنير المدرك الفاعل المحرك المتمم للآلات والأجسام ، والله تعالى ركب الجسد من أجزاء الغذاء ورباه بأجزاء الرماد ، ومهد قاعدته وسوى أركانه وعين أطرافه وأظهر جوهر النفس من أمره

الواحد الكامل المكمل المفيد . ولا أعنى بالنفس القوة الطالبة للغذاء ، ولا القوة المحركة للشهوة والغضب ، ولا القوة الساكنة فى القلب المولدة للحياة والمبرزة للحس والحركة من القلب إلى جميع الأعضاء فان هذه القوة تسمى روحا حيوانيا ، والحس والحركة والشهوة والغضب من جنده وتلك القوة الطالبة للغذاء الساكنة فى الكبد بالتصرف يقال لها روحا طبيعيا ، والهضم والدفع من صفاتها ، والقوة المصورة والمولدة والنامية وباقى القوى المنطبعة كلها خدام للجسد ، والجسد خادم الروح الحيوانى لأنه يقبل القوى عنه ويعمل بحسب تحريكه ، وإنما أعنى بالنفس ذلك الجوهر الكامل الفرد الذى ليس من شأنه إلا التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والروية ، ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد ، وهذا الجوهر رئيس الأرواح وأمير القوى ، والكل يخدمونه ويمتثلون أمره ، وللنفس الناطقة أعنى هذا الجوهر عند كل قوم اسم خاص ، فالحكماء يسمون هذا الجوهر النفس الناطقة ، والقرآن يسميه النفس المطمئنة والروح الأمرى ، والمتصوفة تسميه القلب . والخلاف فى الأسامى والمعنى واحد لاخلاف فيه ، فالقلب والروح عندنا ، والمطمئنة كلها أسامى النفس الناطقة ، والنفس الناطقة هى الجوهر الحى الفعال المدرك ، وحيثما نقول الروح المطلق أو القلب فانما نعنى به هذا الجوهر ، والمتصوفة يسمون الروح الحيوانى نفسا . والشرع ورد بذلك ، فقال ( أعدى عدوك نفسك ) وأطلق الشارع

اسم النفس بل أكدها بالإضافة ، فقال نفسك التى بين جنبيك ، وإنما أشار بهذه اللفظة إلى القوة الشهوانية والغضبية فانهما ينبعثان عن القلب الواقف بين الجنبين ، فاذا عرفت فرق الأسامى فاعلم أن الباحثين يعبرون عن هذا الجوهر النفيس بعبارات مختلفة ، ويرون فيه آراء متفاوتة ، والمتكلمون المعروفون بعلم الجدل يعدون النفس جسما ، ويقولون إنه جسم لطيف بإزاء هذا الجسم الكثيف . ولا يرون الفرق بين الروح والجسد إلا باللطافة والكثافة ، وبعضهم يعد الروح عرضا ، وبعض الأطباء يميل إلى هذا القول ، وبعضهم يرى الدم روحا ـ وكلهم قنعوا بقصور نظرهم على تخيلهم وما طلبوا القسم الثالث ، واعلم أن الأقسام ثلاثة الجسم والعرض والجوهر الفرد ، فالروح الحيوانى جسم لطيف كأنه سراج مشعل موضوع فى زجاجة القلب أعنى ذلك الشكل الصنوبرى المعلق فى الصدر ، والحياة ضوء السراج والدم دهنه والحس والحركة نوره . والشهوة حرارته ، والغضب دخانه ، والقوة الطالبة للغذاء الكائنة فى الكبد خادمه وحارسه ووكيله ـ وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات ، والانسان هو جسم وآثاره أعراض ، وهذا الروح لايهتدى إلى العلم ولايعرف طريق المصنوع ولا حق الصانع ، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن ، لو يزيد الدم ينطفى ذلك السراج بزيادة الحرارة ، ولو ينقص ينطفى بزيادة البرودة وانطفاؤه سبب موت البدن ، وليس خطاب البارى سبحانه ولا تكليف الشارع لهذا الروح لأن البهائم وسائر

الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع ، والانسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائداً خاصا به ، وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة ، وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض لأنه من أمر الله تعالى كما قال (قل الروح من أمر ربى) وقال (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وأمر البارى تعالى ليس بجسم ولا عرض بل قوة إلهية مثل العقل الأول واللوح والقلم ، وهى الجواهر المفردة المفارقة للمواد بل هى أضواء مجردة معقولة غير محسوسة ، والروح والقلب بلساننا من قبل تلك الجواهر ، ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت بل يفارق البدن وينتظر العود إليه فى يوم القيامة كما ورد فى الشرع . وقد صح فى العلوم الحكمية بالبراهين القاطعة ، والدلائل الواضحة أن الروح الناطق ليس بجسم ولا عرض بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد ، ونحن نستغنى عن تكرير البرهان وتعديد الدلائل لأنها مقررة مذكورة . فمن أراد تصحيحها فليرجع إلى الكتب اللائقة بذلك الفن . فأما فى طريقنا فلا يتأتى بالبرهان بل نعول على العيان ونعتمد على رؤية الإيمان ، ولما أضاف الله تعالى الروح إلى أمره وتارة إلى عزته فقال (فنفخت فيه من روحى) وقال (قل الروح من أمر ربى) وقال (ونفخنا فيه من روحنا) والله تعالى أجل من أن يضيف إلى نفسه جسما أو عرضا لخستهما وتغيرهما وسرعة زوالهما وفسادهما ، والشارع صلى الله عليه وسلم قال « الأرواح جنود مجندة»

وقال « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر » والعرض لا يبقى بعد فناء الجوهر لأنه لا يقوم بذاته ، والجسم يقبل التحليل كما قبل التركيب من المادة والصورة كما هو مذكور في الكتب ، فلما وجدنا هذه الآيات والأخبار والبراهين العقلية علمنا أن الروح جوهر فرد كامل حي بذاته يتولد منه صلاح الدين وفساده ، والروح الطبيعي والحيواني وجميع القوى البدنية كلها من جنوده ، وأن هذا الجوهر يقبل صور المعلومات وحقائق الموجودات من غير اشتغال بأعيانها وأشخاصها . فان النفس قادرة على أن تعلم حقيقة الانسانية من غير أن ترى إنسانا كما أنها علمت الملائكة والشياطين ، وما احتاجت إلى رؤية أشخاصها إذ لا ينالها حواس أكثر الناس ، وقال قوم من المتصوفة إن للقلب عينا كما للجسد فيرى الظواهر بالعين الظاهرة ، ويرى الحقائق بعين العقل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من عبد إلا ولقلبه عينان » وهما عينان يدرك بهما الغيب فاذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح عيني قلبه ليرى ما هو غائب عن بصره ، وهذا الروح لا يموت بموت البدن لأن الله تعالى يدعوه إلى بابه فيقول (ارجعي إلى ربك) وإنما هو يفارق ويعرض عن البدن ، فمن اعراضه تتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية فيسكن المتحرك فيقال لذلك السكون موتا ، وأهل الطريقة أعني الصوفية يعتمدون على الروح والقلب أكثر اعتماداً منهم على الشخص . وإذا كان الروح من أمر الباري تعالى فيكون في البدن كالغريب ، ويكون

وجهه إلى أصله ومرجعه . فينال الفوائد من جانب الأصل أكثر مما ينال من جهة الشخص إذا قوى ولم يدنس بأدناس الطبيعة . وإذا علمت أن الروح جوهر فرد وعلمت أن الجسد لا بد له من المكان . والعرض لا يبقى إلا بالجوهر . فاعلم أن هذا الجوهر لا يحل فى محل ولا يسكن فى مكان وليس البدن مكان الروح ولا محل القلب بل البدن آلة الروح وأداة القلب ومركب النفس . والروح ذاته غير متصل بأجزاء البدن ولا منفصل عنه بل هو مقبل على البدن مفيد له مفيض عليه ، وأول ما يظهر نوره على الدماغ لأن الدماغ مظهره الخاص اتخذ من مقدمه حارسا . ومن وسطه وزيراً ومدبرا ، ومن آخره خزانة وخازنا ، ومن جميع الأجزاء رجالا وركبانا ، ومن الروح الحيوانى خادما ، ومن الطبيعى وكيلا ، ومن البدن مركبا ، ومن الدنيا ميداناً ، ومن الحياة بضاعة ومالا ، ومن الحركة تجارة ، ومن العلم ربحا ، ومن الآخرة مقصداً ومرجعاً ، ومن الشرع طريقة ومنهجاً ، ومن النفس الأمارة حارساً ونقيباً ، ومن اللوامة منبها ، ومن الحواس جواسيس وأعوانا ومن الدين درعا ، ومن العقل أستاذا ، ومن الحس تلميذاً ، والرب سبحانه من وراء هذه كلها بالمرصاد ، والنفس بهذه الصفة مع هذه الآلة ما أقبلت على هذا الشخص الكثيف ، وما اتصلت بذاته بل تنيله الإفادة ، ووجهها إلى بارئها وأمر بارئها بالاستفادة إلى أجل مسمى ، فالروح لا يشتغل فى مدة هذا السفر إلا بطلب العلم لأن العلم يكون حليته فى دار الآخرة ، لأن حلية المال والبنين زينة حياة الدنيا ، فكما أن العين

مشغولة برؤية المنظورات . والسمع مواظب على استماع الأصوات ، واللسان مستعد لتركيب الأقوال ، والروح الحيوانى مريد اللذات الغضبية . والروح الطبيعى محب للذات الأكل والشرب كذلك الروح المطمئنة أعنى القلب لا يريد إلا العلم ولا يرضى إلا به ويتعلم طول عمره . ويتحلى بالعلم جميع أيامه إلى وقت مفارقته ، ولو قبل أمرا آخر دون العلم فإنما يقبل عليه لمصلحة البدن لا لمراد ذاته ومحبة أصله . فإذا علمت أحوال الروح ودوام بقائه وعشقه للعلم وشغفه به . فيجب عليك أن تعلم أصناف العلم فإنها كثيرة ونحن نحصيها بالاختصار .

## فصل فى أصناف العلم وأقسامه

اعلم أن العلم على قسمين . أحدهما : شرعى ، والآخر : عقلى . وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها . وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها ( ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ) .

أما القسم الأول : وهو العلم الشرعى فينقسم إلى نوعين . أحدهما : فى الأصول وهو علم التوحيد . وهذا العلم ينظر فى ذات الله تعالى وصفاته القديمة ، وصفاته الفعلية . وصفاته الذاتية المتعددة بالأسامى على الوجه المذكور . وينظر أيضا فى أحوال الأنبياء والأئمة من بعدهم والصحابة . وينظر فى أحوال الموت والحياة وفى أحوال القيامة والبعث والحشر والحساب . ورؤية الله تعالى وأهل النظر فى هذا العلم يتمسكون أولا بآيات الله تعالى من القرآن . ثم بأخبار الرسول

صلى الله عليه وسلم . ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية . وأخذوا مقدمات القياس الجدلى والعنادى ولواحقهما من أصحاب المنطق الفلسفى . ووضعوا أكثر الألفاظ فى غير مواضعها ، ويعبرون فى عباراتهم بالجوهر والعرض والدليل والنظر والاستدلال والحجة ، ويختلف معنى كل لفظة من هذه الألفاظ عند كل قوم حتى إن الحكماء يعنون بالجوهر شيئا ؛ والصوفية يعنون شيئا آخر ، والمتكلمون شيئاً وعلى هذا المثال ، وليس المراد فى هذه الرسالة تحقيق معانى الألفاظ على حسب آراء القوم، فلا نشرع فيها . وهؤلاء القوم مخصوصون على بالكلام فى الأصول وعلم التوحيد ولقبهم المتكلمون فإن اسم الكلام اشتهر على علم التوحيد . ومن علم الأصول التفسير فإن القرآن من أعظم الأشياء وأبينها وأجلها وأعزها . وفيه من المشكلات الكثيرة مالا يحيط بها كل عقل إلا من أعطاه الله تعالى فهما فى كتابه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن آية من آيات القرآن إلا ولها ظهر وبطن ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن » وفى رواية إلى تسعة . وقال صلى الله عليه وسلم « لكل حرف من حروف القرآن حد ولكل حد مطلع » والله تعالى أخبر فى القرآن عن جميع العلوم وجلى الموجودات وخفيها وصغيرها وكبيرها ومحسوسها ومعقولها . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى ( ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ) وقال تعالى : ( ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ) وإذا كان أمر القرآن أعظم الأمور فأى مفسر أدى حقه . وأى عالم خرج عن عهدته . نعم كل

واحد من المفسرين شرع فى شرحه بمقدار طاقته . وخاض فى بيانه بحسب قوة عقله . وقدر كنه علمه. فكلهم قالوا ، وبالحقيقة ماقالوا : وعلم القرآن يدل على علم الأصول والفروع والشرعى والعقلى . ويجب على المفسر أن ينظر فى القرآن من وجه اللغة ، ومن وجه الاستعارة ، ومن وجه تركب اللفظ ، ومن وجه مراتب النحو ، ومن وجه عادة العرب ، ومن وجه أمور الحكماء ، ومن وجه كلام المتصوفة حتى يقرب تفسيره إلى التحقيق ، ولو يقتصر على وجه واحد ويقنع فى البيان بفن واحد لم يخرج عن عهدة البيان ، ويتوجه عليه حجة الإيمان وإقامة البرهان ، ومن علم الأصول أيضاً علم الأخبار . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب والعجم ، وكان معلماً يوحى إليه من قبل الله تعالى ، وكان عقله محيطا بجميع العلويات والسفليات ، فكل كلمة من كلماته بل لفظة من ألفاظه يوجد تحتها بحار الأسرار وكنوز الرموز ، فعلم أخباره ومعرفة أحاديثه أمر عظيم ، وخطب جليل . لا يقدر أحد أن يحيط بعلم الكلام النبوى إلا أن يهذب نفسه بمتابعة الشارع ، ويزيل الاعوجاج عن قلبه بتقويم شرع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أراد أن يتكلم فى تفسير القرآن وتأويل الأخبار ويصيب فى كلامه . فيجب عليه أولا تحصيل علم اللغة والتبحر فى فن النحو ، والرسوخ فى ميدان الإعراب ، والتصرف فى أصناف التصريف . فإن علم اللغة سلم ومرقاة إلى جميع العلوم ، ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم . فإن من أراد أن يصعد سطحا عليه تمهيد المرقاة

أولا ثم بعد ذلك صعد . وعلم اللغة وسيلة عظيمة ، ومرقاة كبيرة . فلا يستغنى طالب العلم عن أحكام اللغة : فعلم اللغة أصل الأصول ، وأول علم اللغة معرفة الأدوات. وهى بمنزلة الكلمات المفردة . وبعدها معرفة الأفعال مثل الثلاثى والرباعى وغيرهما . ويجب على اللغوى أن ينظر فى أشعار العرب . وأولاها وأتقنها أشعار الجاهلية . فإن فيها تنقيحا للخاطر . وترويحا للنفس ومع ذلك الشعر والأدوات والأسامى يجب تحصيل علم النحو فإنه لعلم اللغة بمنزلة ميزان القبان للذهب والفضة. والمنطق لعلم الحكمة ، والعروض للشعر ، والذراع للأثواب . والمكيال للحبوب ، وكل شىء لا يوزن بميزان لا يتبين فيه حقيقة الزيادة والنقصان . فعلم اللغة سبيل إلى علم التفسير والأخبار ، وعلم القرآن والأخبار دليل على علم التوحيد ، وعلم التوحيد هو الذى لا تنجو نفوس العباد إلا به ولا تتخلص من خوف المعاد إلا به ، فهذا تفصيل علم الأصول .

(النوع الثانى) من العلم الشرعى هو علم الفروع . وذلك أن العلم إما أن يكون علميا ، وإما أن يكون عمليا ، وعلم الأصول هو العلمى ، وعلم الفروع هو العملى ، وهذا العلم العملى يشتمل على ثلاثة حقوق (أولها) حق الله تعالى وهو أركان العبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج والجهاد والأذكار والأعياد والجمعة وزوائدها من النوافل والفرائض (وثانيها) حق العباد وهو أبواب العادات ، ويجرى فى وجهين . أحدهما : المعاملة . مثل البيع والشركة والهبة والقرض

والدين والقصاص وجميع أبواب الديات ، والوجه الثانى : المعاقدة . مثل النكاح والطلاق والعتق والرق والفرائض ولواحقها ، ويطلق اسم الفقه على هذين الحقين . وعلم الفقه علم شريف مفيد عام ضرورى لا يستغنى الناس عنه لعموم الضرورة إليه ( وثالثها حق النفس ) ، وهو علم الأخلاق . والأخلاق إما مذمومة . ويجب رفضها وقطعها ، وإما محمودة ويجب تحصيلها وتحلية النفوس بها . والأخلاق المذمومة والأوصاف المحمودة مشهورة فى كتاب الله تعالى وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم : من تخلق بواحد منها دخل الجنة .

وأما القسم الثانى : من العلم فهو العلم العقلى وهو علم معضل مشكل يقع فيه خطأ وصواب . وهو موضوع فى ثلاثة مراتب ( المرتبة الأولى ) وهو أول المراتب العلم الرياضى والمنطق . أما الرياضى فمنه الحساب وينظر فى العدد والهندسة وهى علم المقادير والأشكال والهيئة أعنى علم الأفلاك والنجوم وأقاليم الأرض وما يتصل بها ، ويتفرع عنه علم النجوم وأحكام المواليد والطوالع ، ومنه علم الموسيقى الناظر فى نسب الأوتار ، وأما المنطق فينظر فى طريق الحد والرسم فى الأشياء التى تدرك بالتصور ، وينظر من طريق القياس والبرهان فى العلوم التى تنال بالتصديق ، ويدور علم المنطق على هذه القاعدة يبتدىء بالمفردات ثم بالمركبات ، ثم بالقضايا ، ثم بالقياس ، ثم بأقسام القياس ، ثم مطلب البرهان ، وهو نهاية علم المنطق ( والمرتبة الثانية ) وهو أوسطها العلم الطبيعى ، وصاحبه ينظر

فى الجسم المطلق ، وأركان العالم وفى الجواهر والأعراض ، وفى الحركة والسكون ، وفى أحوال السموات والأشياء الفعلية والانفعالية . ويتولد من هذا العلم النظر فى أحوال مراتب الموجودات وأقسام النفوس والأمزجة ، وكمية الحواس ، وكيفية إدراكها لمحسوساتها . ثم يؤدى إلى النظر فى علم الطب وهو علم الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات وما يتعلق بها ، ومن فروعه علم الآثار العلوية ، وعلم المعادن ، ومعرفة خواص الأشياء . وينتهى إلى علم صنعة الكيمياء وهى معالجة الأجساد المريضة فى أجواف المعادن . (والمرتبة الثالثة) وهى العليا هى النظر فى الموجود ، ثم تقسيمه إلى الواجب والممكن . ثم النظر فى الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه وترتب ظهور الموجودات عنه . ثم النظر فى العلويات والجواهر المفردة والعقول المفارقة ، والنفوس الكاملة . ثم النظر فى أحوال الملائكة والشياطين ، وينتهى إلى علم النبوات وأمر المعجزات وأحوال الكرامات . والنظر فى أحوال النفوس المقدسة وحال النوم واليقظة ومقامات الرؤيا ، ومن فروعه علم الطلسمات والنيرنجات وما يتعلق بها . ولهذه العلوم تفاصيل وأعراض ومراتب ، تحتاج إلى شرح جلى ببرهان بهى ولكن الاقتصار أولى .

## فصـــل

اعلم أن العلم العقلى مفرد بذاته ويتولد منه علم مركب يوجد فيه جميع أحوال العلمين المفردين ، وذلك العلم المركب علم الصوفية . وطريقة أحوالهم . فإن لهم علما خاصا بطريقة واضحة مجموعة من

العلمين ، وعليهم يشتمل على الحال ، والوقت والسماع ، والوجد والشوق، والسكر،والصحو والاثبات والمحو ، والفقر والفناء ،والولاية والإرادة ، والشيخ والمريد . ومايتعلق بأحوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات : ونحن نتكلم فى هذه العلوم الثلاثة فى كتاب خاص إن شاء الله تعالى ، والآن ليس قصدنا إلا تعديد العلوم وأصنافها فى هذه الرسالة . وقد اختصرناها وعددناها على طريق الاختصار والإيجاز : ومن أراد الزيادة وشرح هذه العلوم فليرجع إلى مطالعة الكتب . ولما انتهى الكلام فى بيان تعديد أصناف العلوم . فاعلم أنت يقينا أن كل فن من هذه الفنون ، وكل علم من هذه العلوم ، يستدعى عدة شرائط لينتقش فى نفوس الطالبين ، فبعد تعديد العلوم يجب عليك أن تعرف طرق التحصيل فإن لتحصيل العلم طرقا معينة نحن نفصلها ( إن شاء الله )

## فصل فى بيان طرق التحصيل للعلوم

اعلم أن العلم الإنسانى يحصل من طريقين . أحدهما : التعلم الإنسانى ، والثانى : التعلم الربانى .

أما الطريق الأول : فطريق معهود . ومسلك محسوس ، يقر به جميع العقلاء — وأما التعلم الربانى فيكون على وجهين . أحدهما : من خارج وهو التحصيل بالتعلم ، والآخر : من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئى ، والتفكر استفادة النفس من

النفس الـكلى ، والنفس الـكلى أشد تأثيراً وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة كالبذر فى الأرض ، والجوهر فى قعر البحر ، أو فى قلب المعدن ، والتعلم هـو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل ، والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبه بنفس المعلم وتتقرب إليه بالنسبه فالعالم بالافادة كالزارع والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذى هو بالقوة كالبذر . والذى بالفعل كالنبات ، فاذا كملت نفس المتعـــلم تـكون كالشجرة المثمرة أو كالجوهر الخارج من قعر البحر ، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة . وتحمل المشقة والتعب وطلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم فان نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة مالا تجد نفس الجامد بتعلم سنة ، فاذن بعض الناس يحصلون العلوم بالتعلم وبعضهم بالتفـكر ، والتعلم يحتاج إلى التفـكر . فان الانسان لايقدر أن يتعلم جميع الأشياء الجزئيات والـكليات وجميع المعلومات. بل يتعلم شيئا ويستخرج بالتفـكر من العلوم شيئا ، وأكثر العلوم النظرية والصنائع العملية استخرجها نفوس الحـكماء بصفاء ذهنهم وقوة فكرهم وحدة حدسهم من غير زيادة تعلم وتحصيل ،ولولا أن الانسان يستخرج بالتفـكر شيئا من معلومه الأول لـكان يطول الأمر على الناس ولما كانت تزول ظلمة الجهل عن القلوب لأن النفس

لاتقدر أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية بالتعلم بل بعضها بالتحصيل وبعضها بالنظر كما يرى عادات الناس . وبعضها يستخرج من ضميره بصفاء فكره ، وعلى هذا جرت عادة العلماء وتمهدت قواعد العلوم . حتى ان المهندس لايتعلم جميع مايحتاج إليه فى طول عمره بل يتعلم كليات علمه وموضوعاته ، ثم بعد ذلك يستخرج ويقيس — وكذلك الطبيب لايقدر أن يتعلم جزئيات أدواء الأشخاص وأدويتهم بل يتفكر فى معلوماته الكلية . ويعالج كل شخص بحسب مزاجه — وكذلك المنجم يتعلم كليات النجوم ثم يتفكر ويحكم بالأحكام المختلفة — وكذلك الفقيه والأديب — وهكذا إلى بدائع الصنائع فواحد وضع آلة الضرب وهو العود بتفكره ، وآخر استخرج من تلك الآلة آلة أخرى — وكذلك جميع الصنائع البدنية والنفسانية أوائلها محصلة من التعلم والبواقى مستخرجة من التفكر . وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكر وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب فينشرح قلبه وتنفتح بصيرته فيخرج مافى نفسه من القوة إلى الفعل من غير زيادة طلب وطول تعب

( الطريق الثانى ) وهو التعليم الربانى على وجهين ( الأول ) إلقاء الوحى وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها وتتمسك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره ، والله تعالى بحسن

عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كليا . وينظر إليها نظرا إلهيا ويتخذ منها لوحاً . ومن النفس الكلى قلما وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلى كالمعلم . والنفس القدسية كالمتعلم . فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر . ومصداق هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وعلمك مالم تكن تعلم ) . الآية . فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة ، وبيان هذا يوجد فى قصة آدم عليه السلام والملائكة . فانهم تعلموا طول عمرهم . وحصلوا بفنون الطرق كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات ، وآدم عليه السلام ما كان عالما لأنه ماتعلم وما رأى معلما فتفاخرت الملائكة وتجبروا وتكبروا فقالوا (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه ، وأخرج قلبه عن جملة المكونات وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى فعلمه جميع الأسماء ( ثم عرضهم على الملائكة ) فقال ( أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ) فصغر حالهم عند آدم . وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا فى بحر العجز ( وقالوا لا علم لنا إلا ماعلمتنا ) فقال تعالى ( يا آدم أنبئهم بأسمائهم ) فأنبأهم آدم عليه السلام عدة مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيبي المتولد عن الوحى أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة ، وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحق الرسل ، وأغلق الله

بباب الوحى من عهدسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين. وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم. وكان يقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقال لقومه : أنا أعلمكم وأخشاكم من الله تعالى ، وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى لأنه حصل عن التعلم الربانى ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الانسانى . قال تعالى ( علمه شديد القوى ) .

( الوجه الثانى ) هو الإلهام ، والالهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الانسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها والالهام أثر الوحى فان الوحى هو تصريح الأمر الغيبى . والالهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علما نبويا والذى يحصل عن الالهام يسمى علما لدنيا والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف وذلك أن العلوم كلها حاصلة معلومة فى جوهر النفس الكلية الأولى الذى هو فى الجواهر المفارقة الأولية المحضة بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليه السلام وقد بين أن العقل الكلى أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارى تعالى من النفس الكلية. والنفس الكلية أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات فمن إفاضة العقل الكلى يتولد الالهام ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام فالوحى حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء . فأما علم الوحى فكما أن النفس دون العقل فالولى دون النبى فكذلك الالهام دون الوحى فهو ضعيف بنسبة الوحى

قوى باضافة الرؤيا والعلم علم الأنبياء والأولياء . فأما علم الوحى فخاص بالرسل موقوف عليهم كما كان لآدم وموسى عليهما السلام وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهم من الرسل ، وفرق بين الرسالة والنبوة ، فالنبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول ، والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب ، والعلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه ، فقال ( وعلمناه من لدنا علما ) وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ( أدخلت لسانى فى فمى فانفتح فى قلبى ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب . وقال : لو وضعت لى وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهل الانجيل بانجيلهم ولأهل القرآن بقرآنهم ) وهذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الانسانى ، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدنى ، وقال أيضا رضى الله عنه يحكى عن عهد موسى عليه السلام أن شرح كتابه أربعون حملا فلو يأذن الله فى شرح معانى الفاتحة لأشرع فيها حتى تبلغ مثل ذلك يعنى أربعين وقرا ـ وهذه الكثرة والسعة والانفتاح فى العلم لا يكون إلا لدنيا إلهيا سماويا . فاذا أراد الله تعالى بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التى هى اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معانى تلك المكنونات فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن يشاء من عباده وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنى

ومالم يبلغ الانسان هذه المرتبة لايكون حكيماً لأن الحكمة من مواهب الله تعالى ( يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدنى مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيرا ويتعبون يسيرا ويستريحون طويلا .

واعلم أن الوحى إذا انقطع . وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة.وتكميل الدين كما قال تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم ) وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة . فأما باب الإلهام فلا ينسد . ومدد نور النفس الكلية لاينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير ـ وكماأن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم فى هذه الوساوس وانهماكهم فى هذه الشهوات.فالله تعالى أغلق باب الوحى وهو آية العباد وفتح باب الإلهام رحمة وهيأ الأمور . ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب .

## فصل فى مراتب النفوس فى تحصيل العلوم

اعلم أن العلوم مركوزة فى جميع النفوس الانسانية وكلها قابلة لجميع العلوم . وإنما يفوت نفسا من النفوس حظها منه بسبب طارىء وعارض يطرأ عليها من خارج ـ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « خلق الناس حنفاء فاختالتهم الشياطين » وقال صلى الله عليه وسلم

« كل مولود يولد على الفطرة » الحديث . فالنفس الناطقة الانسانية أهل لاشراق النفس الكلية عليها ومستعدة لقبول الصور المعقولة عنها بقوة طهارتها الأصلية وصفائها الأولى ولكن يمرض بعضها فى هذه الدنيا . ويمتنع عن إدراك الحقائق بأمراض مختلفة وأعراض شتى ويبقى بعضها على الصحة الأصلية بلا مرض وفساد . ويقبل أبدا مادامت حية ، والنفوس الصحيحة هى النفوس النبوية القابلة للوحى والتأييد . القادرة على إظهار المعجزة والتصرف فى عالم الكون والفساد . فان تلك النفوس باقية على الصحة الأصلية . وما تغيرت أمزجتها بفساد الأمراض وعلل الأعراض فصار الأنبياء أطباء النفوس ودعاة الخلق إلى صحة الفطرة .

وأما النفوس المريضة فى هذه الدنيا الدنيئة فصارت على مراتب . بعضهم تأثر بمرض المنزل تأثراً ضعيفا . ودق غمام النسيان فى خواطرهم فيشتغلون بالتعلم . ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة ، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر . وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتعلم ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة ، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ، ويشتغلون بالتحصيل والتصحيح جميع أيامهم ، ولا يفهمون شيئاً لفساد أمزجتهم ؛ لأن المزاج إذا فسد لا يقبل العلاج ، وبعضهم يتذكرون وينسون ويرتاضون ويذلون أنفسهم ويجدون نورا قليلا وإشراقا ضعيفا ، وهذا التفاوت إنما ظهر من إقبال النفوس على الدنيا

واستغراقها بحسب قوتها وضعفها كالصحيح إذا مرض . والمريض إذا صح ، وهذه العقدة إذا انحلت تقر النفوس بوجود العلم اللدنى وتعلم أنها كانت عالمة فى أول الفطرة وصافية فى ابتداء الاختراع ، وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف ، والاقامة فى هذا المنزل الكدر والمحل المظلم وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم . ولا إبداع العقل المفقود ، بل إعادتها العلم الأصلى الغريزى وإزالة طريان المرض باقبالها على زينة الجسد وتمهيد قاعدته ونظم أساسه ، والأب المحب المشفق على ولده إذا أقبل على رعاية الولد ، واشتغل بمهماته ينسى جميع الأمور ، ويكتفى بأمر واحد وهو أمر الولد ، فالنفس لشدة شغفها وشفقتها أقبلت على هذا الهيكل واشتغلت بعمارته ورعايته والاهتمام بمصالحه ، واستغرقت فى بحر الطبيعة بسبب ضعفها وجزئيتها فاحتاجت فى أثناء العمر إلى التعلم طلبا لتذكار ماقدنسيت . وطمعا فى وجدان ماقد فقدت وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها وإخراج مافى ضميرها إلى الفعل طلبا لتكميل ذاتها ونيل سعادتها ، وإذا كانت النفوس ضعيفة لاتهتدى إلى حقيقة جوهريتها تتمسك وتعتصم بمعلم مشفق عالم وتستغيث به ليعينها على طلب مرادها ومأمولها كالمريض الذى يكون جاهلا بمعالجته ويعلم أن الصحة الشريفة محمودة مطلوبة . فيرجع إلى طبيب مشفق ، ويعرض حاله عليه . ويأوى إليه ليعالجه . ويزيل عنه مرضه وقد رأينا عالما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر فتعرض نفسه عن جميع العلوم وينسى معلوماته وتلتبس عليه ويستتر فى حافظته وذاكرته جميع

ماحصل فى سابق عمره وماضى أيامه ، فاذا صح وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه وترجع النفس إلى معلوماتها . فتتذكر ماقد نسيت فى أيام المرض ، فعلمنا أن العلوم مافنيت وإنما نسيت وفرق بين المحو والنسيان بالناس فإن المحوفناء النقوش والرسوم . والنسيان التباس النقوش فيكون كالغمام أو السحاب الساتر لنور الشمس عن أبصار الناظرين لا كالغروب الذى هو انتقال الشمس من فوق الأرض إلى أسفل . فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ماعلمت فى أول الفطرة وعرفت فى بدء الطهارة . فاذاعرفت السبب والمراد من التعلم وحقيقة النفس وجوهرها ـ فاعلم أن النفس المريضة تحتاج إلى التعلم وإنفاق العمر فى تحصيل العلوم ، فأما النفس التى يخف مرضها وتكون علتها ضعيفة وشرها دقيقا وغمامها رقيقا ومزاجها صحيحا فلا تحتاج إلى زيادة تعلم وطول تعب بل يكفيها أدنى نظر وتفكر لأنها ترجع به إلى أصلها ، وتقبل على بدايتها وحقيقتها ، وتطلع على مخفياتها فيخرج مافيها من القوة إلى الفعل ويصير ماهو مركوز فيها حلية لها فيتم أمرها ويكمل شأنها وتعلم أكثر الأشياء فى أقل الأيام وتعبر عن المعلومات بحسن النظام وتصير عالمة كاملة متكلمة تستضىء باقبال على النفس الكلية وتفيض باستقبال على النفس الجزئية وتتشبه من طن طريق العشق بالأصل . وتقطع عرق الحسد وأصل الحقد . وتعرض عن فضول الدنيا وزخارفها ـ وإذا وصلت إلى هذه المرتبة فقد علمت ونجت وفازت . فهذا هو المطلوب لجميع الناس .

## فصل فى حقيقة العلم اللدنى وأسباب حصوله

اعلم أن العلم اللدنى وهو سريان نور الإلهام يكون بعد التسوية كما قال الله تعالى ( ونفس وما سواها ) وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه (أحدها ) تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها ( والثانى ) الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة فان النبى صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحقيقة ، فقال « من عمل بما علم أورثه الله العلم بما لم يعلم » وقال صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (والثالث ) التفكر فان النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر فى معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب كالتاجر الذى يتصرف فى ماله بشرط التصرف ينفتح عليه أبواب الربح ، وإذا سلك طريق الخطأ يقع فى مهالك الخسران ، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب فى قلبه فيصير عالما كاملا عاقلا ملهما مؤيداً كما قال صلى الله عليه وسلم « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » وشرائط التفكر نحصيها فى رسالة أخرى إذ بيان التفكر وكيفيته وحقيقته أمر مبهم يحتاج إلى زيادة شرح وتيسير بعون الله تعالى. والآن نختم هذه الرسالة. فان فى هذه الكلمات كفاية لأهلها « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » والله ولى المؤمنين وعليه التكلان ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وبه ثقتى فى كل آن وحين . والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# أيها الولد

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين .

« اعلم » أن واحدا من الطلبة المتقدمين لازم خدمة الشيخ الامام زين الدين حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم ، واستكمل من فضائل النفس ، ثم انه فكر يوما فى حال نفسه وخطر على باله فقال : إنى قرأت أنواعا من العلوم ، وصرفت ريعان عمرى على تعلمها وجمعها . فالآن ينبغى أن أعلم أى نوعها ينفعنى غداً ويؤانسنى فى قبرى وأيها لا ينفعنى حتى أتركه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع » فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الاسلام محمد الغزالى رحمة الله تعالى عليه استفتاء : وسأل عنه مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء : وقال : وإن كان مصنفات الشيخ كالاحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلى لكن مقصودى أن يكتب الشيخ حاجتى فى ورقات تكون معى مدة حياتى وأعمل بما فيها مدة عمرى إن شاء الله تعالى ، فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه فى جوابه والله أعلم .

(اعلم) أيها الولد المحب العزيز أطال الله بقاك بطاعته ، وسلك بك سبيل أحبائه أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه السلام إن كان قد بلغك منه نصيحة فأى حاجة لك فى نصيحتى، وإن لم يبلغك منه فقل لى ماذا حصلت فى هذه السنين الماضية .

«أيها الولد» من جملة مانصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله (علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له لجدير أن تطول عليه حسرته ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار) وفى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم .

« أيها الولد » النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها فى مذاق متبعى الهوى مرة إذ المناهى محبوبة فى قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمى مشتغل فى فضل النفس ومناقب الدنيا فإنه يحسب أن العلم المجرد له سيكون نجاته وخلاصه فيه ، وأنه مستغن عن العمل ـ وهذا اعتقاد الفلاسفة : سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه» وروى أن الجنيد قدس الله سره رؤى فى المنام بعد موته فقيل له ما الخبر ياأبا القاسم ؟ قال طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الاشارات وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها فى جوف الليل .

«أيها الولد» لا تكن من الأعمال مفلسا، ولا من الأحوال خالياً وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد مثاله: لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها - فمن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل، ومثله أيضا لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوى يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما (شعر):

گرمى دوهزار رطل همى بيمائى     تامى نخورى نباشدت شيدائى(١)

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) (جزاء بما كانوا يكسبون) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) وما تقول فى هذا الحديث «بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

---

(١) نعم ما ترجم به هذا البيت حضرة الأستاذ الفاضل الجليل مرشد السالكين الشيخ محمد أمين الكردى النقشبندى عليه الرحمة فقال:

(لو كانت ألفى رطل خمر لم تكن     لتصير نشوانا إذا لم تشرب)

وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريب من المحسنين ، ولو قيل أيضاً يبلغ بمجرد الايمان ، قلنا نعم لكن متى يبلغ ؟ وكم من عقبة كؤدة يقطعها إلى أن يصل ، فأول تلك العقبات عقبة الايمان وأنه هل يسلم من سلب الايمان أم لا ، وإذا وصل هل يكون خائبامفلساً؟ وقال الحسن البصرى يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة : ادخلوا ياعبادى الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم .

« أيها الولد » مالم تعمل لم تجد الأجر ( حكى ) أن رجلا من بنى إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة فأرسل الله إليه ملكا يخبره أنه مع تلك العبادة لايليق به دخول الجنة . فلما بلغه قال العابد : نحن خلقنا للعبادة فينبغى لنا أن نعبده فلما رجع الملك قال إلهى أنت أعلم بما قال . فقال الله تعالى إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لانعرض عنه ، اشهدوا ياملائكتى أنى قد غفرت له ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا » وقال على رضى الله عنه ( من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن ، ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل فهو مستغن ) وقال الحسن رحمه الله تعالى ( طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ) وقال علامة الحقيقة

ترك ملاحظة العمل لاترك العمل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله تعالى الأمانى ) .

« أيها الولد » كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم ، لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك ثم ويل لك . وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعراً :

سهر العيون لغير وجهك ضائع ... وبكاؤهن لغير فقدك باطل

« أيها الولد » عش ماشئت فانك ميت ، وأحبب من شئت فانك مفارقه ، واعمل ماشئت فانك مجزى به .

« أيها الولد » أى شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال ، إنى رأيت فى إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام قال من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالا ، أوله يقول عبدى طهرت منظر الخلق سنين وما طهرت منظرى ساعة وكل يوم ينظر فى قلبك يقول : ماتصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى أما أنت أصم لاتسمع .

« أيها الولد » العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون .
واعلم أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى ولا يحملك على الطاعة وان يبعدك غداً عن نار جهنم ، وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيامة . فارجعنا نعمل صالحاً ـ فيقال ياأحمق أنت من هناك تجىء .

« أيها الولد » اجعل الهمة فى الروح والهزيمة فى النفس والموت فى البدن لأن منزلك القبر ، وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة متى تصل إليهم : إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذه الأجساد قفص الطيور واصطبل الدواب فتفكر فى نفسك من أيهما أنت ـ إن كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل ارجعى إلى ربك تطير صاعداً إلى أن تقعد فى أعالى بروج الجنان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اهتز عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ » والعياذ بالله إن كنت من الدواب كما قال الله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار ، وروى أن الحسن البصرى رحمه الله تعالى أعطى شربة ماء بارد فأخذ القدح وغشى عليه وسقط من يده فلما أفاق قيل له مالك، يا أبا سعيد : قال ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أفيضوا علينا من الماء ومما رزقكم الله .

« أيها الولد » لو كان العلم المجرد كافياً لك ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء ـ هل من سائل هل من مستغفر هل من تائب

ضائعا بلا فائدة ، وروى أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم الرجل هو لو كان يصلى بالليل ، وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه « يافلان لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيرا يوم القيامة » .

(أيها الولد) ومن الليل فتهجد به أمر ، وبالأسحار هم يستغفرون شكر ، والمستغفرون بالأسحار ذكر ، قال عليه السلام « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت الذى يقرأ القرآن ، وصوت المستغفرين بالأسحار » قال سفيان الثورى رحمة الله تعالى عليه إن الله تبارك وتعالى خلق ريحا تهب بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار ، وقال أيضا إذا كان أول الليل ينادى مناد من تحت العرش ألا ليقم العابدون فيقومون ويصلون ماشاء الله ، ثم ينادى مناد فى شطر الليل ألا ليقم القانتون فيقومون ويصلون إلى السحر . فإذا كان السحر نادى مناد ألا ليقم المستغفرون فيقومون ويستغفرون : فإذا طلع الفجر نادى مناد ألا ليقم الغافلون فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم .

( أيها الولد ) روى فى وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال يا بنى لا يكونن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ولقد أحسن من قال شعراً :

لقد هتفت فى جنح ليل حمامة     على فنن وهنا وإنى لنائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا　　لما سبقتنى بالبكاء الحمائم
وأزعم أنى هائم ذو صبابة　　لربى فلا أبكى وتبكى البهائم

(أيها الولد) خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هى .

اعلم : أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى بالقول والفعل : يعنى كل ماتقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا أوصليت فى ثوب مغصوب وإن كانت صورة عبادة تأثم .

(أيها الولد) ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة ، وينبغى لك أن لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والترهات (واعلم) أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيى قلبك بأنوار المعرفة (واعلم) بأن بعض مسائلك التى سألتنى عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول إن تبلغ تلك الحالة تعرف ماهى وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقية ، وكل ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو ومرارة المر لا يعرف إلا بالذوق . كما حكى أن عنينا كتب إلى صاحب له أن عرفنى لذة المجامعة كيف تكون فكتب له فى جوابه : يا فلان إنى كنت حسبتك عنيناً فقط ـ الآن عرفت أنك عنين

وأحق ـ لأن هذه اللذة ذوقية أن تصل إليها تعرف وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة .

( أيها الولد ) بعض مسائلك من هذا القبيل ـ وأما البعض الذى يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى إحياء العلوم وغيره . ونذكر ههنا نبذا منه ونشير إليه فنقول : قد وجب على السالك أربعة أمور الأمر الأول : اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة . والثانى : توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة (والثالث) استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق. والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدى به أوامر الله تعالى، ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة . حكى أن الشبلى رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ ، وقال قرأت أربعة آلاف حديث : ثم اخترت منها حديثاً واحدا وعملت به وخليت ما سواه لأنى تأملته فوجدت خلاصى ونجاتى فيه . وكان علم الأولين والآخرين كله مندرجاً فيه فاكتفيت به وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه ( اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها ، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها واعمل لله بقدر حاجتك إليه واعمل للنار بقدر صبرك عليها ) .

( أيها الولد ) إذا علمت هذا الحديث لا حاجة إلى العلم الكثير وتأمل فى حكاية أخرى ـ وذلك أن حاتم الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخى رحمة الله تعالى عليهما . فسأله يوماً قال صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ما حصلت فيها . قال : حصلت ثمانى فوائد من العلم وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها . فقال شقيق ما هى ؟ قال

حاتم الأصم . الفائدة الأولى : إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً يحبه ويعشقه وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضه إلى شفير القبر . ثم يرجع كله ويتركه فريداً وحيداً ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد . فتفكرت وقلت أفضل محبوب المرء ما يدخل فى قبره ويؤانسه فيه فما وجدته غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوباً لى لتكون سراجاً لى فى قبرى ، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريداً . الفائدة الثانية : إنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأملت قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ) وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسى وتشمرت بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت . الفائدة الثالثة : إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جميع حطام الدنيا ثم يمكسها قابضا يده عليه فتأملت فى قوله تعالى (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) فبذلت محصولى من الدنيا لوجه الله تعالى ففرقته بين المساكين ليكون ذخرا لى عند الله تعالى . الفائدة الرابعة : إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاغتربهم. وزعم آخرون أنه فى ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعزفى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم ، واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره وتأملت فى قوله تعالى ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق

وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل . الفائدة الخامسة : إنى رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعضا فوجدت ذلك من الحسد فى المال والجاه والعلم فتأملت فى قوله تعالى ( نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ) فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى فى الأزل فما حسدت أحدا ورضيت بقسمة الله تعالى . الفائدة السادسة: إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضاً لغرض وسبب فتأملت قوله تعالى ( إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ) فعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان . والفائدة السابعة : إنى رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به فى شبهة وحرام ، ويذل نفسه ، وينقص قدره فتأملت فى قوله تعالى ( وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ) فعلمت أن رزقى على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه . الفائدة الثامنة: إنى رأيت كل واحد معتمدا على شىء مخلوق بعضهم إلى الدينار والدرهم وبعضهم إلى المال والملك وبعضهم إلى الحرفة والصناعة ، وبعضهم إلى مخلوق مثله فتأملت فى قوله تعالى ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ) فتوكلت على الله تعالى فهو حسبى ونعم الوكيل . فقال شقيق : وفقك الله تعالى إنى قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة .

( أيها الولد ) قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج الى

تكثير العلم ، والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق ( فاعلم ) أنه ينبغى للسالك شيخ مرشد مربى ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ويجعل مكانها خلقا حسنا . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى لأن الله أرسل للعباد رسولا للارشاد إلى سبيله ، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء فى مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى ، وشرط الشيخ الذى يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يكون عالما ـ ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة ، وإنى أبين لك بعض علامته على سبيل الإجمال حتى لا يدعى كل أحد أنه مرشد فنقول : من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه وكان قد تابع لشخص بصير يتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وكان محسنا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم ، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم ، وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأنى وأمثالها فهو إذا نور من أنوار النبى صلى الله عليه وسلم يصلح للاقتداء به . ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر ، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخا كما ذكرنا وقبله الشيخ ينبغى أن يحترمه ظاهرا وباطنا . أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله ولا يشتغل

بالاحتجاج معه فى كل مسألة وإن علم خطأه ، ولا يلقى بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة فإذا فرغ يرفعها ، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته،ويعمل مايأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته . وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه فى الظاهر لاينكره فى الباطن لا فعلا ولا قولا لئلا يتسم بالنفاق ، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره ، ويحترز عن مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه فيصفى عن لوث الشيطنة ، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى . ثم اعلم أن التصوف له خصلتان الاستقامة والسكون عن الخلق ، فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفى ، والاستقامة أن يفدى حظ نفسه لنفسه ، وحسن الخلق مع الناس أن لاتحمل الناس على مراد نفسك بل تحمل نفسك على مرادهم مالم يخالفوا الشرع ثم إنك سألتنى عن العبودية وهى ثلاثة أشياء أحدها : محافظة أمر الشرع ، وثانيها : الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى ، وثالثها : ترك رضاء نفسك فى طلب رضاء الله تعالى ، وسألتنى عن التوكل هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد يعنى تعتقد أن ماقدر لك سيصل إليك لامحالة وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك ، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم ، وسألتنى عن الإخلاص وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالى بمذمتهم (واعلم) أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق ، وعلاجه أن تراهم مسخرين

تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات فى عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراآتهم ، ومتى تحسبهم ذوى قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء .

(أيها الولد) والباقى من مسائلك بعضها مسطور فى مصنفاتى فاطلبه ثمة وكتابة بعضها حرام اعمل أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم .

(أيها الولد) بعد اليوم لا تسألنى ما أشكل عليك إلا بلسان الجنان قوله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ولا تستعجل حتى تبلغ أو انه يكشف لك وتراه (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) فلا تسألنى قبل الوقت : وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا) .

(أيها الولد) بالله إن تسر ترى العجائب فى كل منزل ، وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح كما قال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى لأحد من تلامذته ، إن قدرت على بذل الروح فتعال وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية .

(أيها الولد) إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة ، تعمل منها أربعة ، وتدع منها أربعة أما اللواتى تدع . أحدها : أن لا تناظر أحدا فى مسألة ما استطعت

لأن فيها آفات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها إذ هي منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها ، نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم وكانت إرادتك فيها أن تظهر الحق ولا يضيع جاز البحث لكن لتلك الإرادة علامتان . إحداهما : أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك والثانية : أن يكون البحث فى الخلاء أحب إليك من أن يكون فى الملأ — واسمع إنى أذكر لك ههنا فائدة . واعلم : أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعى لإصلاح مرضه . واعلم : أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء الأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح . وإذا كانت العلة مزمنة أو عقيما لا تقبل العلاج فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر . ثم اعلم : أن مرض الجهل على أربعة أنواع . أحدها : يقبل العلاج والباقى لا يقبل . أما الذى لا يقبل « أحدها » من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه فلا يزيد له ذلك إلا بغضا وعداوة وحسدا ، فالطريق أن لا تشتغل بجوابه فقد قيل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها  إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغى أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه ، قال الله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار فى زرع علمه ، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل

النار الحطب . والثانى . أن تكون علته من الحماقة وهو أيضا لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام إنى ما عجزت عن أحياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الأحمق ، وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنا قليلا ويتعلم شيئا من العلوم العقلى والشرعى فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذى مضى عمره فى العلوم العقلية والشرعية وهذا الأحمق لا يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضا مشكل للعالم الكبير ، فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة ، فينبغى أن لا يشتغل بجوابه «والثالث» أن يكون مسترشدا وكل مالا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه وكان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليدا لا يدرك الحقائق فلا ينبغى الاشتغال بجوابه أيضا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وأما المرض الذى يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدا عاقلا فهما لايكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة والجاه والمال ، ويكون طالب طريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان ، وهذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته ، والثانى مما تدع وهو أن تحذر من أن تكون واعظا ومذكرا لأن فيه آفة كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولا ثم تعظ به الناس فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام ، ياابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى ربك وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين . الأولى : عن التكلف فى الكلام بالعبارات والإشارات

والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين ، والمتكلف المتجاوز عن الحد يدل على خراب الباطن وغفلة القلب ، ومعنى التذكير أن يذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه فى خدمة الخالق . ويتفكر فى عمره الماضى الذى أفناه فيما لا يعنيه ، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان فى الخاتمة وكيفية حاله فى قبض ملك الموت ، وهل يقدر على جواب منكر ونكير ، ويهتم بحاله فى القيامة ومواقفها ، وهل يعبر عن الصراط سالما أم يقع فى الهاوية ، ويستمر ذكر هذه الأشياء فى قلبه فيزعجه عن قراره ، فغليان هذه النيران ونوحة هذه المصائب يسمى تذكيرا وإعلام الخلق واطلاعهم على هذه الأشياء وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضى بقدر الطاقة ويتحسروا على الأيام الخالية فى غير طاعة الله تعالى ، هذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظا كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها فتقول الحذر الحذر فروا من السيل وهل يشتهى قلبك فى هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكلف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهى البتة فكذلك حال الواعظ فينبغى أن يجتنبها .

والخصلة الثانية : أن لا تكون همتك فى وعظك أن ينفر الخلق فى مجلسك ويظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال نعم المجلس هذا لأن كله ميل للدنيا وهو يتولد من الغفلة بل ينبغى أن يكون عزمك وهمتك

أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المعصية إلى الطاعة ومن الحرص إلى الزهد ، ومن البخل إلى السخاء ، ومن الغرور إلى التقوى وتحبب إليهم الآخرة وتبغض إليهم الدنيا ، وتعلمهم علم العبادة والزهد لأن الغالب في طباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسعى فيما لا يرضى الله تعالى به والاستعثار بالأخلاق الردية فالق في قلوبهم الرعب وروعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف ، ولعل صفات باطنهم تتغير ومعاملة ظاهرهم تتبدل ، وينظروا الحرص والرغبة في الطاعة ، والرجوع عن المعصية ـ وهذا طريق الوعظ والنصيحة ، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع بل قيل إنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن طريق ويهلكهم . فيجب عليهم أن يفروا منه لأن ما يفيد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشيطان ، ومن كانت له يد وقدرة يجب عليه أن ينزله عن منابر المواعظ ويمنعه عما باشر فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والثالث : مما تدع أنه لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة ، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم ، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه . والرابع : مما تدع أن لا تقبل شيئا من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمت أنها من الحلال لأن الطمع منهم يفسد الدين لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم ، وهذا كله فساد في الدين وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت

من دنياهم أحببتهم ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه. بالضرورة وفى محبة بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عباد الله تعالى وإرادة خراب العالم ، فأى شيء يكون أضر من هذا الدين والعاقبة ، وإياك وإياك أن يخدعك استهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقون فى الفسق والمعصية وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم فان اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة . وقد ذكرناه فى إحياء العلوم فاطلبه ثمة . وأما الأربعة التى ينبغى لك أن تفعلها الأول : أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب والذى لا ترضى لنفسك من عبدك المجازى فلا ترض أيضا لله تعالى وهو سيدك الحقيق . والثانى : كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه والثالث : إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغى أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكى نفسك كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس ، والاعراض عن علائق الدنيا ، وتزكى نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته ، والاتصاف بالأوصاف الحسنة ، ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه .

(أيها الولد) اسمع منى كلاما آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصا لو أنك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يختارك وزيراً اعلم : أنك فى تلك المدة لاتشتغل إلا بإصلاح ماعلمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها والآن تفكر إلى ماأشرت به فإنك فهم والكلام الفرد يكفى ، أليس قال رسول الله عليه السلام (إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم) وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى الاحياء وغيره من مصنفاتى . وهذا العلم فرض عين وغيره فرض كفاية إلا مقدار ما يؤدى به فرائض الله تعالى وهو يوفقك حتى تحصله . والرابع : أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة كما كان رسول الله عليه السلام يعد ذلك لبعض حجراته وقال (اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا) ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن فى قلبها ضعفا — وأما من كانت صاحبة يقين ما كان يعد لها أكثر من قوت يوم ونصف .

(أيها الولد) إنى كتبت فى هذا الفصل ملتمسانك فينبغى لك أن تعمل بها ولا تنسانى فيه من أن تذكرنى فى صالح دعائك ، وأما الدعاء الذى سألت منى فاطلبه من دعوات الصحاح واقرأ هذا الدعاء فى أوقاتك خصوصا أعقاب صلواتك ، اللهم إنى أسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش أرغده ، ومن العمر أسعده ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الانعام

أحمه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أقربه ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومن علينا بإصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا وفى دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا ، اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة ، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة . وخفف عنا ثقل الأوزار ، وارزقنا عيشة الأبرار . واكفنا واصرف عنا شر الأشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار برحمتك ياعزيز ياغفار يا كريم ياستار ياعليم ياجبار ياألله ياألله ياألله برحمتك ياأرحم الراحمين . ويا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين وياذا القوة المتين ، ويا أرحم المساكين ، ويا أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# فيصل التفرقة

قال الإمام العالم العامل أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه : أحمد الله تعالى استسلاما لعزته ، واستتماما لنعمته . واستغناما لتوفيقه ومعونته وطاعته . واستعصاما من خذلانه ومعصيته، واستدراراً لسوابغ نعمته، وأصلي على محمد عبده ورسوله وخير خليقته، انقيادا لنبوته ، واستجلابا لشفاعته ، وقضاء لحق رسالته ، واعتصاما بيمن سريرته ونقيته ، وعلى آله وأصحابه وعترته .

أما بعد : فإنى رأيتك أيها الأخ المشفق ، والصديق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ومباينته ولو فى شيء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، وفل من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا : إنه مجنون من المجانين . وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا إنه أساطير

الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم وتطمع فى إفحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ـ أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها    إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس . لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس ، أو ماسمعت قوله تعالى ( وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ) وقوله تعالى ( ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ) وقوله تعالى ( ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ) وقوله تعالى ( ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ) واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدهما ، والحق والضلال وسرهما ، لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما . بل إنما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ، ثم عذبت بالفكر الصائب رابعا ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسا ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة ، وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار ، يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار . وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ،

ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم . وشريعتهم رعونتهم. وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ، أبالهام إلهى ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها أم بكمال علمى ، وإنما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ؟ هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهوينا . فاشتغل أنت بشأنك ولا تضيع فيهم بقية زمانك ( فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ) .

## فصل

فأما أنت إن أردت أن تنتزع هذه الحسكة من صدرك ، وصدر من هو فى حالك ، ممن لا تحركه غواية الحسود ، ولا تقيده عماية التقليد ، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة إشكال أثارها فكر ، وهيجها نظر ، فخاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى أو مذهب المعتزلى أو مذهب الحنبلى أو غيرهم فاعلم أنه غر بليد . قد قيده التقليد فهو أعمى من العميان ، فلا تضيع باصلاحه الزمان ، وناهيك حجة فى إفحامه ، مقابلة دعواه بدعوى خصومه . إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقا وفصلا : ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى .

ويزعم أن مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي . فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفا عليه حتى قضى بكفر الباقلاني إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائداً على الذات ولم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني ؟ ولم صار الحق وقفا على أحدهما دون الثاني ؟ أكان ذلك لأجل السبق في الزمان؟ فقد سبق الأشعري غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه ! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأي ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فان رخص للباقلاني في مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلاني والكرابيسي والقلانسي وغيرهم ؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً أنهما جميعا متوافقان على دوام الوجود والخلاف في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات ، وإنما يخالف الأشعري في أنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة فما الفرق بين الخلافين ، وأي مطلب أجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى في النظر في نفيها وإثباتها فان قال إنما أكفر المعتزلي لأنه يزعم أن الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة وهذه صفات

مختلفة بالحد والحقيقة ، والحقائق المختلفة تستحيل أن توصف بالاتحاد أو تقوم مقامها الذات الواحدة فما باله لا يستبعد من الأشعرى قوله إن الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحد هو توراة وإنجيل وزبور وقرآن وهو أمر ونهى وخبر واستخبار – وهذه حقائق مختلفة وكيف لا وحد الخبر مايتطرق إليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الأمر والنهى فكيف تكون حقيقة واحدة يتطرق إليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق فيجتمع النفى والإثبات على شىء واحد فان تخبط فى جواب هذا أو عجز عن كشف الغطاء فيه : فاعلم أنه ليس من أهل النظر وإنما هو مقلد ، وشرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ، ولو كان أهلا له كان مستتبعا لا تابعا ، وإماما لا مأموما ، فان خاض المقلد فى المحاجة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب فى حديد بارد وطالب لصلاح الفاسد — وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر – ولعلك ن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب . أما الكفر فلأنه نزله منزلة النبى المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته ، وأما التناقض فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وأن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت وكل ما رأيته حجة وأى فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبى وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعا وهل هذا إلا التناقض .

## فصـــل

لعلك تشتهى أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين : فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكنى أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق ، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام وإن اختلفت طرقهم ماداموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول :

الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى شىء مما جاء به ، والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به ، فاليهودى والنصرانى كافران لتكذيبهما للرسول عليه الصلاة والسلام ، والبرهمى كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين ، والدهرى كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا المرسل سائر الرسل — وهذا لأن الكفر حكم شرعى كالرق والحرية مثلا إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود فى النار ومدركه شرعى فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص . وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى ، والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون فانهم مكذبون للرسول فكل كافر مكذب للرسول ، وكل مكذب فهو كافر — فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة .

## فصـــل

اعلم أن الذى ذكرناه مع ظهوره تحته غور بل تحته كل الغور لأن كل فرقة تكفر مخالفها وتنسبه إلى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام . فالحنبلى يكفر الأشعرى زاعماً أنه كذب الرسول فى إثبات الفوق لله تعالى وفى الاستواء على العرش ، والأشعرى يكفره زاعماً أنه مشبه وكذب الرسول فى أنه ليس كمثله شىء ، والأشعرى يكفر المعتزلى زاعما أنه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى إثبات العلم والقدرة والصفات له ، والمعتزلى يكفر الأشعرى زاعماً أن إثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول فى التوحيد ، ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضاً .

فأقول : التصديق إنما يتطرق إلى الخبر بل إلى المخبر ، وحقيقة الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا أن للوجود خمس مراتب ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب فإن الوجود ذاتى وحسى وخيالى وعقلى وشبهى . فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق . فلنشرح هذه الأصناف الخمسة ولنذكر مثالها فى التأويلات .

أما الوجود الذاتى فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحس والعقل ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة فيسمى أخذه إدراكا

وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل هو المعروف الذى لايعرف الأكثرون للوجود معنى سواه .

وأما الوجود الحسى : فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من العين مما لاوجود له خارج العين فيكون موجوداً فى الحس ويختص به الحاس ، ولا يشاركه غيره — وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض المتيقظ إذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء فى اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة ، وينتهى إليهم الوحى والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر الغيب فى اليقظة ما يتلقاه غيرهم فى النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى ( فتمثل لها بشراً سوياً ) وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام كثيراً ولكن ما رآه فى صورته إلا مرتين وكان يراه فى صور مختلفة يتمثل بها وكما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وقد قال « من رآنى فى النوم فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى » ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم بل هى على سبيل وجود صورته فى حس النائم فقط ، وسبب ذلك وسره طويل ، وقد شرحناه فى بعض الكتب فإن كنت لا تصدق به فصدق عينك فانك تأخذ قبساً من نار كأنه نقطة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطا من نار وتحركه حركة مستديرة فتراه دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان فى حسك لا فى الخارج عن

حسك لأن الموجود فى الخارج هى نقطة فى كل حال ، وإنما تصير خطا فى أوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجوداً فى حالة واحدة وهو ثابت فى مشاهدتك فى حالة واحدة .

وأما الوجود الخيالى : فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك فانك تقدر على أن تخترع فى خيالك صورة فيل وفرس وإن كنت مغمضاً عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته فى دماغك لا فى الخارج .

وأما الوجود العقلى : فهو أن يكون للشىء روح وحقيقة ومعنى فيتلقى العقل مجرد معناه دون أن يثبت صورته فى خيال أو حس أو خارج كاليد مثلا فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهى القدرة على البطش ، والقدرة على البطش هى اليد العقلية وللقلم صورة ولكن حقيقته ما تنقش به العلوم وهذا يتلقاه العقل من غير أن يكون مقرونا بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية .

وأما الوجود الشبهى : فهو أن لا يكون نفس الشىء موجوداً لا بصورته ولا بحقيقته لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه فى خاصة من خواصه وصفة من صفاته ، وستفهم هذا إذا ذكرت لك مثاله فى التأويلات — فهذه مراتب وجود الأشياء .

## فصـــل

اسمع الآن أمثلة هذه الدرجات فى التأويلات . أما الوجود الذاتى فلا يحتاج إلى مثال وهو الذى يجرى على الظاهر ولا يتأول وهو الوجود المطلق الحقيقى وذلك كاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش والكرسى والسموات السبع فانه يجرى على ظاهره ولا يتأول إذ هذه أجسام موجودة فى أنفسها أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك.

وأما الوجود الحسى فأمثلته فى التأويلات كثيرة وأقنع منها بمثالين :

أحدهما : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار » فان من قام عنده البرهان على أن الموت عرض أو عدم عرض ، وأن قلب العرض جسما مستحيل غير مقدور ينزل الخبر على أن أهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون أنه الموت ويكون ذلك موجوداً فى حسهم لا فى الخارج ويكون سبباً لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك إذ المذبوح ميؤس منه . ومن يقم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد أن نفس الموت ينقلب كبشا فى ذاته ويذبح .

المثال الثانى : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرضت على الجنة فى عرض هذا الحائط » فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على أن نفس الجنة لم تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع أن يشاهد مثال شىء كبير فى جرم صغير كما تشاهد

السماء فى مرآة صغيرة ويكون ذلك إبصاراً مفارقا لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء فى المرآة وبين أن تغمض عينيك فتدرك صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل .

وأما الوجود الخيالى فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم « كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان يلبي وتجيبه الجبال والله تعالى يقول له لبيك يا يونس » والظاهر أن هذا إنباء عن تمثيل الصورة فى خياله إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انعدم ذلك فلم يكن موجوداً فى الحال ، ولا يبعد أن يقال أيضاً ، تمثل هذا فى حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور ولكن قوله كأنى أنظر يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر ، والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة ، وعلى الجملة فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيتصور أن يتمثل فى محل الإبصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل .

وأما الوجود العقلى فأمثلته كثيرة فاقنع منها بمثالين: أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم « آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة أمثال هذه الدنيا » فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسى والخيالى، ثم قد يتعجب فيقول: إن الجنة فى السماء كما دلت عليه ظواهر الاخبار فكيف تتسع السماء لعشرة أمثال الدنيا والسماء أيضاً من الدنيا ، وقد يقطع المتأول هذا التعجب فيقول المراد به تفاوت معنوى عقلى لا حسى ولا خيالى كما يقال

مثلا هذه الجوهرة أضعاف الفرس أى فى روح المالية ، ومعناها المدرك عقلا دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل .

المثال الثانى : قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً » فقد أثبت لله تعالى يداً ومن قام عنده البرهان على استحالة يد لله تعالى هى جارحة محسوسة أو متخيلة فانه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية أعنى أنه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها . أن روح اليد ومعناها ما به يبطش ويفعل ويعطى ويمنع والله تعالى يعطى ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه الصلاة والسلام « أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطى وبك أمنع » ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضاً كما يعتقده المتكلمون إذ لا يمكن أن يكون العـــرض أول مخلوق بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلا من حيث يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعلم ، وربما يسمى قلما باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة وحيا وإلهاما فانه قد ورد فى حديث آخر ( إن أول ما خلق الله تعالى القلم ) فان لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان ، ويجوز أن يكون لشىء واحد أسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى عقلا باعتبار ذاته وملكا باعتبار نسبته إلى الله تعالى فى كونه واسطة بينه وبين الخلق ، وقلماً باعتبار إضافته إلى ما يصدر منه من نقش العلوم بالإلهام والوحى كما يسمى جبريل روحاً باعتبار ذاته وأميناً باعتبار ما أودع من الأسرار ، وذا مرة باعتبار

قدرته ، وشديد القوى باعتبار كمال قوته ، ومكيناً عند ذى العرش باعتبار قرب منزلته ، ومطـــاعا باعتبار كونه متبوعا فى حق بعض الملائكة ، وهذا القائل يكون قد أثبت قلماً ويداً عقلياً لا حسياً وخيالياً ـ وكذلك من ذهب إلى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون .

وأما الوجود الشبهى فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما ورد فى حق الله تعالى فان الغضب مثلا حقيقته انه غليان دم القلب لارادة التشفى وهذا لا ينفك عن نقصان وألم . فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً نزله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كارادة العقاب ، والإرادة لا تناسب الغضب فى حقيقة ذاته ولكن فى صفة من الصفات تقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الايلام ـــ فهذه درجات التأويلات .

## فصـــل

اعلم أن كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين ، وإنما التكذيب أن ينفى جميع هذه المعانى ، ويزعم أن ماقاله لا معنى له وإنما هو كذب محض وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة ، ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير إليه ، وكيف يلزم الكفر بالتأويل ، وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو

مضطر إليه . فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة هو الوجود العقلي والوجود الشبهي ، والحنبلي مضطر إليه وقائل به فقد سمعت الثقاة من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط . أحدها : قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » . والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » . والثالث: قوله صلى الله عليه وسلم « إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » فانظر الآن كيف أول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول اليمين تقبل في العادة تقرباً إلى صاحبها ، والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه فسمى لذلك يمينا — وهذا الوجود هو الذى سميناه الوجود الشبهي وهو أبعد وجوه التأويل . فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل — وكذلك لما استحال عنده وجود الأصبعين لله تعالى حسا إذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه أصبعين فتأوله على روح الأصبعين وهي الأصبع العقلية الروحانية أعني أن روح الأصبع ما به يتيسر تقليب الأشياء ، وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكنى بالأصبعين عنهما وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر لأنه لم يكن ممعنا في النظر العقلي

ولو أمعن لظهر له ذلك فى الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله ، والأشعرى والمعتزلى لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة فى أمور الآخرة الأشعرية وفقهم الله فانهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً ، والمعتزلة أشد منهم توغلا فى التأويلات وهم مع هذا — أعنى الأشعرية — يضطرون أيضا إلى تأويل أمور كما ذكرناه من قوله إنه يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح وكما ورد من وزن الأعمال بالميزان فان الأشعرى أول وزن الأعمال فقال توزن صحائف الأعمال ويخلق الله فيها أوزانا بقدر درجات الأعمال — وهذا رد إلى الوجود الشبهى البعيد فان الصحائف أجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على أعمال هى أعراض فليس الموزون إذاً العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل ، والمعتزلى تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو أبعد عن التعسف فى التأويل بوزن الصحائف وليس الغرض تصحيح أحد التأويلين بل تعلم أن كل فريق وإن بالغ فى ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل إلا أن يجاوز الحد فى الغباوة والتجاهل فيقول الحجر الأسود يمين تحقيقا ، والموت وإن كان عرضا فيستحيل فينتقل كبشا بطريق الانقلاب ، والأعمال وإن كانت أعراضا وقد عدمت فتنتقل إلى الميزان ويكون فيها أعراض هى الثقل ، ومن ينتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل .

## فصل

فاسمع الآن قانون التأويل : فقد علمت اتفاق الفرق على هذه الدرجات الخمس فى التأويل وإن شيئاً من ذلك ليس من حيز التكذيب. واتفقوا أيضاً على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر ، والظاهر الأول هو الوجود الذاتى فانه إذا ثبت تضمن الجميع. فان تعذر فالوجود الحسى فانه إن ثبت تضمن ما بعده . فان تعذر فالوجود الخيالى أو العقلى . وإن تعذر فالوجود الشبهى المجازى ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان فيرجع الاختلاف على التحقيق إلى البراهين : إذ يقول الحنبلى لا برهان على استحالة اختصاص البارى بجهة فوق . ويقول الأشعرى لا برهان على استحالة الرؤية . وكأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلا قاطعا . وكيف ما كان فلا ينبغى أن يكفر كل فريق خصمه بأن يراه غالطاً فى البرهان . نعم يجوز أن يسميه ضالا أو مبتدعاً : أما ضالا فمن حيث انه ضل عن الطريق عنده ، وإما مبتدعاً فمن حيث انه ابتدع قولا لم يعهد من السلف الصالح التصريح به إذ المشهور فيما بين السلف أن الله تعالى يرى : فقول القائل لا يرى بدعة ، وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة بل إن ظهر عنده أن تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب فينبغى أن لا يظهره ولا يذكره لأن السلف لم يذكروه لكن عند هذا يقول الحنبلى إثبات الفوق لله تعالى مشهور عند السلف ولم يذكر أحد منهم أن خالق العالم ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا

ولا داخلا ولا خارجا وأن الجهات الست خالية عنه وأن نسبة جهة فوق إليه كنسبة جهة تحت . فهذا قول بدع إذالبدعة عبارة عن أحداث مقالة غير مأثورة عن السلف ، وعند هذا يتضح لك أن ههنا مقامين .

أحدهما : مقام عوام الخلق . والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأسا ، والحذر عن إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة وحسم باب السؤال رأساً. والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث ، واتباع ماتشابه من الكتاب والسنة كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه سأله سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة ، وكما روى عن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والإيمان به واجب والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

المقام الثانى : بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية فينبغى أن يكون بحثهم بقدر الضرورة ، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع ، ولا ينبغى أن يكفر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطا فيما يعتقده برهاناً فانذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به فانهم إذا لم يتفقوا فى الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن ، وقد ذكرنا الموازين الخمسة فى كتاب (القسطاط المستقيم) وهى التى لايتصور الخلاف فيها بعد فهمها أصلا بل يعترف كل من فهمها بأنها مدارك اليقين قطعاً والمحصلون لها يسهل عليهم عقدالانصاف والانتصاف وكشف الغطاء وورفع الاختلاف ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف أيضاً إما لقصور بعضهم عن

إدراك تمام شروطه . وإما فى رجوعهم فى النظر إلى محض القريحة والطبع دون الوزن بالميزان كالذى يرجع بعد تمام تعلم العروض فى الشعر إلى الذوق لاستثقاله عرض كل شعر على العروض فلا يبعد أن يغلط، وإما لاختلافهم فى العلوم التى هى مقدمات البراهين فإن من العلوم التى هى أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها ، والناس يختلفون فى التجربة والتواتر فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره، وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره . وإما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل. وإما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والأوليات كما فصلنا ذلك فى كتاب ( محك النظر ) ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموازين وحققوها أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على مواقع الغلط على يسر.

## فصــــل

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغى أن يبادر أيضا إلى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه فإن كان تاويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره وذلك كقول بعض الصوفية إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله هذا ربى غير ظاهرها بل هى جواهر نورانية ملكية ونورانيتها عقلية لاحسية ولها درجات فى الكمال . ونسبة ما بينها فى التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس ، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام أجل من أن يعتقد فى جسم أنه إله حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله أفترى أنه لو لم يأفل أ كان يتخذه إلهاً ولو لم يعرف

استحالة الإلهية من حيث كونه جسما مقدراً . واستدل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب والشمس هى الأظهر وهى أول مايرى . واستدل بأن الله تعالى قال أولا ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) ثم حكى هذا القول فكيف يمكن أن يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له — وهذه دلالات ظنية وليست براهين .

أما قوله هو أجل من ذلك فقد قيل إنه كان صبياً لما جرى له ذلك ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبيا فى صباه مثل هذا الخاطر ثم يتجاوزه على قرب ولا يبعد أن تكون دلالة الأفول على الحدوث عنده أظهر من دلالة التقدير والجسمية .

وأما رؤية الكوكب أولا فقد روى أنه كان محبوسا فى صباه فى غار وإنما خرج بالليل .

وأما قوله تعالى أولا ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) فيجوز أن يكون الله تعالى قد ذكر حال نهايته ثم رجع إلى ذكر بدايته — فهذه وأمثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه — فهذا جنس تأويلهم . وقد تأولوا العصا والنعلين فى قوله تعالى ( اخلع نعليك ) وقوله ( وألق ما فى يمينك ) ولعل الظن فى مثل هذه الأمور التى لا تتعلق بأصول الاعتقاد تجرى مجرى البرهان فى أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدى إلى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصة صاحبه فى كل مالم يؤثر عن السلف ذكره . ويقرب منه قول بعض الباطنية أن عجل

السامرى مؤول إذ كيف يخلو خلق كثير عن عاقل يعلم أن المتخذ من الذهب لا يكون إلهاً وهذا أيضاً ظن إذ لا يستحيل أن تنتهى طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام ، وكونه نادراً لا يورث يقينا .

واما مايتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذى ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع فيجب تكفيره قطعيا إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد ، وذكر ذلك عظيم الضرر فى الدين فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة . وكذلك يجب تكفير من قال منهم أن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه أو لا يعلم إلا الكليات . فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعا وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجساد وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجرى على الأشخاص مجاوز حداً لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل - ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم فى أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة فى قلوبهم جاز للرسول عليه السلام أن يفهمهم ذلك وليس بكاذب من أصلح غيره فقال مافيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله وهذا القول باطل قطعا لأنه

تصريح بالتكذيب ، ثم طلب عذراً فى أنه لم يكذب ، ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة فى الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب وهذه أول درجات الزندقة ، وهى رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة فإن المعتزلة يقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة إلا فى هذا الأمر الواحد ، وهو أن المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه ، والفلسفى لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد .

وأما الزندقة المطلقة فهو أن تنكر أصل المعاد عقليا وحسيا وتنكر الصانع للعالم أصلا ورأسا .

وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء وظاهر ظنى - والعلم عند الله - أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام « ستفترق أمتى بضعا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة إلا الزنادقة وهى فرقة » هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به الزنادقة من أمته إذ قال « ستفترق أمتى » ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته إذ يزعمون أن الموت عدم محض ، وأن العالم لم يزل كذلك موجودا بنفسه من

غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . وينسبون الأنبياء إلى التلبيس فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة فإذاً لا معنى از ندقة هذه الأمة إلا ما ذكرناه .

## فصل

اعلم أن شرح ما يكفر به ومالا يكفر به يستدعى تفصيلا طويلا نتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب ، وذكر شبهة كل واحد ، ودليله وجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله وذلك لايحويه مجلدات ولا تتسع شرح ذلك أوقاتى فاقنع الآن بوصية وقانون .

أما الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها . والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر أو غير عذر فان التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه .

وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع ، وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع . واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر لكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات . وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة .

واعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيرا . فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب

الإمامة ولا يلزم تكفيره ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلا. ومهما وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان فى الفروع . فلو قال قائل مثلا البيت الذى بمكة ليس الكعبة التى أمر الله تعالى بحجها فهذا كفر إذ قد ثبت تواترا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافه ، ولو أنكر شهادة الرسول لذلك البيت بأنه الكعبة لم ينفعه إنكاره بل يعلم قطعا أنه معاند فى إنكاره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، ولم يتواتر عنده ذلك ـ وكذلك من نسب عائشة رضى الله عنها إلى الفاحشة ، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر لأن هذا وأمثاله لا يمكن إلا بتكذيب الرسول أو إنكار التواتر ، والتواتر ينكره الانسان بلسانه ولا يمكنه أن يجهله بقلبه نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو أنكر ما ثبت بالاجماع فهذا فيه نظر لأن معرفة كون الاجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه . وأنكر النظام كون الاجماع حجة أصلا فصار كون الاجماع حجة مختلف فيه فهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة وكل مالم يحتمل التأويل فى نفسه وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض . ومثاله ما ذكرناه من حشر الأجساد والجنة والنار وإحاطة علم الله

تعالى بتفاصيل الأمور وما يتطرق إليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد فننظر فيه إلى البرهان فان كان قاطعا وجب القول به ، ولكن إن كان فى إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فاظهاره بدعة وإن لم يكن البرهان قطعيا لكن يفيد ظنا غالبا ، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره فى الدين كنفى المعتزلى الرؤية عن الله تعالى . فهذه بدعة وليس بكفر .

وأما ما يظهر له ضرر فيقع فى محل الاجتهاد والنظر فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر . ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة وحل له شرب الخمر والمعاصى وأكل مال السلطان . فهذا من لاشك فى وجوب قتله وإن كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر ، وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من الاباحة لاينسد . وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقا فانه يمنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره . وأما هذا فانه يهدم الشرع من الشرع ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته فى الدين وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصى بظاهره وهو بباطنه برىء عنها . ويتداعى هذا إلى أن يدعى كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الدين . ولا ينبغى أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغى أن يدرك قطعا فى كل مقام بل التكفير حكم شرعى يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود فى النار . فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية .

فتارة يدرك بيقين وتارة بظن غالب . وتارة يتردد فيه ، ومهما حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل ، ولابد من التنبيه على قاعدة أخرى وهو أن المخالف قد يخالف نصاً متواتراً ويزعم أنه مؤول ولكن ذكر تأويله لا انقداح له أصلا فى اللسان لا على بعد ولا على قرب فذلك كفر . وصاحبه مكذب وإن كان يزعم أنه مؤول مثاله : ما رأيته فى كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطى الوحدة ويخلقها . وعالم بمعنى أنه يعطى العلم لغيره ويخلقه ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره، وإما أن يكون واحداً فى نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا . وهذا كفر صراح لأن حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل فى شىء ولا تحتمله لغة العرب أصلا ، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة لسمى ثلاثاً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً . فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات .

## فصـــل

قد فهمت من هذه التكفيرات أن النظر فى التكفير يتعلق بأمور .

أحدها : أن النص الشرعى الذى عدل به عن ظاهره هل يحتمل التأويل أم لا ؟ فإن احتمل فهل هو قريب أم بعيد ؟ ومعرفة ما يقبل التأويل ومالا يقبل التأويل ليس بالهين بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة العارف بأصولها ، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوزاتها ومنهاجها فى ضروب الأمثال .

الثانى : فى النص المتروك أنه ثبت تواتراً أو آحادا أو بالاجماع المجرد فان ثبت تواتراً فهو على شرط التواتر أم لا إذ ربما يظن المستفيض تواتراً ، وحد التواتر مالا يمكن الشك فيه كالعلم بوجود الأنبياء ووجود البلاد المشهورة وغيرها وأنه متواتر فى الأعصار كلها عصراً بعد عصر إلى زمان النبوة فهل يتصور أن يكون قد نقص عدد التواتر فى عصر من الأعصار ؟ وشرط التواتر أن لا يحتمل ذلك كما فى القرآن. أما فى غير القرآن فيغمض مدرك ذلك جداً ولا يستقل بادراكه إلا الباحثون عن كتب التواريخ وأحوال القرون الماضية وكتب الأحاديث وأحوال الرجال وأغراضهم فى نقل المقالات إذ قد يوجد عدد التواتر فى كل عصر ولا يحصل به العلم إذ كان يتصور أن يكون للجمع الكثير رابطة فى التوافق لاسيما بعد وقوع التعصب بين أرباب المذاهب ولذلك ترى الروافض يدعون النص على على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الامامة لتواتره عندهم ، وتواتر عند خصومهم فى أشياء كثيرة خلاف ما تواتر عندهم لشدة توافق الروافض على إقامة أكاذيبهم واتباعها *

وأما ما يستند إلى الاجماع فدرك ذلك من أغمض الأشياء إذ شرطه أن يجتمع أهل الحل والعقد فى صعيد واحد فيتفقوا على أمر واحد اتفاقا بلفظ صريح ، ثم يستمروا عليه مرة عند قوم وإلى تمام انقراض العصر عند قوم أو يكاتبهم إمام فى أقطار الأرض فيأخذ فتاويهم فى زمان واحد بحيث تتفق أقوالهم اتفاقا صريحاً حتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده ، ثم النظر فى أن من خالف بعده هل يكفر ؟ لأن من الناس من قال

إذا جاز فى ذلك الوقت أن يختلفوا فيحمل توافقهم على اتفاق ولا يمتنع على واحد منهم أن يرجع بعد ذلك . وهذا غامض أيضا .

الثالث : النظر فى أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر أو هل بلغه الاجماع إذ كل من يولد لا تكون الأمور عنده متواترة ولا مواضع الاجماع عنده متميزة عن مواضع الخلاف وإنما يدرك ذلك شيئاً فشيئاً ، وإنما يعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنفة فى الاختلاف والاجماع للسلف ثم لا يحصل العلم فى ذلك بمطالعة تصنيف ولا تصنيفين إذ لا يحصل تواتر الاجماع به . وقد صنف أبو بكر الفارسى رحمه الله كتابا فى مسائل الاجماع ، وأنكر عليه كثير منه وخولف فى بعض تلك المسائل فاذاً من خالف الاجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطىء وليس بمكذب فلا يمكن تكفيره . والاستقلال بمعرفة التحقيق فى هذا ليس بيسير .

الرابع : النظر فى دليله الباعث له على مخالفة الظاهر أهو على شرط البرهان أم لا ؟ ومعرفة شرط البرهان لا يمكن شرحها إلا فى مجلدات . وما ذكرنا فى كتاب (القسطاس المستقيم) وكتاب (محك النظار) أنموذج منه ، وتكل قريحة أكثر فقهاء الزمان عن قص شروط البرهان على الاستيفاء ولا بد من معرفة ذلك . فإن البرهان إذا كان قاطعا رخص فى التأويل وإن كان بعيداً . فإذا لم يكن قاطعاً لم يرخص إلا فى تأويل قريب سابق إلى الفهم

الخامس : النظر فى أن ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها فى الدين أم لا؟ فإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه أسهل وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان كقول الإمامة المنتظرة أن الإمام مختف فى سرداب

فانه ينتظر خروجه فانه قول كاذب ظاهر البطلان شنيع جداً ، ولكن لاضرر فيه على الدين إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئا وهذا مثال . والمقصود أنه لا ينبغى أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان . فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل بآحادها المبرزون علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعرى أو غيره جاهل مجازف ، وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم وفى أى ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم فإذا رأيت الفقيه الذى بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك فان التحدى بالعلوم غريزة فى الطبع لا يصبر عنه الجهال ولأجله كثر الخلاف بين الناس ولو سكت من لا يدرى لقل الخلاف بين الخلق .

## فصل

من أشد الناس غلواً وإسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين ، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر — فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيا إذ ظهر لهم فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة رضى الله عنهم حكمهم باسلام

طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن أن مدرك الايمان الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد أبدع حد الابداع بل الايمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده . تارة ببينة من الباطن لايمكنه التغبير عنها . وتارة بسبب رؤيا في المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال . فقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم جاحداً به منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفا وكرامة فرآها يتلألأ منها أنوار النبوة قال والله ما هذا بوجه كذاب . وسأله أن يعرض عليه الاسلام فأسلم ، وجاء آخر اليه عليه الصلاة والسلام وقال أنشدك الله آلله بعثك نبيا؟ فقال عليه الصلاة والسلام إى . والله : الله بعثني نبيا ، فصدقه بيمينه وأسلم ، وهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعلم الأدلة بل كان يبدو نور الايمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لاتزال تزداد إشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب فليت شعرى متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوعن الصحابة رضى الله عنهم إحضار أعرابي أسلم وقوله له الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو عن الاعراض وما لايخلو عن الحوادث حادث وأن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة عن الذات لاهى هو ولا هى غيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين .

ولست أقول لم تجر هذه الألفاظ ولم يجر أيضا ما معناه معنى هذه الألفاظ بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسارى يسلمون واحداً واحداً بعد طول الزمان أو على القرب وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها . نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان فى حق بعض الناس ولكن ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضاً نادر بل الأنفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن. فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فانه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامى لا لكونه حقاً فى نفسه ، وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد فى قلبه ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ولا عن مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة ولا على العكس. وتجرى هذه الانتقالات بأسباب أخر حتى فى القتال بالسيف ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال، وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرحنا بأن الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين: رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظى ولا بخبر نقلى عن رسول الله فيجوز أن يكون القول المرتب الكلامى رافعاً شبهته ودواء له فى مرضه فيستعمل معه ذلك ويحرس عنه سمع

الصحيح الذى ليس به ذلك المرض فانه يوشك أن يحرك فى نفسه إشكالا ويثير له شبهة تمرضه وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح .

والثانى : شخص كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الايمان بأنوار اليقين يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوى بها مريضاً إذا وقعت له شبهة وليفحم بها مبتدعاً إذا نبغ وليحرس به معتقده إذا قصد مبتدع إغواءه. فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات وتعلم قدر ما يزيل به الشك ويدرأ الشبهة فى حق المشكل فرض عين إذا لم يمكن إعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه . والحق الصريح أن كل من اعتقد ماجاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جداً مشرف على التزاول بكل شبهة بل الايمان الراسخ إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال لا يمكن التعبير عنها وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر فان من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا وملازمة ذكر الله تعالى دائماً تجلت له أنوار المعرفة وصارت الأمور التى كان قد أخذها تقليداً عنده كالمعاينة والمشاهدة وذلك حقيقة المعرفة التى لا تحصل إلا بعد انحلال عقدة الاعتقادات وانشراح الصدر بنور الله تعالى . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فهو على نور من ربه كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شرح الصدر فقال « نور يقذف فى قلب المؤمن » فقيل وما علامته ؟

قال « التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود» . فبهذا يعلم أن المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها غير مدرك حقيقة المعرفة ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعاً .

## فصــــل

لعلك تقول أنت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية . والشارع صلوات الله عليه هو الذى ضيق الرحمة على الخلق دون المتكلم إذ قال عليه السلام « يقول الله تعالى لآدم عليه السلام يوم القيامة يا آدم ابعث من ذريتك بعث النار . فيقول يارب من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . وقال عليه الصلاة والسلام « ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة »

الجواب : أن الحديث الأول صحيح ولكن ليس المعنى به أنهم كفار مخلدون بل إنهم يدخلون النار ويعرضون عليها ويتركون فيها بقدر معاصيهم ، والمعصوم من المعاصى لا يكون فى الألف إلا واحداً . وكذلك قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها ) ثم بعث النار عبارة عمن استوجب النار بذنوبه ويجوز أن يصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة كما وردت به الأخبار ، وتشهد له الاخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى وهى أكثر من أن تحصى . فمنها ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فابتغيته فاذا هو فى مشربة يصلى فرأيت على رأسه أنواراً ثلاثة فلما قضى صلاته قال مهم من هذه؟ قلت أنا عائشة يارسول الله . قال أرأيت

الأنوار الثلاثة ؟ قلت نعم يارسول الله قال إن آت أتانى من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب ؟ ثم أتانى فى النور الثانى آت من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب ، ثم أتانى فى النور الثالث آت من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب . فقلت يارسول الله لا تبلغ أمتك هذا . قال يكملون لكم من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلى ـ فهذا وأمثاله من الاخبار الدالة على سعة رحمة الله تعالى كثير . فهذا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة . وأنا أقول إن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة وإن كان أكثرهم يعرضون على النار إما عرضة خفيفة حتى فى لحظة أو فى ساعة ، وإما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار بل أقول إن أكثر نصارى الروم والترك فى هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى أعنى الذين هم فى أقاصى الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة أصناف : صنف لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم أصلا فهم معذورون . وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم وهم الكفار الملحدون . وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أن كذابا ملبسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا ان كذابا يقال له المقفع بعثه الله تحدى

بالنبوة كاذبا فهؤلاء عندى فى أوصافه فى معنى الصنف الأول فانهم مع أنهم لم يسمعوا اسمه سمعوا اضدأوصافه وهذالايحرك داعية النظر فى الطلب .

وأما الحديث الآخر وهو قوله : الناجية منها واحدة . فالرواية مختلفة فيه. فقد روى الهالكة منها واحدة ولكن الأشهر تلك الرواية ، ومعنى الناجية هى التى لا تعرض على النار ، ولا تحتاج إلى الشفاعة بل الذى تتعلق به الزبانية لتجره إلى النار فليس بناج على الاطلاق وإن انتزع بالشفاعة من مخاليبهم : وفى رواية كلها فى الجنة إلا الزنادقة وهى فرقة : ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة وهى التى تخلد فى النار ، ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس عن صلاحه لأن الهالك لا يرجى له بعد الهلاك خير وتكون الناجية واحدة وهى التى تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة لأن من نوقش الحساب فقد عذب فليس بناج إذا ومن عرض للشفاعة فقد عرض للمذلة فليس بناج أيضا على الإطلاق وهذان طرفان وهما عبارتان عن شر الخلق وخيره . وباقى الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين : فمنهم من يعذب بالحساب فقط : ومنهم من يقرب من النار ثم يصرف بالشفاعة : ومنهم من يدخل النار ثم يخرج على قدر خطاياهم فى عقائدهم وبدعتهم وعلى كثرة معاصيهم وقلتها . فأما الهالكة المخلدة فى النار من هذه الأمة فهى فرقة واحدة وهى التى كذبت وجوزت الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمصلحة .

وأما من سائر الأمم . فمن كذبه بعد ماقرع سمعه التواتر عن

خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة كشق القمر وتسبيح الحصى ونبع الماء من بين أصابعه والقرآن المعجز الذى تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق فهذا هو الجاحد الكاذب وهو الكافر ولا يدخل فى هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين بل أقول من قرع سمعه هذا فلا بد أن تنبعث به داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا وخلوه عن الخوف وخطر أمر الدين وذلك كفر: وإن انبعثت الداعية فقصر فى الطلب فهو أيضاً كفر بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالأسباب الخارقة للعادة فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو أيضاً مغفور له ثم له الرحمة الواسعة : فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية

واعلم أن الآخرة قريب من الدنيا فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة فكما أن أكثر أهل الدنيا فى نعمة وسلامة أو فى حالة يغبطها إذ لو خير بينها وبين الإماتة والإعدام مثلا لاختارها وإنما المعذب الذى يتمنى الموت نادر فكذلك المخلدون فى النار بالإضافة إلى الناجين والمخرجين منها فى الآخرة نادر فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف

أحوالنا ، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : « أول ماخط الله في الكتاب الأول أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة » .

واعلم أن أهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها بأسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الأخبار والآثار ولكن ذكر ذلك يطول . فابشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح ، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعاً : وإن كنت صاحب يقين فى أصل التصديق وصاحب خطأ فى بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خاط فى الأعمال فلا تطمع فى النجاة المطلقة .

واعلم أنك بين أن تعذب مدة ثم تخلى وبين أن يشفع فيك من تيقنت صدقه فى جميع ما جاء به أو غيره فاجتهد أن يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء فإن الأمر فى ذلك مخطر .

## فصـــل

قد ظن بعض الناس أن مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع وأن الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن فيقال له الحكم بإباحة الدم والخلود فى النار حكم شرعى لا معنى له قبل ورود الشرع وإن أراد به أن المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله هو الكافر — فهذا لا يمكن حصره فيه لأن الجاهل بالرسول وبالآخرة أيضاً كافر : ثم إن خصص ذلك بالجهل بذات الله تعالى بجحد وجوده أو وحدانيته ولم يطرده فى

الصفات فربما سوعد عليه : وإن جعل المخطىء فى الصفات أيضا جاهلا أوكافراً لزمه تكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم ، ومن نفى الكلام وصفاً زائداً على العلم ، ومن نفى السمع والبصر زائداً على العلم ، ومن نفى جواز الرؤية ، ومن أثبت الجهة وأثبت إرادة حادثة لا فى ذاته ولا فى محل وتكفير المخالفين فيه ، وبالجملة يلزمه التكفير فى كل مسألة تتعلق بصفات الله تعالى وذلك حكم لا مستند له ، وإن خصص ببعض الصفات دون بعض لم يجد لذلك فصلا ومرداً ، ولا وجه له إلا الضبط بالتكذيب ليعم المكذب بالرسول وبالمعاد ، ويخرج منه المؤول : ثم لا يبعد أن يقع الشك والنظر فى بعض المسائل من جملة التأويل أو التكذيب حتى يكون التأويل بعيداً ويقضى فيه بالظن وموجب الاجتهاد فقد عرفت أن هذه مسألة اجتهاده .

فصل

من الناس من قال إنما أكفر من يكفرنى من الفرق ومن لا يكفرنى فلا . وهذا لا مأخذ له : فإن قال قائل على رضى الله عنه أولى بالإمامة إذا لم يكن كفراً فبأن يخطئ صاحبه ويظن أن المخالف فيه كافراً لا يصير كافراً ، وإنما هو خطأ فى مسألة شرعية — وكذلك الحنبلى إذا لم يكفر بإثبات الجهة فلم يكفر بأن يغلط أو يظن أن نافى الجهة مكذب وليس بمتأول — وأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما » معناه أن يكفره مع معرفته بحاله فمن عرف من غيره أنه مصدق لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ثم يكفره فيكون المكفر كافراً . فأما إن كفره لظنه أنه كذب الرسول فهذا غلط منه فى حال شخص واحد إذ قد يظن به أنه كاذب مكذب وليس كذلك وهذا لا يكون كفراً . فقد أفدناك بهذه الترديدات التنبيه على أعظم الغور فى هذه القاعدة وعلى القانون الذى ينبغى أن يتبع فيه فاقنع به والسلام .

# مشكاة الأنوار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفيض الأنوار ، وفاتح الأبصار ، وكاشف الأسرار ، ورافع الأستار : والصلاة على محمد نور الأنوار ، وسيد الأبرار ، وحبيب الجبار وبشير الغفار ، ونذير القهار ، وقامع الكفار ، وفاضح الفجار : وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأخيار .

(أما بعد) فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيضك الله لطلب السعادة الكبرى ، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا ، وكحل بنور الحقيقة بصيرتك ، ونقى عما سوى الحق سريرتك أن أبث إليك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) ومعنى تشبيهه ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة مع قوله عليه السلام « إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعبا تنخفض دون أعاليه مرامي أعين الناظرين . وقرعت بابا مغلقا لا ينفتح إلا للعلماء الراسخين : ثم ليس كل سر يكشف ويفشى ، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى بل صدور الأحرار قبور الأسرار : ولقد قال

بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر بل قال سيد الأولين والآخرين « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره عليهم إلا أهل الاغترار بالله » ومهما كثر أهل الاغترار بالله وجب حفظ الأسرار عن وجه الأشرار ، لكنى أراك منشرح الصدر بالنور منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح عليك بالإشارة إلى لوامع ولوائح والرمز إلى حقائق ودقائق . فليس الظلم فى كف العلم عن أهله بأقل منه فى بثه إلى غير أهله فقد قيل :

فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فاقنع باشارات مختصرة ، وتلويحات موجزة فان تحقيق القول فيه يستدعى تمهيد أصول . وشرح فصول ليس يتسع له الآن وقتى ولا ينصرف إليه ذهنى ولا همتى ، ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء وإنما ينفتح فى هذا الوقت فصول ثلاثة .

## الفصل الأول

### فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له

وبيانه بأن تعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام : ثم بالوضع الثانى عند الخواص : ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص : ثم تعرف درجات النور المنسوبة إلى الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى ، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقى وحده لا شريك له فيه ؛

أما الوضع الأول العامى فالنور يشير إلى الظهور والظهور أمر إضافى إذ يظهر الشىء لامحالة لغيره ويبطن عن غيره فيكون ظاهراً بالاضافة باطنا بالإضافة وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لامحـــالة . وأقوى الإدراكات وأجلها عند العوام الحواس ـ ومنها حاسة البصر : والأشياء بالإضافة إلى الحس البصرى ثلاثة أقسام : منها مالا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة : ومنها ما يبصر بنفسه ولا يبصر به غيره كالأجسام المضيئة مثل الكواكب وجسم النار إذا لم تكن مشعلة : ومنها مايبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس والقمر والنيران المشعلة والسرج : والنور اسم لهذا القسم الثالث : ثم تارة يطلق على مايفيض من هذه الأجسام المنيرة على ظواهر الأجسام الكثيفة فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض ، ونور السراج على الحائط والثوب : وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة أيضا لأنها فى أنفسها مستنيرة . وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصر به غيره كالشمس — هذا حده وحقيقته بالوضع الأول .

( دقيقة ) لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك وكان الإدراك موقوفا على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضاً إذ النور هو الظاهر المظهر وليس شىء من الأنوار ظاهراً فى حق العميان ولامظهراً فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهر فى كونه ركنا لا بدمنه للإدراك ثم ترجح عليه فى أن الروح الباصرة هى المدركة وبها الإدراك : وأما النور فليس بمدرك ولا به إدراك بل عنده الإدراك

وكأن اسم النور بالنور أحق منه بالنور المبصر فأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى الخفاش إن نور عينه ضعيف : وفى الأعمش أنه ضعيف نور البصر . وفى الأعمى أنه فقد نور بصره ، وفى السواد أنه يجمع نور البصر ويقويه ، والأجفان إنما خصتها الحكمة الإلهية بلون السواد وجعل العين محفوفة بها لتجمع ضوء العين : وأما البياض فيفرق نور العين فيضعف نوره حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما يمحق الضعيف فى جنب القوى فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرة يسمى نوراً وأنه لم كان بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص .

(حقيقة) اعلم أن نور البصر موسوم بأنواع من النقصان فانه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ولا يبصر مابعد منه ولا ماقرب ولا يبصر ماهو وراء حجاب ، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر مالا نهاية له ، ويغلط كثيراً فى ابصاره فيرى الكبير صغيراً ويرى البعيد قريباً والساكن متحركا والمتحرك ساكنا فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة فان كان فى الأعين عين منزه عن هذه النقائص كلها فليت شعرى هل هو أولى باسم النور فعلم أن فى قلب الإنسان عينا هذه صفة كمالها وهى التى يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنسانى: دع عنك هذه العبارات فانها إذا كثرت أوهمت عند الضعيف البصيرة كثرة المعانى فنعنى به المعنى الذى يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع

وعن البهيمة وعن المجنون ولنسمه عقلا متابعة للجمهور فى الاصطلاح فنقول : العقل أولى بأن يسمى نوراً من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع .

أما الأولى : فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ويدرك صفات نفسه إذ يدرك نفسه عالماً وقادراً ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلمه بنفسه وعلمه بعلمه بعلمه نفسه إلى غير نهاية وهذه خاصة لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام ووراءه سر يطول شرحه .

الثانية : أن العين لا تبصر ماقرب منها قربا مفرطا ولا مابعد والعقل عنده يستوي القريب والبعيد ويعرج فى طرفة إلى أعلى السموات رقياً وينزل فى لحظة إلى تخوم الأرض هويا بل إذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن يحـــوم بجنبات قدسه القرب والبعد الذى يعرض بين الأجسام فانه أنموذج من بحور الله تعالى ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساوقة وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » فلست أرى الآن الخوض فى بيانه .

الثالثة : أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب : والعقل يتصرف فى العرش والكرسى وما وراء حجب السموات وفى الملأ الأعلى والملكوت كتصرفه فى عالمه الخاص به ومملكته القريبة أعنى بها الخاصة به بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل ، وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه بسبب صفات مقارنة له تضاهى حجاب العين من نفسه.

عند تغميض الأجفان وستعرف هذا فى الفصل الثالث من الكتاب :

الرابعة : أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها ، دون حقائقها ، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ، ويدرك حقائقها وأرواحها ، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها وأنها مم حدثت وكيف خلقت ومن كم معنى جمع الشيء وركب وعلى أى مرتبة فى الوجود نزل وما نسبته إلى سائر مخلوقاته ؟ إلى مباحث أخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها أولى .

الخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ولا تدرك الأصوات ولا الروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة أعنى قوة السمع والشم والذوق بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإراده والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعه مجاوزة عالم الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات فإن الأجسام فى نفسها أخس أقسام الموجودات والألوان : والأشكال من أخس أعراضها ، والموجودات كلها مجال العقل إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها ومالم نعده وهو الأكثر فيتصرف فى جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة والمعانى الخفية عنده جلية فمن أين للعين الباصرة مساواته فى استحقاق اسم النور كلا نها نور بالإضافة إلى غيرها ولكنها ظلمة بالإضافة إليه بل هى جاسوس

من جواسيسه وكلها بأخس خزائنه وهى خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضى فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ، والحواس جواسيسه سواها وهى من خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له فى عالمه الحاضر يسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فى كتاب عجائب القلب من كتب الاحياء .

السادسة : أن العين لا تبصر مالا نهاية له فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات . والأجسام لا تتصور إلا متناهية والعقل يدرك المعقولات والمعقولات لاتتصور أن تكون متناهية : نعم إذا لاحظ العلوم المتحصلة فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهياً لكن فى قوته إدراك ما لا نهاية له . وشرح ذلك يطول فان أردت له مثالا فخذ من الحساب فانه يدرك الأعداد ولا نهاية لها بل يدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعدادولا يتصور لها نهاية ويدرك أنواعاً من النسب بين الأعداد ولا يتصورلها نهاية بل يدرك علمه بالشىء وعلمه بعلمه بالشىء وعلمه بعلمه بعلمه ، وقوته فى هذا الوجه أيضاً لاتقف عند نهاية .

السابعة: أن العين تدرك الكبير صغيراً فترى الشمس فى مقدار مجن والكواكب فى صورة دنانير منثورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، وترى الكواكب ساكنة بل ترى الظل بين يديه ساكنا وترى الصبى ساكناً فى مقداره . والعقل يدرك أن الصبى يتحرك فى النمو والتزيد على الدوام

والفلك متحرك دائما والكواكب تتحرك فى كل لحظة أميالا كثيرة كما قال صلى الله عليه وسلم لجبريل ( أزالت الشمس فقال لا نعم ) قال وكيف قال منذ قلت لا إلى أن قلت نعم قد تحركت مسيرة خمسمائة عام وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها : فان قلت نرى العقلاء يغلطون فى نظرهم فاعلم أن خيالاتهم وأوهامهم قد تحكم باعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل فالغلط منسوب إليها : وقد شرحنا مجامعها فى كتاب معيار العلم وكتاب محك النظر : فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ماهى عليه وفى تجرده عسر وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلى الأسرار ويصادف كل أحد ماقدمه من خير أو شر محضراً ويشاهد كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعندها يقال له : فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد : وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم ، وعندها يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة : ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ، فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس : ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين بل بينهما من التفاوت مايصح أن يقال معه انه أولى بل الحق أنه يستحق الاسم دونه .

( دقيقة ) اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة فليست المبصرات عندها كلها على مرتبة واحدة بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشىء الواحد لا يكون قديما حديثاً

ولا يكون موجوداً معدوماً ، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله ، وأن الأخص إذا كان موجوداً كان الأعم واجب الوجود فاذا وجد السواد فقد وجد اللون ، وإذا وجد الإنسان فقد وجد الحيوان — وأما عكسه فلا يلزم فى العقل إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان إلى غير ذلك من القضايا الضرورية فى الواجبات والجائزات والمستحيلات — ومنها مالا يقارن العقل فى كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهــــز أعطافه ويستورى زناده وينبه عليه بالتنبيه كالنظريات وإنما ينبهه كلام الحكماء فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة . وأعظم الحكمة كلام الله تعالى : ومن جملة كلامه القرآن خاصة فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به يتم الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً . فمثال القرآن نور الشمس ، ومثال العقل نور العين — وبهذا يفهم معنى قوله تعالى ( فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ) وقوله تعالى ( قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ) ( تكملة لهذه الدقيقة ) فاذا فهمت من هذا أن العين عينان ظاهرة وباطنة . الظاهرة من عالم الحس والمشاهدة ، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الابصار (إحداها) ظاهرة ( والأخرى ) باطنة والظاهرة من عالم الشهادة وهى الشمس

المحسوسة والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله المنزلة، ومهما انكشف لك هذا انكشافا تاما فقد انفتح لك باب من أبواب الملكوت وفى هذا العالم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة ومن لم يسافر إلى هذا العالم وقعد به القصور فى حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعد ومحروم عن خاصية الإنسانية بل أضل من البهيمة إذ لم تعط البهيمة أجنحة الطيران إلى هذا العالم ولذلك قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل).

واعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى اللب وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور وكالسفل بالإضافة إلى العلو ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوى والعالم الروحانى والعالم النورانى، وفى مقابلته العالم السفلى والجسمانى والظلمانى: ولا تظنن أنا نعنى بالعالم العلوى السموات فانها علو وفوق فى حق بعض عالم الشهادة والحس يشارك إدراكها البهائم وأما العبد فلا تفتح له أبواب الملكوت ولا يصير ملكوتيا إلا وتبدل فى حقه الأرض غير الأرض والسموات ولا يصير كل ماهو داخل تحت الحس والخيال أرضه، ومن جملتها السموات، وكل ما ارتفع عن الحس سماؤه ـ وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره لقرب حضرة الربوبية. فالإنسان مردود إلى أسفل سافلين ومنه يترقى إلى العالم الأعلى وأما الملائكة فانهم من جملة عالم الملكوت عاكفون فى حضرة القدس ومنها يشرفون على العالم الأسفل ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم

أفاض عليهم من نوره ، وقال «لله ملائكة هم أعلم بأعمال الناس منهم» والأنبياء إذا بلغ معراجهم إلى عالم الملكوت فقد بلغوا المبلغ الأقصى وأشرفوا على جملة من عالم الغيب إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله وعنده مفاتيح الغيب أى من عنده تنزل أسباب الموجودات فى عالم الشهادة إذ عالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم يجرى منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص ومجرى الثمر بالإضافة إلى المثمر والمسبب بالإضافة إلى السبب ، ومفاتيح معرفة المسببات إنما تؤثر من الأسباب ولذلك كان عالم الشهادة مثالا لعالم الملكوت كما سيأتى فى بيان المشكاة والمصباح والشجرة لأن المشبه لا يخلو من موازاة المشبه به ومحاكاته نوعا من المحاكاة على قرب أو بعد وهذا الآن له غور عميق . ومن اطلع على كنه حقيقته انكشفت له حقائق أمثلة القرآن على يسر .

( دقيقة ترجع إلى حقيقة النور ) قلنا إن كل ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور فإن كان من جملته ما يبصر به غيره أيضا مع أنه يبصر نفسه وغيره فهو أولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيره أصلا بل بالحرى أن يسمى سراجا منيراً لفيضان أنواره على غيره وهذه الخاصة توجد للروح القدسى النبوى إذ تفيض بواسطته أنوار المعارف على الخلق وبه يفهم تسمية الله محمداً صلى الله عليه وسلم سراجا منيراً ، والأنبياء كلهم سرج وكذلك العلماء ولكن التفاوت بينهم لا يحصى .

( دقيقة ) إذا كان اللائق بالذى يستفاد منه نور الابصار أن يسمى سراجا منيراً فالذى يقتبس منه السراج فى نفسه جدير بأن يكنى

عنه بالنار — وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس فى أصلها من أنوار علوية والروح القدسى النبوى يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار لكن إنما يصير نوراً على نور إذا مسته النار فبالحرى أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح الإلهية العلوية التى وصفها على وابن عباس عليهما السلام فقال إن لله ملكا له سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم فى كل فم سبعون ألف لسان يسبح الله بجميعها ، وهو الذى قوبل بالملائكة كلهم فقيل ( يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ) فهى إذا اعتبرت من حيث يقتبس منها السرج الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار وذلك لا يؤنس إلا من جانب الطور .

( دقيقة ) الأنوار السماوية التى منها تقتبس الأنوار الأرضية إن كان لها أن تترتب بحيث يقتبس بعضها من بعض فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة : ومثال ترتيبها فى عالم الشهادة لا يدركه الإنسان إلا بأن يبصر ضوء القمر داخلا فى كوة بيت واقعاً على مرآة منصوبة على حائط منعطفاً منها على حائط آخر فى مقابلتها ثم منعطفاً منها على الأرض بحيث تستنير منه الأرض. فأنت تعلم أن ما على الأرض من النور تابع لما على الحائط وما على الحائط تابع لما على المرآة وما على المرآة تابع القمر وما فى القمر تابع لما فى الشمس إذ منها يشرق النور على القمر — وهذه الأنوار الأربعة مترتبة بعضها أعلى من بعض وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم

ودرجة خاصة لا يتعداها فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك ، وأن المقرب هو الأقرب إلى النور الأقصى فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل وأن فيهم الأقرب الذى تقرب درجته من حضرة الربوبية التى هى منبع الأنوار كلها وأن فيهم الأدنى وبينهم درجات تستعصى عن الإحصاء وإنما المعلوم كثرتهم وترتبهم فى صفوفهم وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا ( وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون )

( دقيقة ) إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب فاعلم أنها لا تتسلسل إلى غير نهاية بل ترتقى إلى منبع أول وهو النور لذاته وبذاته ليس يأتيه نور من غيره ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها . فانظر الآن هل اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره أو بالمنير فى ذاته المنور لكل ماسواه فما عندى أنه يخفى عليك الحق فيه وبه تتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذى لا نور فوقه ومنه ينزل النور إلى غيره .

( حقيقة ) بل أقول ولا أبالى أن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض إذ كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو فى ذاته من حيث ذاته لا نور له بل نوره مستعار من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها بل بغيرها . ونسبة المستعار مجاز محض أفترى أن من استعار ثياباً وفرساً ومركباً وسرجاً وركبه فى الوقت الذى أركبه المعير

وعلى الحد الذى رسمه له غنى بالحقيقة أو بالمجاز أو أن المعير هو الغنى كلا بل المستعير هو فقير فى نفسه كما كان ، وإنما الغنى هو المعير الذى منه الإعارة والإعطاء وإليه الاسترداد والانتزاع فإذاً النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولا ، والإدامة ثانياً فلا شركة لأحد معه فى حقيقة هذا الاسم ولا فى استحقاقه إلا من حيث تسميته به ، ويتفضل عليه بتسميته إياه تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالا ثم سماه مالكا ، وإذا انكشف للعبد هذه الحقيقة علم أنه وماله ملك لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلا .

( حقيقة ) مهما عرفت أن النور راجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه فاعلم أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم لأنه مظلم ، وسمي مظلماً لأنه ليس يظهر للابصار إذ ليس يصير موجوداً للبصر مع أنه موجود فى نفسه فالذى ليس موجوداً لالغيره ولالنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية فى الظلمة وفى مقابلته الوجود فهو النور فإن الشىء مالم يظهر فى ذاته لايظهر لغيره ، والوجود بنفسه أيضاً ينقسم إلى ماله الوجود من ذاته وإلى ماله الوجود من غيره . وماله الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه بل إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإنما وجوده من حيث نسبته إلى غيره وليس ذلك بوجود حقيقى كما عرفت فى مثال استعارة الثوب والغنى : فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى .

(حقيقة الحقائق) من ههنا يترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله وأن كل شىء هالك إلا وجهه لأنه يصير هالكا فى وقت من الأوقات بل هو هالك أزلا وأبداً إذ لا يتصور إلا كذلك فإن كل شىء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجوداً لا فى ذاته بل من الوجه الذى يلى موجده فيكون الموجود وجه الله فقط. ولكل شىء وجهان وجه إلى نفسه، ووجه إلى ربه. فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله وجود فإذاً لا موجود إلا الله ووجهه فإذاً كل شىء هالك إلا وجهه أزلا وأبداً.
ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامة ليستمعوا نداء البارى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً، ولم يفهموا من معنى قوله الله أكبر أنه أكبر من غيره حاش لله إذ ليس فى الوجود معه غيره حتى يكون هو أكبر منه بل ليس لغيره رتبة المعية بل رتبة التبعية بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذى يليه فالموجود وجهه فقط ومحال أن يكون أكبر من وجهه بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيا كان أو ملكا بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا هو إذ كل معروف داخل تحت سلطان العارف واستيلائه وذلك ينافى الجلال والكبرياء - وهذا له تحقيق ذكرناه فى كتاب: المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى.

(إشارة) العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذوقاً وحالا وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستهوت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضاً فلم يبق عندهم إلا الله فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم فقال بعضهم: أنا الحق ، وقال الآخر : سبحانى ما أعظم شأنى وقال الآخر: مافى الجبة إلا الله ، وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرط العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا     نحن روحان حللنا بدنا

فلا يبعد أن يفجأ الإنسان مرآة فينظر فيها ولم ير المرآة قط فيظن أن الصورة التى رآها فى المرآة هى صورة المرآة متحدة بها ويرى الخمر فى الزجاج فيظن أن الخمرة لون الزجاج فإذا صار ذلك عنده مألوفاً ورسخ فيه قدمه استغرقه فقال :

رق الزجاج وراقت الخمر     وتشابها فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح     وكأنما قدح ولا خمر

وفرق بين أن يقال الخمر قدح وبين أن يقال كأنه قدح — وهذه

الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال فناء بل فناء الفناء لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه ، وتسمى هذه الحال بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحاداً ، وبلسان الحقيقة توحيداً ، ووراء هذه الحقائق أيضاً أسرار لا يجوز الخوض فيها .

«خاتمة» لعلك تشتهى أن تعرف وجه إضافة نوره إلى السموات والأرض بل وجه كونه فى ذاته نور السموات والأرض ولا ينبغى أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار وأنه النور الكلى لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء وأعلى منه ما ينكشف به وله وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه وأن الحقيق منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده بل ذلك له فى ذاته من ذاته لا من غيره ، ثم عرفت أن هذا لا يتصور ولن يتصف به إلا النور الأول ثم عرفت أن السموات والأرض مشحونة نوراً من طبيعتى النور أعنى المنسوب إلى البصر والبصيرة أى إلى الحس والعقل - أما البصرى فما نشاهده فى السموات من الكواكب والشمس والقمر وما نشاهده فى الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما فى الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصا فى الربيع ، وعلى كل حال من الحيوانات والنباتات والمعادن وأصناف الموجودات ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود ثم سائر ما يظهر

الحس من الاشكال والمقادير يدرك تبعاً للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها — وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة والعالم الأسفل مشحون بها وهى الحياة الحيوانية ثم الإنسانية وبالنور الإنسانى السفلى ظهر نظام العالم السفلى كما أن بالنور الملكى ظهر نظام العالم العلوى وهو المعنى بقوله ( وهو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) وقال (ليستخلفنهم فى الأرض) وقال ( ويجعلكم خلفاء الأرض ) وقال ( إنى جاعل فى الأرض خليفة ) فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج وأن السراج هو النور النبوى القدسى ، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النار . وأن العلويات بعضها مقتبس من بعض ، وأن ترتيبها ترتيب مقامات ثم ترتقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول وأن ذلك هو الله وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة منه وإنما الحقيقى نوره فقط وأن الكل من نوره بل هو لا هوية لغيره إلا بالمجاز فإذا لا نور إلا هو وسائر الأنوار أنوار من الوجه الذى تليه لا من ذاتها فوجه كل موجه إليه ومولى شطره ( وأينما تولوا فثم وجه الله ) فإذا لا إله إلا هو فإن الإله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة والتأليه أعنى وجوه القلوب فإنها الأنوار والأرواح بل كما لا إله إلا هو فلا هو إلا هو فإن هو عبارة عما إليه

الإشارة ، وكيفما كان فلا إشارة إلا إليه بل كلما أشرت فهو بالحقيقة الإشارة إليه ، وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن حقيقة الحقائق التي ذكرناها ، ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس فكل ما فى الوجود فنسبته إليه فى ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس فإذا لا إله إلا الله توحيد العوام ولا هو إلا هو توحيد الخواص لأن ذلك أعم وهذا أخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية فليس وراء ذلك مرقاة إذ الرقى لا يتصور إلا بكثرة فانه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافة وطاحت الإشارة فلم يبق علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع فاستحال الترقى واستحال العروج فليس وراء الأعلى علو ولا مع الوحدة كثرة ولا مع انتفاء الكثرة عروج فان كان ثم تغيير من حال فبالنزول إلى السماء الدنيا أعنى بالإشراق من علو إلى أسفل لأن الأعلى وإن لم يكن له أعلى فله أسفل — فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله وهو من العلم الذى هو كنهه المكنون الذى لا يعلمه إلا العلماء بالله فاذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى سماء الدنيا هو نزول ملك فقد توهم بعض العارفين ما هو أبعد منه إذ قال هذا المستغرق بالفردانية له نزول إلى سماء الدنيا وأن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام

« صرت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به » وإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه فهو السامع والباصر والناطق إذاً لاغيره ، وإليه الإشارة بقوله لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى » الحديث فحركات هذا الموحد من السماء الدنيا وإحساساته من سماء فوقها وعقله فوق ذلك وهو يترقى من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق ومملكة الفردانية إلى سبع طبقات ثم بعد يستوى على عرش الوحدانية ومنه يدبر الأمر إلى طبقات سماواته فربما نظر الناظر إليه فأطلق بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن إلى أن يمعن النظر فيه فيعلم أن ذلك له تأويل كقوله : أنا الحق وسبحانى بل كقوله عليه الصلاة والسلام مرضت فلم تعدنى وكنت سمعه وبصره ولسانه فأرى الآن إمساك عنان البيان فما أراك تطيق من هذا الفن أكثر من هذا المقدار .

( مساعدة ) لعلك لاتسمو إلى هذا الكلام بهمتك بل تقصر دون ذروته همتك فخذ إليك كلاماً أقرب إلى فهمك وأقرب لضعفك واعلم أن معنى كونه نور السموات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهرى البصرى فاذا رأيت ألوان الربيع وخضرتها مثلا فى ضياء النهار فلست تشك فى أنك ترى الألوان وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها فكأنك تقول لست أرى مع الخضرة غيرها : ولقد أصر على هذا أقوام فزعموا أن النور لا معنى له وأنه ليس مع الألوان غير الألوان فأنكروا وجود النور مع أنه أظهر الأشياء وكيف لا وبه تظهر الأشياء وهو الذى يبصر فى نفسه ويبصر به غيره كما سبق لكن عند غروب

الشمس وغيبة السراج ووقوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موضع الضياء فاعترفوا بأن النور معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة اتحاده بها لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى . وقد تكون شدته سبب الخفاء ، والشيء إذا جاوز حده انعكس على ضده فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا ورأوا الله معه وربما زاد على هذا بعضهم فقال ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله لأن منهم من يرى الأشياء به ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء وإلى الأول الإشارة بقوله ( أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ) وإلى الثاني الإشارة بقوله ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ) فالأول صاحب مشاهدة والثاني صاحب الاستدلال بآياته ، والأولى درجة الصديقين ، والثانية درجة العلماء الراسخين ، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين : فإذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله فهو مع كل شيء لا يفارقه وبه يظهر كل شيء ولكن بقي هاهنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل . وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل غروبه فيبقى مع الأشياء كلها دائماً فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والأرض ولأدرك به من التفرقة ما يضطر معه إلى المعرفة بما به ظهرت الأشياء ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة لوحدانية خالقها إذ كل شيء يسبح بحمده لا بعض ،

الأشياء وفى جميع الأوقات لا فى بعض الأوقات ارتفع التفريق وخفى الطريق إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا نقيض تتشابه الأحوال فى الشهادة له فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه : فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم لإشراق نوره وربما أيضاً لا يفهم هذا الكلام بعض القاصرين فيفهم من قولنا إن الله مع كل شىء كالنور مع الأشياء أنه فى كل مكان تعالى وتقدس عن النسبة إلى المكان بل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول لك بأنه قبل كل شىء وأنه فوق كل شىء وأنه مظهر كل شىء والمظهر لا يفارق المظهر فى معرفة صاحب البصيرة فهذا الذى نعنى بقولنا إنه مع كل شىء : ثم لا يخفى عليك أيضاً أن المظهر قبل المظهر وفوقه مع أنه معه لكنه معه بوجه وقبله بوجه فلا تظن أنه متناقض واعتبر بالمحسوسات التى هى قدر درجتك فى العرفان وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضاً ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم فلكل علم رجال وكل ميسر لما خلق له .

## الفصل الثانى

« فى بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار »

وبيان ذلك : يستدعى تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود ولكنى أشير إليهما بالرمز والاختصار . أحدهما : فى بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعانى بقوالب الأمثلة ووجه

كيفية المناسبة بينهما وكنه الموازنة بين عالم الشهادة التي منها يتخذ طينة الأمثال وبين عالم الملكوت الذى منه تنزل أرواح المعانى ( والقطب الثانى ) فى طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها فان هذا المثال مسوق لبيان ذلك ، وقد قرأ ابن مسعود ( مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة فيها ) وقرأ أبى بن كعب ( مثل نور قلب من آمن كمشكاة فيها ) .

القطب الأول فى بيان سر التمثيل ومنهاجه

اعلم أن العالم عالمان روحانى وجسمانى ، وإن شئت قلت حسى وعقلى ، وإن شئت قلت علوى وسفلى والكل متقارب ، وإنما يختلف باختلاف العبارات فاذا اعتبرتهما فى أنفسهما قلت جسمانى وروحانى ، وإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت حسى وعقلى ، وإن اعتبرتهما باضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوى وسفلى : وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة والآخر عالم الغيب والملكوت : ومن ينظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما يتحير من كثرتها ويتخيل كثرة المعانى والذى تنكشف له الحقائق يجعل المعانى أصلا والألفاظ تابعة وأمر الضعيف بالعكس منه إذ يطلب الحقائق من الألفاظ وإلى الفريقين الإشاره بقوله تعالى ( أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم ) وإذ قد عرفت معنى العالمين فاعلم أن العالم الملكوتى العلوى عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثر ، والعالم الحسى عالم الشهادة إذ يشهده الكافة والعالم الحسى مرقاة إلى العالم

العقلى ولو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لا نسد طريق الترقى إليه ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى الحضرة الربوبية والقرب من الله فلن يقرب من الله أحد مالم يطأ بحبوحة حظيرة القدس والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذى نعنيه بعالم القدس، وإذا اعتبرت جملته بحيث لا يخرج منه شىء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس ، وربما سمينا الروح البشرى الذى هو مجرى لوائح القدس الوادى المقدس ، ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعاناً فى معانى القدس ولكن لفظ الحظيرة محيط بجميع طبقاتها فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولات عند أرباب البصائر .

واشتغالى الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدنى عن المقصد فعليك بالتشمير لفهم الألفاظ فأرجع إلى الغرض فأقول : لما كان عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت كان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى وقد يعبر عنه بالدين، وبمنازل الهدى فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقى من أحدهما إلى الآخر فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت : فما من شىء فى هذا العالم إلا وهو مثال لشىء من ذلك العالم ، وربما كان الشىء الواحد مثالا لأشياء من عالم الملكوت ، وربما كان للشىء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة ، وإنما يكون مثالا إذا ماثله نوعاً من المماثلة ، وطابقه نوعاً من المطابقة : وإحصاء تلك الأمثلة يستدعى استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها ، ولن تفى به القدرة

البشرية ، ولم تتسع لفهمه القوة البشرية ، ولا تفى لشرحه الأعمار القصيرة فغايتى أن أعرفك منها أنموذجاً لتستدل باليسير منها على الكثير، وينفتح لك باب الاستبصار بهذا النمط من الأسرار فأقول : إن كان فى عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولأجلها قد تسمى أرباباً فيكون الله رب الأرباب لذلك ، ويكون لها مراتب فى نورانيتها متفاوتة فبالحرى أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب وسالك الطريق يترقى أولا إلى ما درجته درجة الكوكب فيتضح له إشراق نوره ، وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره ، ويتضح له من جماله وعلو درجته ماينادى فيقول هذا ربى : ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر رأى أفوله الأول فى مضرب الهوى أنى بالإضافة إلى ما فوقه أفولا فقال لا أحب الآفلين فكذلك يترقى حتى ينتهى إلى مامثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى قابلا للمثال بنوع مناسبة له معه ، والمناسبة مع ذى النقص نقص : وأقول أيضاً فيه من يقول ( وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ) ومعنى الذى إشارة مبهمة مناسبة لها إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم الذى لم يتصور أن يجاب عنه فالمنزه عن كل مناسبة هو الله الحق ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله ما نسبة الله نزل فى جوابه ( قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) معناه التقدس عن النسبة ولذلك

لما قال فرعون لموسى وما رب العالمين كالطالب لماهيته لم يجبه إلا بأفعاله إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال رب السموات والأرض فقال فرعون لمن حوله ألا تسمعون كالمنكر عليه فى عدوله فى جوابه عن طلب الحقيقة فقال موسى ( ربكم ورب آبائكم الأولين ) فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية وهو يجيب عن الأفعال بالأفعال وقال فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ٭ ولنرجع الآن إلى الانموذج فنقول : علم التعبير يعرفك مقدار ضرب المثال لأن الرؤيا جزء من النبوة — أما ترى أن الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة فى معنى روحانى وهو الاستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار والأنوار على الجميع . والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها كما يفيض السلطان آثاره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان وأن من يرى أن فى يده خاتماً يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فانه يعبر له أنه يؤذن قبل الصبح فى رمضان ، ومن رأى أنه يصب الزيت فى الزيتون تعبيره أن تحته جارية هى أمه وهو لا يعرفها فاستقصاء أبواب التعبير فى أمثال هذا الجنس غير ممكن فلا يمكنى الاشتغال بعدها بل أقول كما أن فى الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب — كذلك منها ماله أمثلة أخرى إذا اعتبرت معها أوصاف أخر سوى النورانية فان كان فى تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ومنه تتفجر إلى

أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله الطور وإن كانت الموجودات التي تتلقى تلك النفائس بعضها أولى من بعض فمثالها الوادي ، وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب . فهذه القلوب أيضاً أودية ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء والأولياء والعلماء ثم من بعدهم فان كانت هذه الأودية دون الأول ومنها تغترف فبالحري أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته وإن كان الوادي الأدون يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فهو يغترف من شاطىء الوادي الأيمن دون لجته وميدانه وإن كان روح النبي سراجاً منيراً. وكان ذلك الروح مقتبساً بواسطة وحي كما قال ( أوحينا إليك روحاً من أمرنا ) فما منه الاقتباس مثاله النار وإن كان المتلقون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما يسمعه وبعضهم على حظ من البصيرة : فمثال المقلد الغير المستبصر الجذوة والقبس والشهاب وصاحب الذوق مشارك للنبي في بعض الأحوال . ومثال تلك المشاركة الاصطلاء وإنما يصطلي بالنار من معه النار لا من سمع خبرها وإن كان أول منزل الأنبياء الترقي إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال : فمثال ذلك المنزل الوادي المقدس وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا باطراح الكونين أعني الدنيا والآخرة والتوجه إلى الواحد الحق ، وكانت الدنيا والآخرة متقابلتين متحاذيتين وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن اطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى : فمثال اطراحهما عند الإحرام والتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين بل نترقى إلى الحضرة الربوبية مرة أخرى فنقول : إن كان في تلك الحضرة شيء بواسطته

تنتقش العلوم المفصلة فى الجواهر القابلة فمثاله القلم : وإن كان فى تلك الجواهر القابلة للتلقى ما انتقش بالعلوم فمثاله اللوح والكتاب (والرق المنشور) وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء مسخر له فمثاله اليد، وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله الصورة : وإن كان يوجد للصورة الإنسية ترتيب منظوم على هذه الشاكلة فهى على صورة الرحمن وفرق بين أن يقال على صورة الرحمن وبين أن يقال على صورة الله إذ الرحمة الإلهية هى التى على صورة الحضرة الإلهية بهذه الصورة ، ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة العالم مختصرة . وصورة آدم أعنى هذه الصورة مكتوبة بخط الله فهو الخط الإلهى الذى ليس برقم حروف إذ يتنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً كما يتنزه كلامه عن أن يكون صوتاً وحروفاً ، وقلمه عن أن يكون قصباً وحديداً ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً : ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه ، فلما كان هذا من آثار الرحمة كان على صورة الرحمن لا على صورة الله فحضرة الإلهية غير حضرة الرحمن وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال ( قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس ) ولولا هذا المعنى لكان قوله : إن الله خلق آدم على صورة الرحمن غير منظوم لفظاً ، بل كان ينبغى أن

يقول على صورته ، واللفظ الوارد فى الصحيح على صورة الرحمن ولأن تمييز حضرة الملك عن حضرة الربوبية يستدعى شرحاً طويلا فلنتجاوزه ويكفيك من الأنموذج هذا القدر فانه بحر لا ساحل له فان وجدت فى نفسك نفوراً عن هذه الأمثال فستأنس بقوله تعالى ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية. فانه قد ورد فى التفسير أن الماء هو المعرفة والأودية القلوب .

( خاتمة واعتذار ) لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظواهر واعتقاداً فى إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله اخلع نعليك حاشا لله فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية فالذى يجرد الظاهر حشوى. والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل — ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ( للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع ) وربما نقل هذا عن على موقوفاً عليه بل أقول موسى فهم من الأمر بخلع النعلين اطراح الكونين فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه وباطناً بخلع العالمين فهذا هو الاعتبار أى العبور من شىء إلى غيره ومن ظاهر إلى سر ، وفرق بين من يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة » فيقتنى الكلب فى البيت ويقول ليس الظاهر مراداً بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب لأنه يمنع المعرفة التى هى من أنوار

الملائكة إذ الغضب غول العقل ، وبين من يمتثل الأمر بالظاهر ، ثم يقول ليس الكلب بصورته بل بمعناه وهو السبعية والضراوة وإذا كان حفظ البيت الذى هو مقر الشخص والبدن واجباً عليه أن يحفظ عن صورة الكلبية فلأن يجب حفظ بيت القلب وهو مقر الجوهر الحقيقى الخاص عن سر الكلبية كان أولى فان من يجمع بين الظاهر والباطن جميعاً فهذا هو الكامل وهو المعنى بقولهم الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه وكذلك ترى الكامل لا يسمح لنفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة — فهذه مغلطة منها ما وقع لبعض السالكين فى إباحة طى بساط الأحكام ظاهراً حتى ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائماً فى الصلاة بسره وهذا أشد مغلطة الحمقاء من الإباحية الذين تأخذهم ترهات كقول بعضهم: إن الله غنى عن عملنا وقول بعضهم إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته منها ولا مطمع فى استئصال الغضب والشهوة بظنه أنه مأمور باستئصالهما فهذه حماقات. وأما ما ذكرناه فهو كبوة جواد وهفوة سالك صده الشيطان فدلاه بحبال الغرور وارجع إلى حديث النعلين فأقول : ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين فالمثال فى الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة ، ولكل حق حقيقة ، وأهل هذه الرتبة هم الذين بلغوا درجة الزجاجة كما سيأتى معنى الزجاجة لأن الخيال الذى من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار ولكن إذا صفا صار كالزجاج الصافى ، وصار غير حائل عن الأنوار بل صار

مع ذلك مؤديا للأنوار بل صار مع ذلك حافظاً للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح فستأتيك قصة الزجاجة فاعلم أن العالم الكثيف الخيالى السفلى صار فى حق الأنبياء عليهم السلام زجاجة ، ومشكاة للأنوار ، ومصفاة للأسرار ، ومرقاة إلى العالم الأعلى وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراء هذا سر ، وقس عليه الضوء والنهار وغيره .

( دقيقة ) إذا قال عليه الصلاة والسلام ( رأيت عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة حبواً ) فلا تظن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك بل رآه فى يقظته كما يراه النائم فى نومه وإن كان عبد الرحمن بن عوف نائماً فى البيت بشخصه فان النوم إنما أثر فى أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهى فان الحواس شاغلة وجاذبة إلى عالم الحس وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت ، وبعض الأنوار النبوية قد تصفى وتستولى بحيث لا تجذبه الحواس إلى عالمها ، ولا تشغله فيشاهد فى اليقظة ما يشاهده غيره فى المنام لكنه إذا كان فى غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة بل عبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الأعلى الذى يعبر عنه بالجنة والغنى والثروة جاذبة إلى الحياة الحاضرة وهى العالم الأسفل فاذا كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى مقاومة من الجاذب الآخرة صد عن السير إلى الجنة فان كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسراً أو بطئاً فى سيره فيكون مثاله من عالم الشهادة الحبو فكذلك تنجلى الأسرار من وراء زجاجات الخيال وذلك لا يقصر

فى حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصوراً عليه بل يحكم به عن كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان فهذا يعرفك كيفية إبصار الأنبياء الصور ، وكيفية مشاهدتهم المعانى من وراء الصور ، والأغلب أن يكون المعنى سابقاً إلى المشاهدة الباطنية ثم يشرف منه على الروح الخيالى فينطبع بصورة موازية للمعنى محاكية له وهذا الحظ من الوحى فى اليقظة يحتاج إلى التأويل كما أنه فى النوم يفتقر إلى التعبير ، والواقع منه فى النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستةوأربعين والواقع منه فى اليقظة نسبته أعظم من ذلك وأظن أن نسبته نسبة الواحد إلى الثلاثة فإن الذى الذى انكشف لنا أن الخواص النبوية تنحصر شعبها فى ثلاثة أجناس وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة .

( القطب الثانى) فى بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن . فالأول : منها الروح الحساس وهو الذى يتلقى ما تورده الحواس إذ كان أصل الروح الحيوانى وأوله وبه يصير الحيوان حيواناً وهو موجود للصبى الرضيع . الثانى : الروح الخيالي وهو الذى يكتب ما أوردته الحواس ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلى فوقه عند الحاجة إليه — وهذا لا يوجد للصبى الرضيع فى بدء نشوئه ولذلك يولع بالشىء ليأخذه فإذا غيب عنه ينساه ولا تنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلا بحيث إذا غيب عنه بكى وطلب ذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله وهذا قد يوجد لبعض

الحيوانات دون بعض ولا يوجد للفراش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النار فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى موضع الضياء فيلقي نفسه عليه فيتأذى به لكنه إذا جاوزه وحصل في الظلمة عاوده مرة أخرى بعد مرة ولو كان له الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر به مرة . فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة فإذا رأى الخشبة بعد ذلك هرب . الثالث : الروح العقلي الذي يدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال وهو الجوهر الإنسي الخاص ولا يوجد للبهائم ولا الصبيان ، ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين . الرابع: الروح الفكري وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف نفيسة ثم إذا استفاد نتيجتين مثلا ألف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة مرة أخرى ، ولا تزال تتزايد كذلك إلى غير نهاية . الخامس :الروح القدسي النبوي الذي به يختص الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض بل من المعارف الربانية التي تقصر دونها الروح العقلي والفكري وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ) ولا يبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل كما لم يبعد

كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز . فلا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك ، وإن أردت مثالا مما تشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إدراك ويحرم منه بعضهم حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المزحفة : وانظر كيف عظمت قوة الذوق فى آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغانى وصنوف الدستانات التى منها المحزن ومنها المطرب ، ومنها المنوم ، ومنها المبكى ، ومنها المجنن ، ومنها القاتل ، ومنها الموجب للغشى! وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق : وأما العاطل عن خاصية الذوق فانه يشارك فى سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشى ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه. فهذا مثال فى أمر خسيس لأنه قريب إلى فهمك فقس به الذوق الخاص النبوى واجتهد فى أن تصير من أهل الذوق بشىء من تلك الروح فان للأولياء منه حظاً وافراً فان لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التى ذكرناها والتشبيهات التى رمزنا إليها من أهل العلم بها فان لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها ( ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) والعلم فوق الإيمان ، والذوق فوق العلم ، والذوق وجدان والعلم قياس ، والإيمان قبول مجرد بالتقليد وحسن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان ، وإذا عرفت هذه الأرواح

الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصناف الموجودات والحسي والخيالي منها وإن كان يشارك البهائم في جنسها لكن الذي للإنسان منها نمط آخر أشرف وأعلى وخلقاً في الإنسان لغرض آخر أجلى وأسنى . وأما الحيوانات فلم يخلقا لها إلا ليكونا آلتها في طلب غذائها وتسخيرها للآدميين . وإنما خلقا للآدمي ليكونا شبكة له يقتنص بهما في جهة العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصاً معيناً اقتبس من عقله معنى عاماً مطلقاً كما ذكرنا في مثال عبد الرحمن بن عوف فاذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة .

( بيان أمثلة هذه الآية ) اعلم أن القول في موازنة هذه الأرواح الخمسة المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله لكني أوجز وأقتصر على التنبيه على طريقه فأقول . أما الروح الحاس فاذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثقب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرهما فأوفق مثال له في عالم الشهادة المشكاة . وأما الروح الخيالي فتجد له خواص ثلاثة ( إحداها ) أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو من بعد ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد ( الثانية ) أن هذا الخيال الكثيف إذا صفي ورقق وهذب وضبط

صار موازياً المعانى العقلية محاذياً لها وغير حائل عن إشراق نور منها (الثالثة) أن الخيال فى بداية أمره محتاج إليه جداً لتنضبط له المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشاراً يخرج عن الضبط إذ تجمع المثالات الخيالية للمعارف العقلية ـ وهذه الخواص الثلاثة لاتجدها فى عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة إلا الزجاجة فإنها فى الأصل من جوهر كثيف لكن صفى ورقق حتى صار لايحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة فهى أولى مثال به . وأما الثالث : وهو الروح العقلى الذى فيه إدراك المعانى الشريفة الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيلها وقد عرفت هذا مما سبق من بيان معنى كون الأنبياء سراجاً منيراً. وأما الرابع: وهو الروح الفكرى فمن خاصيته أن يبتدىء من أصل واحد ثم يتشعب شعبتين ثم كل شعبة شعبتين وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم يفضى بالآخر إلى نتائج تعود فتصير بذوراً لأمثالها إذ يمكن أيضاً تلقيح بعضها بالبعض فيكون مثاله من هذا العالم الشجرة وإذا كانت ثمراتها مادة لتضاعف المعارف وثباتها وبقائها فبالحرى أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها من جملة سائر الأشجار إلا بالزيتونة خاصة لأن لب ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح ويختص من بين سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق وإذا كانت الشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالتى لا تتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى شجرة مباركة . وإذا

كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد فأولى أن لا تكون شرقية ولا غربية . وأما الخامس : وهو الروح القدسى النبوىّ والمنسوب إلى الأولياء إذا كان فى غاية الإشراق والصفاء وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر فى أنواع المعارف وبعضها يكون فى شدة الصفاء كأنه تنبه من نفسه بغير مدد من خارج فبالحرى أن يعبر عن الصافى القوى الاستعداد بأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار إذ فى الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الأنبياء . وفى الأنبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة فهذا المثال موافق لهذا القسم : وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحسى هو الأول وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى إذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعا بعده والفكرى والعقلى يكونان بعدهما فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة فيكون المصباح فى زجاجة والزجاجة فى مشكاة : وإذا كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نوراً على نور فافهم والله الموفق .

( خاتمة ) هذا مثال إنما يصلح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار فإن النور يراد للهداية فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة بل أشد من الظلمة لأن الظلمة لا تهدى إلى باطل كالا تهدى إلى حق ، وعقول الكفار انتكست وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الضلال فى حقهم : فمثالهم كرجل فى بحر لجى يغشاه موج

من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، والبحر اللجي هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والحوادث الرديئة والمكدرات المعمية ، والموج الأول موج الشهوات الباعثة إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى انهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم فبالحرى أن يكون هذا الموج مظلماً لأن حب الشيء يعمى ويصم : والموج الثانى موج الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر وبالحرى أن يكون مظلماً لأن الغضب غول العقل وبالحرى أن يكون هو الموج الأعلى لأن الغضب فى الأكثر مستول على الشهوات حتى إذا ماج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات فان الشهوة لا تقاوم الغضب الهائج أصلا ، وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة والظنون الكاذبة والخيالات الفاسدة التى صارت حجباً بين الكافر وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل فان خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس ، وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض — وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلا عن البعيدة فلذلك تحجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبى صلى الله عليه وسلم مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل فبالحرى أن يعبر عنه بأنه إذا أخرج يده لم يكد يراها ، وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق فبالحرى

أن يعتقد كل موحد أن من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ، ويكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع .

## الفصـــــل الثالث

في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » .

في بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعين ألفا . فأقول إن الله تعالى متجل في ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة وأن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام . منهم : من يحتجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من يحتجب بمجرد النور المحض ، ومنهم من يحتجب بنور مقرون بظلمة : وأصناف هذه الأقسام كثيرة تتحقق كثرتها ويمكنني أن أتكلف حصرها لكني لا أثق بما يلوح من تحديد وحصر إذ لا يدرى أهو المراد في الحديث أم لا . أما الحصر إلى سبعمائة أو سبعين ألفا فذلك لا تستقل به إلا القوة النبوية مع أن ظاهر ظني أن هذه الأعداد مذكورة لا للتحديد وقد تجرى العادة بذكر أعداد ولا يراد بها الحصر بل التكثير والله أعلم بحقيقة ذلك فهو خارج عن الوسع وإنما الذي يمكنني الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول : ( القسم الأول ) هم المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وهم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا وهم أصناف : صنف تشوق إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله الطبع والطبع صفة

مركوزة فى الأجسام حالة فيها وهى مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا تصور لها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضا (الصنف الثانى) هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يتفرغوا لطلب السبب بل عاشوا عيشة البهائم فكان حجابهم أنفسهم المركوزة وشهواتهم المظلمة فلا ظلمة أشد من الهوى والنفس . ولذلك قال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الهوى أبغض إله عبد إلى الله » وهؤلاء ينقسمون فرقا : ففرقة زعمت أن غاية المطلب من الدنيا هى قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم ومشرب وملبس فهؤلاء عبيد اللذة يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادة رضوا لأنفسهم بأن يكونوا بمنزلة البهائم بل كيلا ينظر الناس إليه بعين الحقارة وهؤلاء الأصناف لا يحصون وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة ولا معنى لذكر آحاد الفرق بعد وقوع التنبيه على الأجناس ، ويدخل فى جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم لا إله إلا الله ولكن ربما حمله على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين أو تجمل بهم أو استمداد من مالهم أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء وهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم من الظلمات إلى النور بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . فأما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئاته وسرته حسناته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية .

القسم الثانى : طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة

أصناف صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من ، الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة . الصنف الأول المحجوبون بالظلمة الحسية وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوق إلى معرفة ربه وأول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية وبينهما درجات . ( الطائفة الأولى ) عبدة الأوثان علموا فى الجملة أن لهم ربا يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء وأنفس من كل نفيس ولكن حجبتهم ظلمة الحس عن أن يتجاوزوا المحسوس فاتخذوا من أنفس الجوهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصا مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم عن ذلك النور ظلمة الحس فان الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحانى كما سبق . ( الطائفة الثانية ) جماعة من أقاصى الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم ربا وأنه أجمل الأشياء وإذا رأوا إنسانا فى غاية الجمال أو شجراً أو فرساً أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا وهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس وهم أدخل فى ملاحظة النور من عبدة الأوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص ولا يخصصونه بشخص دون شخص ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم . ( الطائفة الثالثة ) قالوا ينبغى أن يكون ربنا نورانياً فى ذاته بهياً فى صورته ذا سلطان

فى نفسه مهيباً فى حضرته لا يطاق القرب منه ولكن ينبغى أن يكون محسوساً إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها ربا فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء ، وكل ذلك من أنوار الله تعالى (الطائفة الرابعة) زعموا أن النار نستولى نحن عليها بالاشتعال والإطفاء فهى تحت تصرفنا فلا تصلح للإلهية بل ما يكون بتلك الصفة أعنى السلطنة والبهاء ثم نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفاً بالعلو والارتفاع ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها : فمنهم من عبد الشعرى : ومنهم من عبد المشترى إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما أعتقدوه فى النجوم من كثرة التأثيرات فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء وهى من أنوار الله تعالى . (الطائفة الخامسة) ساعدت هؤلاء فى المأخذ ولكن قالت لا ينبغى أن يكون ربنا موسوماً بالصغر والكبر بالإضافة إلى الجواهر النورانية بل ينبغى أن يكون أكبرها فعبدوا الشمس إذ قالوا هى أكبر . فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقرونا بظلمة الحواس . (الطائفة السادسة) ترقوا من هؤلاء فقالوا النور كله لا تنفرد به الشمس بل لغيرها أيضاً أنوار ولا ينبغى أن يكون للرب شريك فى نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع الأنوار . وزعموا أنه رب العالمين والخيرات كلها منسوبة إليه : ثم رأوا فى العالم شروراً فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيها له عن الشر فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة

وربما سموهما ( يزدان واهرمن [١] وهم الثنوية فيكفيك هذا القدر تنبيها على هذا الصنف فهم أكثر من ذلك .

( الصنف الثانى ) المحجوبون ببعض الأنوار مقرونا بظلمة الخيال وهم الذين جاوزوا الحس وأثبتوا وراء المحسوسات أمراً لكنهم لم يمكنهم مجاوزة الخيال فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش وأخسهم رتبة المجسمة ثم أصناف الكرامية بأجمعهم ، ولا يمكننى شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة للتكثير ولكن أرفعهم درجة من نفى الجسمية وجميع عوارضها إلا الجهة المخصوصة بجهة فوق لأن الذى لا ينسب إلى الجهات ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجوداً إذ لم يكن متخيلا ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوز النسبة إلى الجهات والحيزة .

( الصنف الثالث ) المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلهاً سميعاً بصيرا عالماً قادراً مريداً حياً منزهاً عن الجهات لكنهم فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم ، وربما صرح بعضهم فقال كلامه حروف وأصوات ككلامنا ، وربما ترقى بعضهم فقال لا بل هو كحديث نفسنا ولا حرف ولا صوت — وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وإن أنكروها باللفظ إذ لم يدركوا أصلا معانى هذه الإطلاقات فى حق الله تعالى ولذلك قالوا فى إرادته أنها حادثة مثل

---

( ١ ) يزدان واهرمن — كلمتان فارسيتان — الأولى معناها الله والثانية الشيطان .

إرادتنا وأنه طلب وقصد مثل قصدنا وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها — وهؤلاء محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية الفاسدة . فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثانى الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة ( القسم الثالث ) هم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم .

(الصنف الأول) عرفوا معنى الصفات تحقيقاً وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات كما عرف موسى فى جواب قول فرعون وما رب العالمين فقالوا إن الرب المقدس عن معانى هذه الصفات محرك السموات ومدبرها .

(الصنف الثانى) ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن فى السموات كثرة وأن محرك كل سماء خاصة موجود آخر يسمى ملكا وفيهم كثرة وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب فى الأنوار المحسوسة ثم لاح لهم أن هذه السموات فى ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته فى اليوم والليلة مرة فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المحتوى على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه .

( الصنف الثالث ) ترقوا عن هؤلاء وقالوا إن تحريك الأجسام

بطريق المباشرة ينبغى أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عبيده يسمى ملكا نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر إلى الأنوار المحسوسة فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ويكون الرب تعالى وجد محركا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة ، ثم فى تفهيم ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب فهؤلاء أصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة وإنما الواصلون صنف رابع تجلى لهم أيضاً أن هذا المطاع موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر ليس يحتمل هذا الكتاب كشفه وأن نسبة الجمر إلى جوهر النار الصرف فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى أمر بتحريكها فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وجدوه منزهاً ومقدساً عن جميع ما وصفناه من قبل ، ثم هؤلاء انقسموا : فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى ولكن بقى هو ملاحظاً للجمال والقدس وملاحظاً ذاته فى جماله الذى ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه الأعلى وغشيهم سلطان الجلال وانمحقوا وتلاشوا فى ذاتهم ، ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم ، ولم يبق إلا الواحد الحق وصار معنى قوله ( كل شىء هالك إلا وجهه ) لهم ذوقا وحالا ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه فهذه نهاية

الواصلين : ومنهم من لم يتدرج فى الترقى والعروج عن التفصيل الذى ذكرناه ولم يطل عليه العروج فسبقوا من أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه فغلب عليهم أولا ما غلب على الآخرين آخراً وهجم عليهم التجلى دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسى أو بصيرة عقلية ، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل ، والثانى طريق الحبيب صلوات الله وسلامه عليهما والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما ـ فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفاً ولكن إذا فتشت لا تجد واحداً منهم خارجاً عن الأقسام التى ذكرناها فإنهم إما يحتجبون بصفاتهم البشرية أو بالحس أو بالخيال وبمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق ـ فهذا ما حضرنى فى جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادفنى ، والفكر منقسم ، والخاطر متشعب ، والهم إلى غير هذا الفن منصرف ، ومقترحى عليه أن تسأل لى العفو عما طغى به القلم أو زلت به القدم . فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير ، واستكشاف الأنوار العلوية من وراء الحجب غير يسير ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# رسالة الطير

اجتمعت أصناف الطيور على اختلاف أنواعها وتباين طباعها وزعمت أنه لا بد لها من ملك: واتفقوا أنه لا يصلح لهذا الشأن إلا العنقاء وقد وجدوا الخبر عن استيطانها فى مواطن الغرب وتقررها فى بعض الجزائر فجمعتهم داعية الشوق وهمة الطلب فصمموا العزم على النهوض إليها، والاستظلال بظلها، والمثول بفنائها، والاستسعاد بخدمتها، فتناشدوا وقالوا:

قوموا إلى الدار من ليلى نحييها * نعم ونسألهم عن بعض أهليها

وإذا الأشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب وزعمت بلسان الطلب، بأى نواحى الأرض أبغى وصالكم، وأنتم ملوك ما لمقصدكم نحو

وإذاهم بمنادى الغيب ينادى من وراء الحجب (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) لازموا أماكنكم ولا تفارقوا مساكنكم. فانكم إن فارقتم أوطانكم. ضاعفتم أشجانكم. فدونكم والتعرض للبلاء والتخالل بالفناء:

إن السلامة من سعدى وجارتها * أن لا تحل على حال بواديها

فلما سمعوا نداء التعذر من جناب الجبروت ما ازدادوا إلا شو

وقلقا وتحيراً وأرقا ، وقالوا من عند آخرهم :

ولو داواك كل طبيب أنس * بغير كلام ليلى ما شفاكا

﴿ وزعموا ﴾

أن المحب الذى لا شىء يقنعه أو يستقر ومن يهوى به الدار

ثم نادى لهم الحنين . ودب فيهم الجنون . فلم يتلعثموا فى الطلب اهتزازاً منهم إلى بلوغ الأرب : فقيل لهم بين أيديكم المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة وأماكن القر ، ومساكن الحر ، فيوشك أن تعجزوا دون بلوغ الأمنية فتخترمكم المنية . فالأحرى بكم مساكنة أوكار الأوطار قبل أن يستدرجكم الطمع وإذا هم لا يصغون إلى هذا القول ، ولا يبالون — بل رحلوا وهم يقولون :

فريد عن الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

فامتطى كل منهم مطية الهمة قد ألجمها بلجام الشوق وقومها بقوام العشق وهو يقول :

انظر إلى ناقتى فى ساحة الوادى شديدة بالسرى من تحت مياد

إذا اشتكت من كلال البين أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعادى

لها بوجهك نور تستضىء به وفى نوالك من أعقابها حادى

فرحلوا من محجة الاختيار ، فاستدرجتهم بحد الاضطرار ، فهلك من كان من بلاد الحر فى بلاد البرد ، ومات من كان من بلاد البرد فى بلاد الحر ، وتصرفت فيهم الصواعق ، وعكست عليهم العواصف حتى خلصت منهم شرذمة قليلة إلى جزيرة الملك . ونزلوا بفنائه واستظلوا بجنابه ،

والتمسوا من يخبر عنهم الملك وهو فى أمنع حصن من حمى عزه فأخبر بهم فتقدم إلى بعض سكان الحضرة أن يسألهم ما الذى حملهم على الحضور ؟ فقالوا احضرنا ليكون مليكنا . فقيل لهم أتعبتم أنفسكم فنحن الملك شئتم أو أبيتم . جئتم أو ذهبتم . لاحاجة بنا إليكم ، فلما أحسوا بالاستغناء والتعذر أيسوا وخجلوا وخابت ظنونهم فتعطلوا . فلما شملتهم الحيرة ، وبهرتهم العزة . قالوا لا سبيل إلى الرجوع فقد تخاذلت القوى وأضعفنا الجوى فليتنا تركنا فى هذه الجزيرة لنموت عن آخرنا ، وأنشأوا يقولون هذه الأبيات :

أسكان رامة هل من قرى فقد دفع الليل ضيفا قنوعا

كفاه من الزاد أن تمهدوا له نظراً وكلاما وسعيا

هذا وقد شملهم الداء ، وأشرفوا على الفناء ، ولجأوا إلى الدعاء :

ثمل نشاوى بكأس الغرام فكل غدا لأخيه رضيعا

فلما عمهم اليأس ، وضاقت بهم الأنفاس تداركتهم أنفاس الايناس وقيل لهم هيهات فلا سبيل الى اليأس ، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون ، فإن كان كمال الغنى يوجب التعزز والرد فجمال الكرم أوجب السماحة والقبول : فبعد أن عرفتم مقداركم فى العجز عن معرفة قدرنا فحقيق بنا إيواؤكم فهو دار الكرم . ومنزل النعم . فإنه يطلب المساكين الذين رحلوا عن مساكنة الحسبان ولولاه لما قال سيد الكل وسابقهم «أحيني مسكينا » ومن استشعر عدم استحقاقه فحقيق بالملك العنقاء أن يتخذه قرينا : فلما استأنسوا بعد أن استيأسوا ، وانتعشوا

بعد أن تعسوا ، ووثقوا بفيض الكرم واطمأنوا إلى درور النعم، سألوا عن رفقائهم فقالوا ما الخبر عن أقوام قطعت بهم المهامه والأودية ، أمطلول دماؤهم أم لهم دية ؟ فقيل هيهات هيهات ( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ) اجتبتهم أيادى الاجتباء بعد أن أبادتهم سطوة الابتلاء ( ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ) قالوا فالذين غرقوا فى لجج البحار ، ولم يصلوا إلى الدار ، ولا إلى الديار بل التقمتهم لهوات التيار، قيل هيهات (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء ) فالذى جاء بكم وأماتهم أحياهم والذى وكل بكم داعية الشوق حتى استقلتم العناء والهلاك فى أريحية الطلب دعاهم وحملهم وأدناهم وقربهم. فهم حجب العزة وأستار القدرة ( فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ) قالوا فهل لنا إلى مشاهدتهم سبيل ؟ قيل لا فإنكم فى حجاب العزة وأستار البشرية ، وأسر الأجل وقيده . فإذا قضيتم أوطاركم وفارقتم أوكاركم . فعند ذلك تزاورتم وتلاقيتم ، قالوا والذين قعد بهم اللؤم والعجز فلم يخرجوا قيل هيهات ( ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ) ولو أردناهم لدعوناهم ولكن كرهناهم فطردناهم أنتم بأنفسكم جئتم أم نحن دعوناكم ؟ أنتم اشتقتم أم نحن شوقناكم ؟ نحن أقلقناكم فحملناكم وحملناهم فى البر والبحر : فلما سمعوا ذلك واستأنسوا بكمال العناية وضمان الكفاية كمل اهتزازهم وتم وثوقهم فاطمأنوا وسكنوا واستقبلوا حقائق اليقين بدقائق التمكين وفارقوا بدوام الطمأنينة إمكان التلوين ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

## فصـــل

أترى هل كان بين الراجع إلى تلك الجزيرة وبين المبتدىء من فرق إنما قال جئنا ملكنا من كان مبتدئا ، أما من كان راجعا إلى عيشه الأصلى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى) فرجع لسماع النداء كيف يقال له لم جئت؟ فيقول لم دعيت لا بل فيقول لم حملت إلى تلك البلاد وهي بلاد القربة ، والجواب على قدر السؤال ، والسؤال على قدر التفقه والهموم بقدر الهمم .

## فصـــل

من يرتاع لمثل هذه النكت فليجدد العهد بطور الطيرية ، وأريحية الروحانية ، فكلام الطيور لا يفهمه إلا من هو من الطيور ، وتجديد العهد بملازمة الوضوء . ومراقبة أوقات الصلاة ، وخلوة ساعة للذكر فهو تجديد العهد الحلو فى غفلة لا بد من أحد الطريقين ، فاذكرونى أذكركم ، أو نسوا الله فنسيهم . فمن سلك سبيل الذكر أنا جليس من ذكرنى ، ومن سلك سبيل النسيان ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ) وابن آدم فى كل نفس مصحح أحـــد هاتين النسبتين ولا بد يتلوه يوم القيامة أحد السيماءين ـ أما يعرف المجرمون بسيماهم أو الصالحون بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أنقذك الله بالتوفيق ، وهداك إلى التحقيق ، وطوى لك الطريق ، إنه بذلك حقيق ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# الرسالة الوعظية

لقد بلغنى عن لسان من أثق به من سيرة الشيخ الإمام الزاهد حرس الله توفيقه وسمره فى مهم دينه ماقوى رغبتى فى مؤاخاته فى الله تعالى رجاء لما وعد الله به عباده المتحابين — وهذه الأخوة لا تستدعى مشاهدة الأشخاص وقرب الأبدان، وإنما تستدعي قرب القلوب وتعارف الأرواح، وهى جنود مجندة فإذا تعارفت ائتلفت ـ وها أنا عاقد معه عقد الأخوة فى الله تعالى ومقترح عليه أن لا يخلينى عن دعوات فى أوقات خلوته. وأن يسأل الله تعالى أن يرينى الحق حقا. ويرزقنى اتباعه، وأن يرينى الباطل باطلا. ويرزقنى اجتنابه، ثم قرع سمعى أنه التمس منى كلاما فى معرض النصح والوعظ. وقولا وجيزاً فيما يجب على المكلف اعتقاده من قواعد العقائد.

أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلا له لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة. وفاقد النور كيف يستنير به غيره و (متى يستقيم الظل والعود أعوج) وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم واعظين ناطق وصامت) فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت. وفيهما كفاية

لكل متعظ ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره ، ولقد وعظت بهما نفسي فصدقت وقبلت قولا وعقلا ، وأبت وتمردت تحقيقا وفعلا .
فقلت لنفسي : أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق ، وأنه الناصح الصادق فإنه كلام الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ فقالت نعم . فقلت قال الله تعالى ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ) فقد وعدك الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا . وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا فهل تنزهت عن إرادة الدنيا أو حبها ولو أن طبيبا نصرانيا وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها أكان النصرانى عندك أصدق من الله تعالى فإن كان ذلك فما أكفرك أو كان المرض أشد عندك من النار فإن كان كذلك فما أجهلك فصدقت ثم ما انتفعت بل أصررت على الميل إلى العاجلة واستمررت ثم أقبلت عليها فوعظتها بالواعظ الصامت فقلت قد أخبر الناطق عن الصامت إذ قال تعالى ( إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ) وقلت لها هبي أنك ملت إلى العاجلة أفلست مصدقة بأن الموت لا محالة آتيك وقاطع عليك كل ما أنت متمسكة به وسالب منك كل ما أنت راغبة فيه وكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال الله تعالى ( أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون )

أفأنت مخرجة هذا عن جميع ما أنت فيه ؟ والحر الحكيم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها . واللائم يتمسك بها إلى أن يخرج من الدنيا خائبا خاسراً متحسراً : فقالت صدقت فكان ذلك منها قولا لاتحصيل وراءه إذ لم تجتهد قط فى التزود للآخرة كاجتهادها فى تدبير العاجل ، ولم تجتهد قط فى رضاء الله تعالى كاجتهادها فى رضاها بل كاجتهادها طلب الخلق ، ولم تستحى قط من الله تعالى كما تستحى من واحد من الخلق ، ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها فى الصيف فإنها لاتطمئن فى أوائل الشتاء مالم تفرغ من جميع ماتحتاج إليه فيه من آلاته مع أن الموت ربما يختطفها ، والشتاء لا يدركها ، والآخرة على يقين لايتصور أن يختطف منها . وقلت لها ألا تستعدين للصيف بقدر طوله وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحر ؟ قالت نعم . قلت فاعصى الله بقدر صبرك على النار واستعدى للآخرة بقدر بقائك فيها . فقالت هذا هو الواجب الذى لا يرخص فى تركه إلا الأحمق : ثم استمرت على سجيتها فوجدتنى كما قال بعض الحكماء : إن فى الناس من يموت نصفه ولا ينزجر نصفه الآخر ، وما أرانى إلا منهم : ولما رأيتها متمادية فى الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن . رأيت أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها فإن ذلك من العجائب العظيمة فطال عليه تفتيشى حتى وقفت على سببه وها أنا مؤنس وإياه بالحذر منه فهو الداء العضال . وهو السبب الداعى إلى الغرور والإهمال . وهو اعتقاد تراخى الموت واستبعاد هجومه على القرب فإنه لو أخبره صادق فى بياض نهاره أنه يموت فى ليلته أو يموت إلى أسبوع أو شهر لاستقام واستوى على

الطريق المستقيم . ولترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه مما يتعاطاه لله تعالى وهو مغرور فيه فضلا عما يعلم أنه ليس لله تعالى فانكشف تحقيقاً أن من أصبح وهو يأمل أن يمسى أو أمسى وهو يأمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف ، ولم يقدر إلا على سير ضعيف . فأوصيه ونفسى بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « صل صلاة مودع » ولقد أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب . ولا ينتفع بوعظ إلا به : فمن غلب على قلبه فى كل صلاة إنها آخر صلاته حضر معه قلبه فى الصلاة وتيسر له الاستعداد بعد الصلاة . ومن عجز عن ذلك فلا يزال فى غفلة دائمة وغرور مستمر . وتسويف متتابع إلى أن يدركه الموت فتدركه حسرة الفوت ، وأنا مقترح عليه أن يسأل الله تعالى أن يرزقنى هذه الرتبة فإنى طالب لها ، وقاصر عنها ، وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها ، وأن يحذر من مواقع الغرور . فإذا وعدت النفس بذلك طالبها بموثق غليظ من الله تعالى فإن خـــداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس .

وأما أقل مايجب اعتقاده على المكلف فهو ما يترجمه قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله : ثم إذا صدق الرسول فينبغى أن يصدقه فى صفات الله تعالى فإنه حى قادر عالم متكلم مريد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات . وأن الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حادث بل لو لم تخطر له هذه المسألة حتى مات مات مؤمنا وليس عليه تعلم الأدلة التى حررها المتكلمون بل كلما حصل

فى قلبه التصديق بالحق بمجرد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن، ولم يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك . وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الأعراب وعوام الخلق إلا من وقع فى بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل مقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره فإن لم يأخذ ذلك قلبه وبقى مشغولا بعبادته وعمله فلا حرج عليه وإن أخذ ذلك بقلبه فأقل الواجبات عليه ما اعتقده السلف فيعتقد فى القرآن القدم كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويعتقد أن الاستواء حق والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة ، والكيفية فيه مجهولة . فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيمانا مجملا من غير بحث عن الحقيقة والكيفية فإن لم ينفعه ذلك ، وغلب على قلبه الاشكال والشك فإن أمكن إزالة شكه واشكاله بكلام قريب من الأفهام . وإن لم يكن قويا عند المتكلمين ولا مرضيا عندهم فذلك كاف ولا حاجة به إلى تحقيق الدليل بل الأولى أن يزال اشكاله من غير برهان حقيقة الدليل فإن الدليل لا يتم إلا بدرك السؤال والجواب عنه : ومهما ذكرت الشبهة فلا يبعد أن ينكر بقلبه ويكل فهمه عن درك جوابه إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقا لا يحتمله عقله — ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن الكلام ، وإنما زجروا عنه الضعفاء العوام .

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الاشكال ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطىء نهر الدجلة خوفاً

من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الماهر في صنعة السباحة إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم وهو أن كل ضعيف في عقله راض من الله تعالى في كمال عقله يظن بنفسه أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها وأنه من جملة الأقوياء فربما يخوضون فيغرقون في بحر الجهالات حيث لا يشعرون : فالصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين سلوك مسلك السلف في الإيمان بالرسل والتصديق المجمل بكل ما نزله الله تعالى وأخبر به رسوله من غير بحث وتفتيش عن الأدلة بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل إذ قال صلى الله عليه وسلم حيث رأى أصحابه يخوضون بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه ( أبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا ماأمركم الله به فافعلوه ومانهاكم عنه فانتهوا ) فهذا تنبيه على المنهج الحق ، واستيفاء ذلك شرحناه في كتاب (قواعد العقائد) فيطلب منه والسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

# إلجام العوام
## (عن علم الكلام)

الحمد لله الذى تجلى لكافة عباده بصفاته وأسمائه وتاهت عقول الطالبين فى بيداء كبريائه وقص أجنحة الأفكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن أن تدرك الأفهام كنه حقيقته واستوفى قلوب أوليائه وخاصته واستغرق أرواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا فى إشراق أنوار عظمته وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته إلا بما أسمعهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسوله محمد ﷺ خير خليقته وعلى أصحابه وعترته . (أما بعد) فقد سألتنى أرشدك الله عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجرى مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها وأنهم زعموا أن معتقدهم فيه معتقد السلف وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف وأن أبين ما يجب على عموم الخلق أن يعتقدوه فى هذه الأخبار وأكشف فيه الغطاء عن الحق وأميز ما يجب البحث عنه عما يجب الإمساك والكف عن الخوض فيه فأجبتك إلى طلبتك متقربا إلى الله سبحانه

وتعالى بإظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب دون مذهب فالحق أولى بالمراقبة والصدق والإنصاف أولى بالمحافظة عليه وأسأل الله التسديد والتوفيق وهو بإجابة داعيه حقيق وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب (باب) فى بيان حقيقة مذهب السلف فى هذه الأخبار (وباب) فى البرهان على أن الحق فيه مذهب السلف وأن من خالفهم فهو مبتدع (وباب) فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن (الباب الأول) فى شرح اعتقاد السلف فى هذه الأخبار (اعلم) أن الحق الصريح الذى لامراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى مذهب الصحابة والتابعين وهاأنا أورد بيانه وبيان برهانه (فأقول) حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور، التقديس. ثم التصديق. ثم الاعتراف بالعجز. ثم السكوت. ثم الإمساك. ثم الكف. ثم التسليم لأهل المعرفة (أما التقديس) فأعنى به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها (وأما التصديق) فهو الإيمان بما قاله ﷺ وأن ماذكره حق وهو فيما قاله صادق وأنه حق على الوجه الذى قاله وأراده (وأما الاعتراف بالعجز) فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته (وأما السكوت) فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة وأنه فى خوضه فيه مخاطر بدينه وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر

(وأما الإمساك) فأن لا يتصرف فى تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة (وأما الكف) فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه (وأما التسليم لأهله) فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفى عليه لعجزه فقد خفى على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام لا ينبغى أن يظن بالسلف الخلاف فى شيء منها فلنشرحها وظيفة وظيفة إن شاء الله تعالى (الوظيفة الأولى) التقديس ومعناه أنه إذا سمع اليد والاصبع وقوله ﷺ إن الله خمر طينة آدم بيده . وأن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فينبغى أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين أحدهما هو الموضع الأصلى وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة أعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلا بأن يتنحى عن ذلك المكان (وقد يستعار هذا اللفظ) أعنى اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلا كما يقال البلدة فى يد الأمير فإن ذلك مفهوم وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلا فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعاً ويقينا أن الرسول عليه السلام لم يرد بذلك جسما هو عضو مركب من لحم ودم وعظام وأن ذلك فى حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد

صنم فإن كل جسم فهو مخلوق وعبادة المخلوق كفر وعبادة الصنم كانت كفرا لأنه مخلوق وكان مخلوقا لأنه جسم فمن عبد جسمها فهو كافر بإجماع الأئمة السلف منهم والخلف سواء كان ذلك الجسم كثيفا كالجبال الصم الصلاب أو لطيفا كالهواء والماء وسواء كان مظلما كالأرض أو مشرقا كالشمس والقمر والكواكب أو مشفا لا لون له كالهواء أو عظيما كالعرش والكرسى والسماء أو صغيرا كالذرة والهباء أو جمادا كالحجارة أو حيوانا كالإنسان فالجسم صنم فبأن يقدر حسنه وجماله أو عظمه أو صغره أو صلابته وبقاءه لا يخرج عن كونه صنما ومن نفى الجسمية عنه وعن يده وأصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث وليعتقد بعده أنه عبارة عن معنى من المعانى ليس بجسم ولا عرض فى جسم يليق ذلك المعنى بالله تعالى فإن كان لا يدرى ذلك المعنى ولا يفهم كنه حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف أصلا فمعرفة تأويله ومعناه ليس بواجب عليه بل واجب عليه أن لا يخوض فيه كما سيأتى.

مثال آخر: إذا سمع الصورة فى قوله عليه السلام (إن الله خلق آدم على صورته وإنى رأيت ربى فى أحسن صورة فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيبا مخصوصا مثل الأنف والعين والفم والخد التى هى أجسام وهى لحوم وعظام وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ولا هو ترتيب فى أجسام كقولك عرف صورته وما يجرى مجراه.

فليتحقق كل مؤمن أن الصورة فى حق الله لم تطلق لإرادة المعنى الأول الذى هو جسم لحمى وعظمى مركب من أنف وفم وخد فإن جميع ذلك أجسام وهيئات فى أجسام وخالق الأجسام والهيئات كلها منزه عن مشابهتها وصفاتها وإذا علم هذا يقينا فهو مؤمن فإن خطر له أنه إن لم يرد هذا المعنى فما الذى أراده فينبغى أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به بل أمر بأن لا يخوض فيه فإنه ليس على قدر طاقته لكن ينبغى أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم.

مثال آخر : إذا قرع سمعه النزول فى قوله ﷺ « ينزل الله تعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا » فالواجب عليه أن يعلم أن النزول اسم مشترك قد يطلق إطلاقا يفتقر فيه إلى ثلاثة أجسام جسم عال هو مكان لساكنه وجسم سافل كذلك وجسم منتقل من السافل إلى العالى ومن العالى إلى السافل فإن كان من أسفل إلى علو سمى صعودا وعروجا ورقيا ، وإن كان من علو إلى أسفل سمى نزولا وهبوطا وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه إلى تقدير انتقال وحركة فى جسم كما قال الله تعالى ( وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ) وما رؤى البعير والبقر نازلا من السماء بالانتقال بل هى مخلوقة فى الأرحام ولإنزالها معنى لا محالة كما قال الشافعى رضى الله عنه : دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فنزلت ثم نزلت ثم نزلت فلم يرد به انتقال جسده إلى أسفل فتحقق المؤمن قطعا أن النزول فى حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول وهو انتقال شخص وجسد من علو إلى أسفل فإن الشخص والجسد أجسام

والرب جل جلاله ليس بجسم فان خطر له أنه لم يرد هذا فما الذى أراد فيقال له أنت إذا عجزت عن فهم نزول البعير من السماء فأنت عن فهم نزول الله تعالى أعجز فليس هذا بعشك فادرجى واشتغل بعبادتك أوحرفتك واسكت واعلم أنه أريد به معنى من المعانى التى يجوز أن يراد بالنزول فى لغة العرب ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته وإن كنت لا تعلم حقيقته وكيفيته

مثال آخر : إذا سمع لفظ الفوق فى قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وفى قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين أحدهما : نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل يعنى أن الأعلى من جانب رأس الأسفل وقد يطلق لفوقية الرتبة وبهذا المعنى يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير وكما يقال العلم فوق العمل والأول يستدعى جسما ينسب إلى : جسم . والثانى : لا يستدعيه فليعتقد المؤمن قطعا أن الأول غير مراد وأنه على الله تعالى محال فإنه من لوازم الأجسام أولوازم أعراض الأجسام وإذا عرف نفى هذا المحال فلا عليه إن لم يعرف أنه لماذا أطلق وماذا أريد فقس على ما ذكرناه مالم نذكره .

الوظيفة الثانية : الإيمان والتصديق وهو أنه يعلم قطعا أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله ﷺ صادق فى وصف الله تعالى به فليؤمن بذلك وليوقن بأن ماقاله صدق وما أخبر عنه حق لا ريب فيه وليقل آمنا وصدقنا وأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذى

أراده وعلى الوجه الذى قاله وإن كنت لا تقف على حقيقته فان قلت التصديق إنما يكون بعد التصور ، والإيمان إنما يكون بعد التفهم . فهذه الألفاظ إذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد صدق قائلها فيها؟ فجوابك أن التصديق بالأمور الجملية ليس بمحال وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان وأن كل اسم فله مسمى إذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه أن يعتقد كونه صادقا مخبرا عنه على ما هو عليه فهذا معقول على سبيل الإجمال بل يمكن أن يفهم من هذه الألفاظ أمور جملية غير مفصلة ويمكن التصديق كما إذا قال فى البيت حيوان أمكن أن يصدق دون أن يعرف أنه إنسان أو فرس أو غيره بل لو قال فيه شىء أمكن تصديقه وإن لم يعرف ماذلك الشىء فكذلك من سمع الاستواء على العرش فهم على الجملة أنه أريد بذلك نسبة خاصة إلى العرش فيمكنه التصديق قبل أن يعرف أن تلك النسبة هى نسبة الاستقرار عليه أوالإقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معانى النسبة فأمكن التصديق به وإن قلت فأى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون وجوابك أنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله وهم الأولياء والراسخون فى العلم وقد فهموا وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ولستم من أهله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل

للجاهل فاسألوا أهل الذكر فان كانوا يطيقون فهمه فهموهم وإلا قالوا لهم : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فلا تسألوا عن أشياء تبد لكم تسؤكم مالكم ولهذا السؤال هذه معان الإيمان بها واجب والكيفية مجهولة أي لكم والسؤال عنه بدعة كما قال : مالك الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب فإذن الإيمان بالجليات التي ليست مفصلة فى الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفي المحال عنه ينبغى أن يكون مفصلا فإن المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم ههنا الشخص المقدر الطويل العريض العميق الذى يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو الذى يدفع مايطلب مكانه إن كان قويا وينعدفع ويتنحى عن مكانه بقوة دافعة إن كان ضعيفا وإنما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لأن العامى ربما لا يفهم المراد به .

الوظيفة الثالثة : الاعتراف بالعجز ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز فان التصديق واجب وهو عن دركه عاجز فان ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك الكيفية مجهولة يعنى تفصيل المراد به غير معلوم بل الراسخون فى العلم والعارفون من الأولياء إن جاوزوا فى المعرفة حدود العوام وجالوا فى ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة فما بقى لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم لكثرة المطوى وقلة المكشوف بالإضافة إليه والإضافة إلى المطوى المستور . قال سيد الأنبياء

صلوات الله عليه : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وبالاضافة إلى المكشوف . قال صلوات الله عليه « أعرفكم بالله أخوفكم لله وأنا أعرفكم بالله » ولأجل كون العجز والقصور ضروريا فى آخر الأمر بالاضافة إلى منتهى الحال ( قال سيد الصديقين العجز عن درك الادراك إدراك ) فأوائل حقائق هذه المعانى بالاضافة إلى عوام الخلق كأواخرها بالاضافة إلى خواص الخلق فكيف لا يجب عليهم الاعتراف بالعجز .

الوظيفة الرابعة : السكوت عن السؤال وذلك واجب على العوام لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما ليس أهلا له فان سأل جاهلا زاده جوابه جهلا وربما ورطه فى الكفر من حيث لا يشعر وإن سأل عارفا عجز العارف عن تفهيمه بل عجز عن تفهيم ولده مصلحته فى خروجه إلى المكتب بل عجز الصائغ عن تفهيم النجار دقائق صناعته فان النجار وإن كان بصيرا بصناعته فهو عاجز عن دقائق الصياغة لأنه إنما يعلم دقائق النجر لاستغراقه العمر فى تعلمه وممارسته فكذلك يفهم الصائغ الصياغة أيضا لصرف العمر إلى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم التى ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الأمور الإلهية عجز كافة المعرضين عن الصناعات عن فهمها بل عجز الصبى الرضيع عن الاغتذاء بالخبز واللحم لقصور فى فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لأنه قاصر على تغذية الأقوياء لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذى به فمن أطعم الصبى الضعيف اللحم والخبز وأمكنه من

تناوله فقد أهلكه وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال هذه المعانى يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضى الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعله رسول الله ﷺ فى الانكار على قوم رآهم خاضوا فى مسألة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام « فبهذا أمرتم. وقال: إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال» أو لفظ هذا معناه كما اشتهر فى الخبر ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رءوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض فى التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف وهو المبالغة فى التقديس ونفى التشبيه وأنه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة فى هذا بما أراد حتى يقول: كل ما خطر ببالكم وهجس فى ضميركم وتصور فى خاطركم فانه تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وأن ليس المراد بالاخبار شيئا من ذلك . وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهما سمعتم شيئا من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس هذا من جملة ما أوتيناه .

الوظيفة الخامسة : الإمساك عن التصرف فى ألفاظ واردة ويجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الأخبار والإمساك عن التصرف فيها من ستة أوجه التفسير والتأويل والتصريف والتفريع والجمع والتفريق .

الأول : التفسير وأعنى به تبديل اللفظ بلغة أخرى يقوم مقامها في العربية أو معناها بالفارسية أو التركية بل لايجوز النطق إلا باللفظ الوارد لأن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها . ومنها مايوجد لها فارسية تطابقها لكن ماجرت عادة الفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها منها ومنها ما يكون مشتركاً في العربية ولا يكون في العجمية كذلك . أما الأول : مثاله لفظ الاستواء فإنه ليس له في الفارسية لفظ مطابق يؤدى بين الفرس من المعنى الذى يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لا يشتمل على مزيد إبهام إذ فارسيته أن يقال راستا باستاز وهذان لفظان ( الأول ) ينبىء عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أن ينحنى ويعوج ( والثانى ) ينبىء عن سكون وثبات فيما يتصور أن يتحرك ويضطرب وإشعاره بهذه المعانى وإشارته إليها في العجمية أظهر من إشعار لفظ الاستواء وإشارته إليها فاذا تفاوت في الدلالة والإشعار لم يكن هذا مثل الأول وإنما يجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذى لا يخالفه بوجه من الوجوه لا بما يباينه او يخالفه ولو بأدنى شىء وادقه وأخفاه .

مثال الثانى : أن الأصبع يستعار في لسان العرب النعمة يقال لفلان عندى أصبع أى نعمة ومعناها بالفارسية انكشت وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة وتوسع العرب في التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لا نسبة لتوسع العرب إلى جمود العجم فإذا أحسن إرادة المعنى المستعار له في العرب وسمج ذلك في العجم

نفر القلب عما سمج وجه السمع ولم يمل إليه فاذا تفاوتا لم يكون التفسير تبديلا بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز التبديل إلا بالمثل .

مثال الثالث : العين فان من فسره فانما يفسره بأظهر معانيه فيقول هو جسم وهو مشترك فى لغة العرب بين العضو الناصر وبين الماء والذهب والفضة وليس للفظ اسم وهو مشترك هذا الاشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه فلأجل هذا نرى المنع من التبديل والاقتصار على العربية فان قيل هذا التفاوت إن ادعيتموه فى جميع الألفاظ فهو غير صحيح إذ لا فرق بين قولك خبز ونان وبين قولك لحم وكوشت وإن اعترف بأن ذلك فى البعض فامنع من التبديل عند التفاوت لا عند التماثل فالجواب الحق أن التفاوت فى البعض لا فى الكل فلعل لفظ اليد ولفظ دست يتساويان فى اللغتين وفى الاشتراك والاستعارة وسائر الأمور ولكن إذا انقسم إلى ما يجوز وإلى مالا يجوز وليس إدراك التمييز بينهما والوقوف على دقائق التفاوت جليا سهلا يسيرا على كافة الخلق بل يكثر فيه الإشكال ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل فنحن بين أن نحسم الباب احتياطا إذ لا حاجة ولا ضرورة إلى التبديل وبين أن نفتح الباب ونقحم عموم الخلق ورطة الخطر فليت شعرى أى الأمرين أعزم وأحوط والمحظور فيه ذات الاله وصفاته وما عندى أن عاقلا متدينا لا يقر بان هذا الأمر مخطر فان الخطر فى الصفات الإلهية يجب اجتنابه كيف وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط الأنساب احتياطا لحكم الولاية

في الوراثة وما يترتب على النسب فقالوا مع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل لأن باطن الأرحام إنما يطلع عليه علام الغيوب فانه يعلم ما فى الأرحام فلو فتحنا باب النظر إلى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فايجاب العدة حيث لا علوق أهون من ركوب هذا الخطر فكما أن إيجاب العدة حكم شرعى فتحريم تبديل العربية حكم شرعى ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق الأول ويعلم أن الاحتياط فى الخبر عن الله وعن صفاته وعما أراده بألفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط فى العدة وكل ما احتاط به الفقهاء من هذا القبيل .

أما التصريف الثانى : التأويل وهو بيان معناه بعد إزالة ظاهره وهذا إما أن يقع من العامى نفسه أو من العارف مع العامى أو من العارف مع نفسه بينه وبين ربه فهذه ثلاثة مواضع .

الأول : تأويل العامى على سبيل الاشتغال بنفسه وهو حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لا يحسن السباحة ولا شك فى تحريم ذلك وبحر معرفة الله أبعد غورا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء لأن هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل إلا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين .

الموضع الثانى : أن يكون ذلك من العالم مع العامى وهو أيضاً ممنوع ومثاله أن يجر السباح الغواص فى البحر مع نفسه عاجزا عن السباحة مضطرب القلب والبدن وذلك حرام لأنه عرضة لخطر الهلاك فانه لا يقوى على حفظه فى لجة البحر وإن

قدر على حفظه فى القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف بقرب الساحل لا يطيعه وإن أمره بالسكون عند التطام الأمواج وإقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن على حسب مراده لقصور طاقته وهذا هو المثال الحق العالم إذا فتح للعامى باب التأويلات والتصرف فى خلاف الظواهر وفى معنى العوام الأديب والنحوى والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل عالم سوى المتجردين لتعلم السباحة فى بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات المخلصين لله تعالى فى العلوم والأعمال العاملين بجميع حدود الشريعة وآدابها فى القيام بالطاعات وترك المنكرات المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الأعلى فى جنب محبة الله تعالى فهؤلاء هم أهل الغوص فى بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر عظيم يهلك من العشرة تسعة إلى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون ( أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فهم الفائزون وربك أعلم بما تكن صدورهم وما يعلنون ) .

الموضع الثالث : تأويل العارف مع نفسه فى سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه فإن الذى انقدح فى سره أن المراد به من لفظ الاستواء والفوق مثلا إما أن يكون مقطوعا به أو مشكوكا فيه أومظنونا ظنا غالبا فان كان قطعيا فليعتقده وإن كان مشكوكا فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم من كلامه

باحتمال يعارضه مثله من غير ترجيح بل الواجب على الشاك التوقف وإن كان مظنونا فاعلم أن الظن متعلقين. أحدهما: أن المعنى الذى انقدح عنده هل هو جائز فى حق الله تعالى أم هو محال؟ والثانى: أن يعلم قطعا جوازه لكن تردد فى أنه هل هو مراده أم لا؟.

مثال الأول : تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوى الذى هو المراد بقولنا السلطان فوق الوزير فانا لا نشك فى ثبوت معناه لله تعالى لكنا ربما نتردد فى أن لفظ الفوق فى قوله (يخافون ربهم من فوقهم) هل أريد به العلو المعنوى أم أريد به معنى آخر يليق بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذى هو محال على ماليس بجسم ولا هو صفة فى جسم.

ومثال الثانى : تأويل لفظ الاستواء على العرش بأنه أراد به النسبة الخاصة التى للعرش ونسبته أن الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض بواسطة العرش فانه لا يحدث فى العالم صورة ما لم يحدثه فى العرش كما لا يحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض مالم يحدثه فى الدماغ بل لايحدث البناء صورة الأبنية ما لم يحدث صورتها فى الدماغ فبواسطة الدماغ يدبر القلب أمر عالمه الذى هو بدنه فربما نتردد فى أن إثبات هذه النسبة للعرش إلى الله تعالى هل هو جائز إما لوجوبه فى نفسه أو لأنه أجرى به سنته وعادته وإن لم يكن خلافه محالا كما أجرى عادته فى حق قلب الإنسان بأن لا يمكنه التدبير إلا بواسطة الدماغ وإن كان فى قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به إرادته الأزلية وحقت به الكلمة القديمة التى هى علمه

فصار خلافه ممتنعا لا لقصور فى ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الإرادة القديمة والعلم السابق الأزلى ولذلك قال ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) وإنما لا تتبدل لوجوبها وإنما وجوبها لصدورها عن إرادة أزلية واجبة ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وإن لم يكن محالا فى ذاته ولكنه محال لغيره وهو إفضاؤه إلى أن ينقلب العلم الأزلى جهلا ويمنع نفوذ المشيئة الأزلية فاذا إثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش فى تدبير المملكة بواسطته إن كان جائزا عقلا فهل واقع وجودا هذا مما قد يتردد فيه الناظر وربما يظن وجوده هذا مثال الظن فى نفس المعنى والأول مثال الظن فى كون المعنى مرادا باللفظ مع كون المعنى فى نفسه صحيحا جائزا وبينهما فرقان لكن كل واحد من الظنين إذا انقدح فى النفس وحاك فى الصدر فلا يدخل تحت الاختيار دفعه عن النفس ولا يمكنه أن لا يظن فان للظن أسبابا ضرورية لا يمكن دفعها ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها لكن عليه وظيفتان . إحداهما: أن لا يدع نفسه تطمئن إليه جزما من غير شعور بامكان الغلط فيه ولا ينبغى أن يحكم من نفسه بموجب ظنه حكما جازما . والثانية : أنه إن ذكره لم يطلق القول بأن المراد بالاستواء كذا أو المراد بالفوق كذا لأنه حكم بما لا يعلم وقد قال الله تعالى ( ولا تقف ما ليس لك به علم ) لكن يقول أنا أظن أنه كذا فيكون صادقا فى خبره عن نفسه وعن ضميره ولا يكون حكما على صفة الله ولا على مراده بكلامه بل حكما على نفسه ونبأ عن ضميره فان قيل وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق

والتحدث به كما اشتمل عليه ضميره وكذلك لو كان قاطعا فهل له أن يتحدث به قلنا تحدثه به إنما يكون على أربعة أوجه فإما أن يكون مع نفسه أو مع من هو مثله فى الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعالى أو مع العامى فان كان قاطعاً فله أن يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله فى الاستبصار أو من هو متجرد لطلب المعرفة مستعد له خال عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لأن القطن المتعطش إلى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك فى صدره اشكال الظواهر وربما يلقيه فى تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم أهله ظلم كبثه إلى غير أهله وأما العامى فلا ينبغى أن يحدث به وفى معنى العامى كل من لا يتصف بالصفات المذكورة بل مثاله ما ذكرناه من إطعام الرضيع الأطعمة القوية التى لا يطيقها وأما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فان ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا زال النفس يتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه فلا منع منه ولا شك فى منع التحدث به مع العوام بل هو أولى بالمنع من المقطوع أما تحدثه مع من هو فى مثل درجته فى المعرفة أو مع المستعد له ففيه نظر فيحتمل أن يقال هو جائز ولا يزيد على أن يقول أظن كذا وهو صادق ويحتمل المنع لأنه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن فى صفة الله تعالى أو فى مراده من كلامه وفيه خطر

وإباحته تعرف بنص أو إجماع أو قياس على منصوص ولم يرد شيء من ذلك بل ورد قوله تعالى ( ولا تقف ما ليس لك به علم ) فان قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور .

الأول : الدليل الذى دل على إباحة الصدق وهو صادق فانه ليس يخبر إلا عن ظنه وهو ظان

الثانى : أقاويل المفسرين فى القرآن بالحدس والظن إذ كل ما قالوه وغير مسموع من الرسول عليه السلام بل هو مستنبط بالاجتهاد ولذلك كثرت الأقاويل وتعارضت .

والثالث : إجماع التابعين على نقل الأخبار المتشابهة التى نقلها آحاد الصحابة ولم تتواتر وما اشتمل عليه الصحيح الذى نقله العدل عن العدل فانهم جوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل إلا الظن والجواب عن الأول أن المباح صدق لا يخشى منه ضرر وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمعه من يسكن إليه ويعتقده جزما فيحكم فى صفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفوس نافرة عن اشكال الظواهر فاذا وجد مستروحا من المعنى ولو كان مظنونا سكن إليه واعتقده جزما وربما يكون غلطا فيكون قد اعتقد فى صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه فى كلامه بما لم يرد به .

وأما الثانى : وهو أقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره بل لعل ذلك فى الأحكام الفقهية أو فى حكايات أحوال الأنبياء والكفار والمواعظ والأمثال وما لا يعظم خطر الخطأ فيه .

وأما الثالث : فقد قال قائلون لا يجوز أن يعتمده فى هذا الباب إلا ما ورد فى القرآن أو تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم تواترا يفيد العلم . فأما أخبار الآحاد فلا يقبل فيه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل إلى التأويل ولا بروايته عند من يقتصر على الرواية لأن ذلك حكم بالمظنون واعتماد عليه وما ذكروه ليس ببعيد لكنه مخالف لظاهر مادرج عليه السلف فإنهم قبلوا هذه الأخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين . أحدهما : أن التابعين كانوا قد عرفوا من أدلة الشرع أنه لايجوز اتهام العدل بالكذب لا سيما فى صفات الله تعالى فاذا روى الصديق رضى الله عنه خبراً وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبة له إلى الوضع أو إلى السهو فقبلوه وقالوا قال أبو بكر قال رسول الله عليه السلام وقال أنس قال رسول الله عليه السلام وكذا فى التابعين فالآن إذا ثبت عندهم بأدلة الشرع أنه لا سبيل إلى اتهام العدل التقى من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وأن ينزل الظن منزلة نقل العدل مع أن بعض الظن إثم فاذا قال الشارع ماأخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه وأظهروه فلا يلزم من هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فاقبلوه وأظهروه وارووا عن ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قالته فليس هذا فى معنى المنصوص ولهذا تقول مارواه غير العدل من هذا الجنس ينبغى أن يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط فى

المواعظ والأمثال وما يجرى مجراها . والجواب الثانى : أن تلك الأخبار روتها الصحابة لأنهم سمعوه يقينا فمانقلوا إلا ما تيقنوه والتابعون قبلوه ورووه وما قالوا قال رسول الله عليه السلام كذا بل قالوا قال فلان قال رسول الله عليه السلام كذا وكانوا صادقين وما أهملوا روايته لاشتمال كل حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقيا يفهمه منه ليس ذلك ظنيا فى حقه مثاله رواية الصحابى عن رسول الله عليه السلام (قوله ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له) الحديث فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب فى قيام الليل وله تأثير عظيم فى تحريك الدواعى للتهجد الذى هو أفضل العبادات فلو ترك هذا الحديث لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل إلى إهمالها وليس فيه إلا إيهام لفظ النزول عند الصبى والعامى الجارى مجرى الصبى وما أهون على البصير أن يغرس فى قلب العامى التنزيه والتقديس عن صورة النزول بأن يقول له إن كان نزوله إلى السماء الدنيا ليسمعنا نداءه وقوله فما أسمعنا فأى فائدة فى نزوله ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا فهذا القدر يعرف العامى أن ظاهر النزول باطل بل مثاله أن يريد من فى المشرق إسماع شخص فى المغرب ومناداته فيتقدم إلى المغرب بأقدام معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع فيكون نقله الأقدام عملا باطلا وفعلا كفعل المجانين فكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل بل يضطر بهذا القدر كل عامى إلى أن يتيقن نفى صورة

النزول وكيف وقد علم استحالة الجسمية عليه واستحالة الانتقال على غير الأجسام كاستحالة النزول من غير انتقال فإذا الفائدة فى نقل هذه الأخبار عظيمة والضرر يسير فانى يساوى هذا حكاية الظنون المنقدحة فى الأنفس فهذه سبل تجاذب طرق الاجتهاد فى إباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع ولا يبعد ذكر وجه ثالث وهو أن ينظر إلى قرائن حال السائل والمستمع فإن علم أنه ينتفع به ذكره وإن علم أنه يتضرر تركه وإن ظن أحد الأمرين كان ظنه كالعلم فى إباحة الذكر وكم من إنسان لا تتحرك داعيته باطناً إلى معرفة هذه المعانى ولا يحيك فى نفسه اشكال من ظواهرها فذكر التأويل معه مشوش وكم من إنسان يحيك فى نفسه اشكال الظاهر حتى يكاد أن يسوء اعتقاده فى الرسول عليه السلام وينكر قوله الموهم فمثل هذا لو ذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الاحتمال الذى ينبو عنه اللفظ انتفع به ولا بأس بذكره معه فإنه دواء لدائه وإن كان داء فى غيره ولكن لا ينبغى أن يذكر على رءوس المنابر لأن ذلك يحرك الدواعى الساكنة من أكثر المستمعين وقد كانوا عنه غافلين وعن اشكاله منفكين ولما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا فى الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعى وتشويش القلوب فمن خالفهم فى ذلك الزمان فهو الذى حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك فى القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالإثم أما الآن وقد فشا ذلك فى بعض البلاد فالعذر فى إظهار شىء من ذلك رجاء لإماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن

قائله أقل . فإن قيل فقد فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل ؟ قلنا بأمرين .

أحدهما : أن يكون المعنى مقطوعا ثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة .

الثاني : أن لا يكون اللفظ محتملا إلا لأمرين وقد بطل أحدهما وتعين الثاني مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) فإنه إن ظهر فى وضع اللسان أن الفوق لا يحتمل إلا فوقية المكان أو فوقية الرتبة وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس لم يبق إلا فوقية الرتبة كما يقال السيد فوق العبد والزوج فوق الزوجة والسلطان فوق الوزير فالله فوق عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به فى لفظ الفوق وأنه لا يستعمل فى لسان العرب إلا فى هذين المعنيين أما لفظ الاستواء إلى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه فى اللغة هذا الانحصار وإذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى واحد وهو الباطل فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين أن يكون بالظن وبالاحتمال المجرد وهذا تمام النظر فى الكف عن التأويل (التصرف الثالث) الذى يجب الإمساك عنه التصريف ومعناه أنه إذا ورد قوله تعالى (استوى على العرش) فلا ينبغى أن يقال مستو ويستوى لأن المعنى يجوز أن يختلف لأن دلالة قوله هو مستو على العرش على الاستقرار أظهر من قوله (رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) الآية بل هو كقوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء)

فإن هذا يدل على استواء قد انقضى من إقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته فنى تغيير التصاريف ما يوقع فى تغيير الدلالات والاحتمالات فليجتنب التصريف كما يجتنب الزيادة فإن تحت التصريف الزيادة والنقصان (التصرف الرابع) الذى يجب الإمساك عنه القياس والتفريع مثل أن يرد لفظ اليد فلا يجوز إثبات الساعد والعضد والكف مصيرا إلى أن هذا من لوازم اليد وإذا وردالأصبع لم يجز ذكر الأنملة كما لا يجوز ذكر اللحم والعظم والعصب وإن كانت اليدالمشهورة لا تنفك عنه وأبعد من هذه الزيادة إثبات الرجل عند ورود اليد وإثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود الضحك وإثبات الأذن والعين عند ورود السمع والبصر وكل ذلك محال ذلك محال وكذب وزيادة وقد يتجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فلذلك ذكرناه (التصرف الخامس) لا يجمع بين متفرق ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتاباً فى جمع هذه الأخبار خاصة ورسم فى كل عضو باباً فقال باب فى إثبات الرأس وباب فى اليد إلى غير ذلك وسماه كتاب الصفات فإن هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام فى أوقات متفرقة متباعدة اعتماداً على قرائن مختلفة تفهم السامعين معانى صحيحة فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صارجمع تلك المتفرقات فى السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة فى تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه وصار الاشكال فى أن الرسول عليه السلام لم نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم فى النفس وأوقع بل الكلمة الواحدة يتطرق إليها الاحتمال فإذا

اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متوالياً يضعف الاحتمال بالإضافة إلى الجملة ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة ما لا يحصل بقول الواحد بل يحصل من العلم القطعى بخبر التواتر ما لا يحصل بالآحاد ويحصل من العلم القطعى باجتماع التواتر ما لا يحصل بالآحاد وكل ذلك نتيجة الاجتماع إذ يتطرق الاحتمال إلى قول كل عدل وإلى كل واحدة من القرائن فإذا انقطع الاحتمال اوضعف فلذلك لا يجوز جمع المتفرقات (التصرف السادس) التفريق بين المجتمعات فكما لا يجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة فإن كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة فى تفهيم معناه مطلقا ومرجحة الاحتمال الضعيف فيه فإذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) لا تسلط على أن يقول القائل هو فوق لأنه إذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التى للقاهر مع المقهور وهى فوقية الرتبة ولفظ القاهر يدل عليه بل لا يجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره بل ينبغى أن يقول فوق عباده لأن ذكر العبودية فى وصفه فى الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة إذ لا يحسن أن يقال زيد فوق عمرو قبل أن يتبين تفاوتهما فى معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الأمر بالسلطنة أو بالأبوة أو بالزوجية فهذه الأمور يغفل عنها العلماء فضلا عن العوام فكيف يسلط العوام فى مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير ولأجل هذه الدقائق بالغ السلف فى الجمود والاقتصار على موارد التوقيف كما

ورد على الوجه الذى وردوا باللفظ الذى وردوا لحق ماقالوه والصواب ما رأوه فأهم المواضع بالاحتياط ما هو تصرف فى ذات الله وصفاته وأحق المواضع بإلجام اللسان وتقييده عن الجريان فيما يعظم فيه الخطر وأى خطر أعظم من الكفر .

الوظيفة السادسة : فى الكف بعد الامساك وأعنى بالكف كف الباطن عن التفكر فى هذه الأمور فذلك واجب عليه كما وجب عليه إمساك اللسان عن السؤال والتصرف وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار وإن كان يتقاضاه طبعه أن يغوص فى البحار ويخرج دررها وجواهرها ولكن لاينبغى أن تغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلها بل ينبغى أن ينظر إلى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر أنه إن فاته نفائس البحار فما فاته إلا زيادات وتوسعات فى المعيشة وهو مستغن عنها فان غرق أو التقمه تمساح فاته أصل الحياة فان قلت إن لم ينصرف قلبه من التفكر والتشوف إلى البحث فما طريقه؟ قلت طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة وقراءة القرآن والذكر فان لم يقدر فبعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة أو نحو أو خط أو طب أوفقه فان لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ولو الحراثة والحياكة فان لم يقدر فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض فى هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم خطره وضرره بل لو اشتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض فى البحث عن معرفة الله تعالى

فان ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فان قلت العامى إذا لم تسكن نفسه إلى الاعتقادات الدينية إلا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فان جوزت ذلك فقد رخصت له فى التفكر والنظر وأى فرق بينه وبين غيره الجواب أنى أجوز له أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين. أحدهما : أن لا يزاد معه على الأدلة التى فى القرآن . والآخر : أن لا يمارى فيه إلا مراء ظاهراً ولا يتفكر فيه إلا تفكرا سهلا جليا ولا يمعن فى التفكر ولا يوغل غاية الايغال فى البحث وأدلة هذه الأمور الأربعة ماذكر فى القرآن . أما الدليـــل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) وقوله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ) وكقوله ( فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) وقوله ( ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتاداً ـ إلى قوله ـ وجنات ألفافا) وأمثال ذلك وهى قريب من خمسمائة آية جمعناها فى

كتاب جواهر القرآن بما ينبغى أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين ان الأعراض حادثة وأن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة فهى حادثة ثم الحادث يفتقر إلى محدث فان تلك التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام والدلالات الظاهرة القريبة من الافهام على ما فى القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة . وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما فى القرآن من قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فان اجتماع المدبرين سبب إفساد التدبير (وبمثل) قوله (لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) وقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) (وأما صدق الرسول) فيستدل عليه بقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وبقوله (فأتوا بسورة من مثله) وقوله (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وأمثاله (وأما اليوم الآخر) فيستدل عليه بقوله تعالى (قال من يحي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وبقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى - إلى قوله - أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى) وبقوله (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب - إلى قوله - فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحي الموتى) وأمثال ذلك كثير فى القرآن فلا ينبغى أن يزاد عليه فان قيل فهذه الأدلة

التى اعتمدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتها فما بالهم يمتنعون عن تقرير هذه الأدلة ولا يمتنعون عنها وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فان فتح للعامى باب النظر فليفتح مطلقا أوليسد عليه طريق النظر رأسا وليكلف التقليد من غير دليل (الجواب) أن الدلالة تنقسم إلى مايحتاج فيه إلى تفكر وتدقيق خارج عن طاقة العامى وقدرته وإلى ماهو جلى سابق إلى الافهام ببادى الرأى من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة فهذا لاخطر فيه وما يفتقر إلى التدقيق فليس على حد وسعه فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا ولهذا قلنا أدلة القرآن أيضا ينبغى أن يصغى إليها إصغاء إلى كلام جلى ولا يمارى فيه إلا مراء ظاهرا ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر فمن الجلى أن من قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر كما قال (هو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم فى كل العالم وأن من خلق علم كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق) فهذه الأدلة تجرى للعوام مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى وما أخذته المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه اشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره فى حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذى ينبغى أن يتوقى والدليل على تضرر الخلق به

المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك ويدل عليه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة بأجمعهم ماسلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين فى تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا فى تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم فى مسائل الفرائض فان قيل إنما أمسكوا عنه لقلة الحاجة فان البدع إنما نبغت بعدهم فعظم حاجة المتأخرين وعلم الكلام راجع إلى علم معالجة المرضى بالبدع فلما قلت فى زمانهم أمراض البدع قلت عنايتهم بجميع طرق المعالجة فالجواب من وجهين .

أحدهما : أنهم فى مسائل الفرائض ما اقتصروا على بيان حكم الوقائع بل وضعوا المسائل وفرضوا فيها ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لأن ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا علمه ورتبوه قبل وقوعه إذ علموا أنه لا ضرر فى الخوض فيه وفى بيان حكم الواقعة قبل وقوعها والعناية بإزالة البدع ونزعها عن النفوس أهم فلم يتخذوا ذلك صناعة لأنهم عرفوا أن الاستضرار بالخوض فيه أكثر من الانتفاع ولولا أنهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم الخوض لخاضوا فيه .

والجواب الثانى : أنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى فى إثبات نبوة محمد ﷺ وإلى إثبات البعث مع منكريه ثم ما زادوا فى هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا إلى السيف والسنان

بعد إفشاء أدلة القرآن وماركبوا ظهر اللجاج فى وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طريق المجادلة وتذليل طرقها ومنهاجها كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان فمابعد بيان الله بيان على اننا ننصف ولا ننكر أن حاجة المعالجة تزيد بزيادة المرض وان اطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيرا فى اثارة الاشكالات وأن للعلاج طريقين.

أحدهما : الخوض فى البيان والبرهان إلى أن يصلح واحد يفسد به اثنان فان صلاحه بالاضافة إلى الاكياس وفساده بالاضافة إلى البله وماأقل الأكياس وما أكثر البله والعناية بالأكثرين أولى .

والطريق الثانى : طريق السلف فى الكف والسكوت والعدول إلى الدرة والسوط والسيف وذلك مما يقنع الأكثرين وإن كان لا يقنع الأقلين وآية إقناعه أن من يسترق من الكفار من العبيد والاماء تراهم يسلمون تحت ظلال السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعا ماكان فى البداية كرها ويصير اعتقادا جزما ماكان فى الابتداء مراء وشكا وذلك بمشاهدة أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخبرهم وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة الجدل والدليل فاذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قوما دون قوم وجب ترجيح الأنفع فى الأكثر فالمعاصرون للطبيب الأول المؤيد بروح القدس المكاشف من الحضرة الالهية الموحى إليه من الخبير البصير باسرار عباده وبواطنهم أعرف بالأصوب والأصلح قطعا فسلوك سبيلهم لامحالة أولى .

الوظيفة السابعة : التسليم لأهل المعرفة وبيانه أنه يجب على العامى أن يعتقد أن ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصديق وعن أكابر الصحابة وعن الأولياء والعلماء الراسخين وأنه إنما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك فقد خلق الناس أشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر إلى تفاوتهما وتباعد ما بينهما صورة ولونا وخاصية ونفاسة فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله تعالى وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر الواحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أمور لا يطمع الآخر فى بلوغ أوائله فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره فكذلك معرفة الله تعالى بل كما ينقسم الناس إلى جبان عاجز لا يطيق النظر إلى التطام أمواج البحر وإن كان على ساحله وإلى من يطيق ذلك ولكن لا يمكنه الخوض فى أطرافه وإن كان قائما فى الماء على رجله وإلى من يطيق ذلك لكن لا يطيق رفع الرجل عن الأرض اعتمادا على السباحة وإلى من يطيق السباحة إلى حد قريب من الشط لكن لا يطيق خوض البحر إلى لجته والمواضع المغرقة المخطرة وإلى من يطيق ذلك لكن لا يطيق الغوص فى عمق البحر إلى مستقره الذى فيه نفائسه وجواهره فهكذا

مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق (فان قيل) فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شىء قلنا هيهات فقد بينا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الأقصى فى معانى أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله وأن الخلائق وإن اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فاذا أضيف ذلك إلى علم الله سبحانه فما أوتوا من العلم إلا قليلا لكن ينبغى أن يعلم أن الحضرة الالهية محيطة بكل مافى الوجود إذ ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله فالكل من الحضرة الالهية كما أن جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية وأنت لا تفهم الحضرة الالهية إلا بالتمثيل إلى الحضرة السلطانية فاعلم أن كل مافى الوجود داخل فى الحضرة الالهية ولكن كما أن السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا إلى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم وربما لم يطرق إلى القصر الخاص إلا الوزير وحده ثم إن الملك يطلع الوزير من أسرار ملكه على ما يريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها فكذلك فافهم على هذا المثال تفاوت الخلق فى القرب والبعد من الحضرة الالهية فالعتبة التى هى آخر الميدان موقف جميع العوام ومردهم لا سبيل لهم إلى مجاوزتها فان جاوزوا حدهم استوجبوا الزجر والتنكيل وأما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا فى

الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة فى القرب والبعد وتفاوت مابينهم كثير وإن اشتركوا فى مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين وأما حظيرة القدس فى صدر الميدان فهى أعلى من أن يطأها أقدام العارفين وأرفع من أن يمتد إليها أبصار الناظرين بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير فهذا مايجب على العامى أن يؤمن به جملة وإن لم يحط به تفصيلا فهذه هى الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق فى هذه الأخبار التى سألت عنها وهى حقيقة مذهب السلف وأما الآن فنشتغل باقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف .

الباب الثانى فى إقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف وعليه برهانان عقلى وسمعى. أما العقلى فاثنان كلى وتفصيلى أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم أربعة أصول هى مسلمة عند كل عاقل . الأول : أن أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلى حسن المعاد هو النبى صلى الله عليه وسلم فان ما ينتفع به فى الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة كما عرف الطبيب إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر ومن الذى رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة مانفع وضر وأخبر عنه ولا يدرك بقياس العقل فان العقول قاصرة عن ذلك والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى مابعد الموت ولا يرشد إلى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات لاسيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به

الشرائع بل أقروا بجملتهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة وهى قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء فضلا عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة. الأصل الثانى : أنه ﷺ أفاض إلى الخلق ما أوحى اليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم وأنه ما كتم شيئا من الوحى وأخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث إلا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله فى حرصه على إصلاح الخلق وشغفه بارشادهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم فما ترك شيئا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولا شيئا مما يقربهم إلى النار وإلى سخط الله إلا حذرهم منه ونهاهم عنه وذلك فى العلم والعمل جميعا. الأصل الثالث : أن أعرف الناس بمعانى كلامه وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره الذين شاهدوا الوحى والتنزيل وعاصروه وصاحبوه بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معانى كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا وللنقل إلى من بعدهم ثانيا وللتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره وهم الذين حثهم رسول الله ﷺ على السماع والفهم والحفظ والأداء فقال ( نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها ) الحديث فليت شعرى أيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

باخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك أو يتهم أولئك الأكابر فى فهم كلامه وإدراك مقاصده أو يتهمون فى إخفائه وإسراره بعد الفهم أو يتهمون فى معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه فهذه أمور لا يتسع لتقديرها عقل عاقل . الأصل الرابع : انهم فى طول عصرهم إلى آخر أعمارهم مادعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور بل بالغوا فى زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به على ماسنحكيه عنهم فلو كان ذلك من الدين أو كان من مدارك الأحكام وعلم الدين لأقبلوا عليه ليلا ونهارا ودعوا إليه أولادهم وأهليهم وتشمروا عن ساق الجد فى تأسيس أصوله وشرح قوانينه تشمرا أبلغ من تشمرهم فى تمهيد قواعد الفرائض والمواريث فنعلم بالقطع من هذه الأصول أن الحق ماقالوه والصواب ما رأوه لا سيما وقد أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وقال صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة» فقيل من هم ؟ فقال « أهل السنة والجماعة » فقال « ما أنا عليه الآن وأصحابى » * البرهان الثانى : وهو التفصيلى فنقول ادعينا أن الحق هو مذهب السلف وأن مذهب السلف هو توظيف الوظائف السبع على عوام الخلق فى ظواهر الأخبار المتشابهة وقد ذكرنا برهان وكل وظيفة معها فهو برهان كونه حقا فمن يخالف ليت شعرى يخالف فى قولنا الأول انه يجب على

العامى التقديس للحق عن التشبيه ومشابهة الأجسام أو فى قولنا الثانى إنه يجب عليه التصديق والإيمان بما قاله الرسول عليه السلام بالمعنى الذى أراده أو فى قولنا الثالث إنه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعانى أو فى قولنا الرابع إنه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيهما هو وراء طاقته أو فى قولنا الخامس إنه يجب عليه إمساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق أو فى قولنا السادس انه يجب عليه كف القلب عن التذكير فيه والفكر مع عجزه عنه وقد قيل لهم تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق أو فى قولنا السابع إنه يجب عليه التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين فهذه أمور بيانها برهانها ولا يقدر أحد على جحدها وإنكارها إن كان من أهل التمييز فضلا عن العلماء والعقلاء. فهذه هى البراهين العقلية.

(النمط الثانى) البرهان السمعى على ذلك وطريقه أن نقول الدليل على أن الحق مذهب السلف أن نقيضه بدعة والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام فى التأويل والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة وكان نقيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة فهنا ثلاثة أصول. أحدها: أن البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الأمور بدعة. والثانى: أن كل بدعة فهى مذمومة. والثالث: أن البدعة إذا كانت مذمومة كان نقيضها وهى السنة القديمة محمودة ولا يمكن النزاع فى شىء من هذه الأصول فإذا سلم ذلك ينتج أن الحق

مذهب السلف فإن قيل فبم تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فينازع فى هذين وإن لم ينازع فى الثالث لظهوره فنقول الدليل على إثبات الأصل الأول من كون البدعة مذمومة اتفاق الأمة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتغيير من يعرف بالبدعة وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع فى محل الظن فذم رسول الله عليه السلام البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطعى جملتها وإن كان الاحتمال يتطرق إلى آحادها وذلك كعلمنا بشجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم وحب رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها وما يجرى مجراه فانه علم قطعاً بأخبار آحاد بلغت فى الكثرة مبلغاً لا يحتمل كذب ناقليها وإن لم تكن آحاد تلك الأخبار متواترة وذلك مثل ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » وقال ﷺ « اتبعوا ولا تبتدعوا وإنما هلك من كان قبلكم لما ابتدعوا فى دينهم وتركوا سنن أنبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا وأضلوا » وقال عليه السلام « إذا مات صاحب بدعة فقد فتح على الإسلام فتح » وقال عليه السلام « من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام » وقال عليه السلام « من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له فى الله ملأ الله قلبه أمنا وإيماناً ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه

بالبشر أو استقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد ، ﷺ وقال ﷺ «إن الله لا يقبل لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا زكاة ولا حجاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلا ويخرج من الإسلام كما يخرج السهم من الرمية أو كما تخرج الشعرة من العجين » فهذا وأمثاله مما يجاوز حد الحصر أفاد علماً ضرورياً بكون البدعة مذمومة فإن قيل سلمنا أن البدعة مذمومة ولكن ما دليل الأصل الثانى وهو أن هذه بدعة فإن البدعة عبارة عن كل محدث فلم قال الشافعى رضى الله عنه الجماعة فى التراويح بدعة وهى بدعة حسنة وخوض الفقهاء فى تفاريع الفقه ومناظرتهم فيها مع ما أبدعوه من نقض وكسر وفساد وضع وتركيب ونحوه من فنون مجادلة وإلزام كل ذلك مبدع لم يؤثر عن الصحابة شىء من ذلك فدل على أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة ولا نسلم أن هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث خاض فيه الأولون إما لاشتغالهم بما هو أهم منه وإما لسلامة القلوب فى العصر الأول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمسيس الحاجة حيث حدثت الأهواء والبدع إلى إبطالها وإفحام منتحليها ( الجواب ) أما ما ذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذا بدعة رفعت سنة قديمة إذ كان سنة الصحابة المنع من الخوض فيه وزجر من سأل عنه والمبالغة فى تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن هذه المسائل والخوض بالعوام فى غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر

النقل عند التابعين من نقلة الآثار وسير السلف حجة لا يتطرق إليها ريب ولا شك كما تواتر خوضهم فى مسائل الفرائض ومشاورتهم فى الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضاً بأخبار آحاد لا يتطرق الشك إلى مجموعها كما نقل عن عمر رضى الله عنه أنه سأل سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة وكما روى أنه سأله سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به إلى على رضى الله عنه فقال يا أبا الحسن استمع مايقول هذا الرجل قال وما يقول يا أمير المؤمنين فقال الرجل سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا فوجم لها رضى الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لهذا الكلام نبأ فى آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبى هريرة فهذا قول على بحضور عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف على رضى الله عنه فى نفسه أن هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطلب معرفة لصفة القرآن الذى هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لأحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر إلى فراسة على وإشرافه على أن ذلك قرع لباب الفتنة وأن ذلك سينتشر فى آخر الزمان الذى هو موسم الفتن ومطيتها بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانظر إلى تشديده وقوله ولو وليت لضربت عنقه فمثل أولئك السادة الأكابر الذين شاهدوا الوحى والتنزيل واطلعوا على

أسرار الدين وحقائقه وقد قال صلى الله عليه وسلم فى أحدهما «لو لم أبعث لبعث عمر» وقال فى الثانى «أنا مدينة العلم وعلى بابها» يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وبمن لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه أن الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض فى الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه أنه محق وفى عمر وعلى أنهما مبطلان هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ويرجح المجادلين على الأئمة الراشدين والسلف فإذا قد عرف على القطع أن هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا كخوض الفقهاء فى التفاريع والتفاصيل فإنه ما نقل عنهم زجر عن الخوض فيه بل إمعانهم فى الخوض وأما ما أبدع من فنون المجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التحصيل ذكرنا وجه ذمها فى كتاب قواعد العقائد من كتب الاحياء وأما مناظراتهم إن كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدارك الأحكام فهى سنة السلف ولقد كانوا يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما نقل فى مسألة الجد وميراث الأم مع الزوج والأب ومسائل سواها نعم إن أبدعوا ألفاظاً وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعيرها ويستعملها وإن كان مقصدهم المذموم من النظر الافحام دون الاعلام والإلزام دون الاستعلام فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة .

## الباب الثالث فى فصول متفرقة وأبواب نافعة فى هذا الفن

### فصل

ان قال قائل ما الذى دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها أكان لا يدرى أنه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل فى ذات الله تعالى وصفاته وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال وضلالة الضلال وهذا أبعد وأشنع لأنه بعث شارحا لا مبهما ملبسا ملغزا وهذا إشكال له وقع فى القلوب حتى جر بعض الخلق إلى سوء الاعتقاد فيه فقالوا لو كان نبيا لعرف الله ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه فى ذاته وصفاته ومالت طائفة أخرى إلى اعتقاد الظواهر وقالوا لولم يكن حقا لما ذكره كذلك مطلقا ولعدل عنها إلى غيرها أوقرنها بما يزيل الايهام عنها فى سبيل حل هذا الاشكال العظيم

(الجواب) ان هذا الاشكال منحل عند أهل البصيرة وبيانه أن هذه الكلمات ما جمعها رسول الله دفعة واحدة وماذكرها وإنما جمعها المشبهة وقد بينا أن لجمعها من التأثير فى الإيهام والتلبيس على الافهام ماليس لآحادها المفرقة وإنما هى كلمات لهج بها فى جميع عمره فى أوقات متباعدة وإذا اقتصر منها على ما فى القرآن والأخبار المتواترة رجعت إلى كلمات يسيرة معدودة وإن أضيفت اليها الأخبار الصحيحة فهى أيضا قليلة وإنما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التى لا يجوز التعويل عليها ثم ماتواتر منها إن صح نقلها عن العدول فهى آحاد كلمات وما ذكر صلى الله عليه وسلم كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول

معها إيهام التشبيه وقد أدركها الحاضرون المشاهدون فاذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام وأعظم القرائن فى زوال الايهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة فى نفسه مقارنة لكل مايسمع فينمحق معه الايهام انمحاقا لا يشك فيه ويعرف هذا بأمثلة

الأول : أنه ﷺ سمى الكعبة بيت الله تعالى وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا أنه فى السماء وأن استقراره على العرش ينمحق فى حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه فلو قيل لهم ما الذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه لبادروا بأجمعهم وقالوا هذا إنما يوهم فى حق الصبيان والحمقى . أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الاضافة تشريف البيت أو معنى سواه غيرها وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علما قطعيا بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أنه مأواه ون أهذا إنما يوهم فى حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة فكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس ونفى التشبيه وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام لا يبقى معه شك .

وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد فى تأويله وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى . المثال الثانى : إذا جرى لفقيه فى كلامه لفظ الصورة بين يدى الصبى أو العامى فقال صورة هذه المسألة كذا وصورة الواقعة كذا ولقد صورت للمسألة صورة فى غاية الحسن ربما توهم الصبى أو العامى الذى لا يفهم معنى المسألة أن المسألة شىء له صورة وفى تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده أما من عرف حقيقة المسألة وأنها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبا مخصوصا فهل يتصور أن يفهم عينا وأنفا وفما كصورة الأجسام هيهات بل يكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها فكذلك معرفة نفى الجسمية عن الإله وتقدسه عنها تكون قرينة فى قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة فى قوله خلق الله آدم على صورته ويتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية كما يتعجب ممن يتوهم للمسألة صورة جسمانية . المثال الثالث : إذا قال القائل بين يدى الصبى بغداد فى يد الخليفة ربما يتوهم أن بغداد بين أصابعه وأنه قد احتوى عليها براحته كما يحتوى على حجره ومدره وكذلك كل عامى لم يفهم المراد بلفظ بغداد أما من علم أن بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور أن يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور أن يعترض على قائله ويقول لماذا قلت بغداد فى يد الخليفة وهذا يوهم خلاف الحق ويفضى إلى الجهل حتى يعتقد أن بغداد بين أصابعه بل يقال له يا سليم القلب هذا إنما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد فأما من علمه فبالضرورة يعلم أنه ما أريد بهذه اليد العضو

المشتمل على الكف والأصابع بل معنى آخر ولا يحتاج فى فهمه إلى قرينة سوى هذه المعرفة فكذلك جميع الألفاظ الموهمة فى الأخبار يكفى فى دفع إيهامها قرينة واحدة وهى معرفة الله وأنه ليس بجسم وليس من جنس الأجسام وهذا مما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيانه فى أول بعثته قبل النطق بهذه الألفاظ . المثال الرابع : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسائه « أطولكن يدا أسرعكن لحاقا بى » فكان بعض نسوته يتعرف الطول بالمساحة ووضع اليد على اليد حتى ذكر لهن أنه أراد بذلك السماحة فى الجود دون الطول العضو وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذه اللفظة مع قرينة أفهم بها إرادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه فلما نقل اللفظ مجردا عن قرينته حصل الإيهام فهل كان لأحد أن يعترض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إطلاقه لفظا جهل بعضهم معناه إنما ذلك لأنه أطلق إطلاقا مفهما فى حق الحاضرين مقرونا مثلا بذكر السخاوة والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة أو كان بحيث لا يمكن نقلها أو ظن أنه لا حاجة إلى نقلها وأن من يسمع يفهمه كما فهمه هو لما سمعه فربما لا يشعر أن فهمه إنما كان بسبب القرينة فلذلك يقتصر على نقل اللفظ فبمثل هذه الأسباب بقيت الألفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع أن قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية فى نفى الإيهام وإن كانت ربما لا تكفى فى تعيين المراد به فهذه الدقائق لابد من التنبه لها كالمثال الخامس : إذا قال القائل بين يدى الصبى ومن يقرب منه درجة ممن

لم يمارس الأحوال ولا عرف العادات فى المجالسات فلان دخل بجمها وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع الجاهل الغبي أنه جلس على رأسه أو على مكان فوق رأسه ومن عرف العادات وعلم أن ماهو أقرب إلى الصدر على فى الرتبة وأن الفوق عبارة عن العلو يفهم منه أنه جلس بجنبه لا فوق رأسه لكن جلس أقرب إلى الصدر فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام وأهل المعرفة بالعادات من حيث أنه يجهله الصبيان أو الأغبياء اعتراض باطل لا أصل له وأمثلة ذلك كثيرة فقد فهمت على القطع بهذه الأمثلة أن هذه الألفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة ورجعت تلك القرائن إلى معارف سابقة ومقترنة فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الإيهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التي بعضها هي المعارف والواحدة منها معرفتهم أنهم لم يؤمروا بعبادة الأصنام وأن من عبد جسما فقد عبد صنما كان الجسم صغيراً أو كبيراً قبيحا أو جميلا سافلا أو عاليا على الأرض أو على العرش وكان نفى الجسمية ونفى لوازمها معلوما لكافتهم على القطع باعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المبالغة فى التنزيه بقوله ليس كمثله شيء وسورة الإخلاص وقوله (ولا تجعلوا لله أندادا) وبألفاظ كثيرة لا حصر لها مع قرائن قاطعة لا يمكن حكايتها وعلم ذلك إلا علما لا ريب فيه وكان ذلك كافيا فى تعريفهم استحالة يد هي عضو مركب من لحم وعظم وكذا فى سائر الظواهر لأنها لا تدل إلا على الجسمية وعوارضها لو أطلق على جسم ولو أطلق على غير الجسم علم ضرورة أنه ما أريد به ظاهره

بل معنى آخر مما يجوز على الله تعالى ربما يتعين ذلك المعنى وربما لا يتعين
فهذا مما يزيل الاشكال فإن قيل فلم لم يذكر بألفاظ ناصة عليها بحيث
لا يوهم ظاهرها جهلا ولا فى حق العامى والصبى قلنا لأنه إنما كلم الناس
بلغة العرب وليس فى لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعانى فكيف
يكون فى اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك المعانى فكيف
وضع لها النصوص بل هى معان أدركت بنور النبوة خاصة أو بنور
العقل بعد طول البحث وذلك أيضا فى بعض تلك الأمور لا فى كلها
فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الألفاظ من موضوعات
اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة كما أنا لا نستغنى عن أن نقول صورة
هذه المسألة كذا وهى تخالف صورة المسألة الأخرى وهى مستعارة
من الصورة الجسمانية لكن واضع اللغة لما لم يضع لهيئة المسألة وخصوص
ترتيبها اسماً نصا إما لأنه لم يفهم المسألة أو فهم لكن لم تحضره أو حضرته
لكن لم يضع لها نصا خاصا اعتمادا على إمكان الاستعارة أو لأنه علم أنه
عاجز عن أن يضع لكل معنى لفظا خاصا ناصا لأن المعانى غير متناهية
العدد والموضوعات بالقطع يجب أن تتناهى فتبقى معان لا نهاية لها يجب
أن يستعار اسمها من الموضع فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات أشد
قصورا من لغة العرب فهذا وأمثاله من الضرورة يدعو إلى الاستعارة
لمن يتكلم بلغة قوم إذ لا يمكنه أن يخرج عن لغتهم كيف ونحن نجوز
الاستعارة حيث لا ضرورة اعتماداً على القرائن فانا لا نفرق بين أن
يقول القائل جلس زيد فوق عمرو وبين أن يقول جلس أقرب منه

إلى الصدر وأن بغداد فى ولاية الخليفة أو فى يده إذا كان الكلام مع العقلاء وليس فى الإمكان حفظ الألفاظ عن إفهام الصبيان والجهال فالاشتغال بالاحتراز عن ذلك ركاكة فى الكلام وسخافة فى العقل وثقل فى اللفظ. فان قيل فلم لم يكشف الغطاء عن المراد بإطلاق لفظ الاله ولم يقل إنه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا هو فى مكان ولا هو فى جهة بل الجهات كلها خالية عنه فهذا هو الحق عند قوم والإفصاح عنه كذلك كما أفصح عنه المتكلمون ممكن ولم يكن فى عبارته صلى الله عليه وسلم قصور ولا فى رغبته فى كشفه الحق فتور ولا فى معرفته نقصان قلنا من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بأن هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله وابادروا بالإنكار وقالوا هذا عين المحال ووقعوا فى التعطيل ولا خير فى المبالغة فى تنزيه ينتج التعطيل فى حق الكافة إلا الأقلين وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا للخلق إلى سعادة الآخرة رحمة للعالمين كيف ينطق بما فيه هلاك الأكثرين بل أمر أن لا يكلم الناس إلا على قدر عقولهم وقال صلى الله عليه وسلم « من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم » أو لفظ هذا معناه فإن قيل إن كان فى المبالغة فى التنزيه خوف التعطيل بالإضافة إلى البعض ففى استعماله الألفاظ الموهمة خوف التشبيه بالإضافة إلى البعض قلنا بينهما فرق من وجهين أحدهما : أن ذلك يدعو إلى التعطيل فى حق الأكثرين وهذا يعود إلى التشبيه فى حق الأقلين وأهون

الضررين أولى بالاحتمال وأعم الضررين أولى بالاجتناب . والثانى: أن علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل إذ يكفى أن يقال مع هذه الظواهر ( ليس كمثله شيء ) وأنه ليس بجسيم ولا مثل الأجسام . وأما إثبات موجود فى الاعتقاد على ماذكرناه من المبالغة فى التنزيه شديد جداً بل لا يقبله واحد من الألف لاسيما الأمة العربية فإن قيل فعجز الناس عن الفهم هل يمهد عذر الأنبياء فى أن يثبتوا فى عقائدهم أمورا على خلاف ما هى عليها ليثبت فى اعتقادهم أصل الإلهية حتى توهموا عندهم مثلا أن الله مستقر على العرش وأنه فى السماء وأنه فوقهم فوقية المكان قلنا معاذ الله أن نظن ذلك أو يتوهم بنبى صادق أن يصف الله بغير ماهو متصف به وأن يلقى ذلك فى اعتقاد الخلق فإنما تأثير قصور الخلق فى أن يذكر لهم مايطيقون فهمه ومالا يفهمونه فيكف عنه فلا يعرفهم بل يمسك عنهم وإنما ينطق به مع من يطيقه ويفهمه ويحسن فى ذلك علاج عجز الخلق وقصورهم ولا ضرورة فى تفهيمهم خلاف الحق قصدا لا سيما فى صفات الله نعم به ضرورة فى استعمال الألفاظ مستعارة ربما يغلط الأغبياء فى فهمها وذلك لقصور اللغات وضرورة المحاورات . فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدا إلى التجهيل فمحال سواء فرض فيه مصلحة أو لم تفرض فإن قيل قد جهل أهل التشبيه جهلا يستند إلى ألفاظه فى الظواهر تفضى إلى جهلهم فمهما جاء بلفظ مجمل ملبس فرضى به لم يفترق الحال بين أن يكون مجرد قصده إلى التجهيل وبين أن لا يقصد التجهيل مهما حصل التجهيل وهو عالم به وراض

قلنا لانسلم إن جهل أهل التشبيه حصل بألفاظه بل بتقصيرهم فى كسب معرفة التقديس وتقديمه على النظر فى الألفاظ ولو حصلوا تلك المعرفة أولا وقدموها لما جهلوها كما أن من حصل علم التقديس لم يجهل عند سماعه صورة المسألة وإنما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم ثم مراجعة العلماء إذا شكوا فى ذلك ثم كف النفس عن التأويل وإلزامها التقديس إذا رسم لهم العلماء فإذا لم يفعلوا جهلوا وعلم الشارع بأن الناس طباعهم الكسل والتقصير والفضول بالخوض فيما ليس من شأنهم ليس رضا بذلك ولاسعيا فى تحصيل الجهل لكنه رضا بقضاء الله وقدره فى قسمته حيث قال ( وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ) ( ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ) فهذا هو القهر الإلهى فى فطرة الخلق ولا قدرة للأنبياء فى تغيير سنته التى لا تبديل لها .

## فصــــل

لعلك تقول الكف عن السؤال والإمساك عن الجواب من أين يغنى وقد شاع فى البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبات فكيف سبيل الجواب إذا سئل عن هذه المسائل ( قلنا ) الجواب ما قاله مالك رضى الله عنه فى الاستواء إذ قال الاستواء معلوم الحديث فيذكر هذا الجواب فى كل مسألة سئل عنها العوام لينحسم سبيل الفتنة فان قيل

فاذا سئل عن الفوق واليد والأصبع فبم يجب ( قلنا ) الجواب أن يقال الحق فيه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وقال الله تعالى وقد صدق حيث قال (الرحمن على العرش استوى) فيعلم قطعاً أنه ماأراد الجلوس والاستقرار الذى هو صفة الأجسام ولا ندرى ما الذى أراده ولم نكلف معرفته وصدق حيث قال ( وهو القاهر فوق عباده ) وفوقية المكان محال فانه كان قبل المكان فهو الآن كما كان وما أراده فلسنا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول ولا يجوز إثبات اليد والأصبع مطلقا بل يجوز النطق بما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق فنقول صدق حيث قال « خمر طينة آدم بيده » وحيث قال « قلب المؤمن بين أصبع من أصابع الرحمن » فنؤمن بذلك ولا نزيد ولا ننقص وننقله كما روى ونقطع بنفى العضو المركب من اللحم والعصب وإذا قيل القرآن قديم أو مخلوق قلنا هو غير مخلوق لقوله صلى الله عليه وسلم « القرآن كلام الله غير مخلوق » فان قال الحروف قديمة أم لا قلنا الجواب فى هذه المسألة لم يذكرها الصحابة فالخوض فيها بدعة فلا تسألوا عنها فإن ابتلى الإنسان بهم فى بلدة غلبت فيها الحشوية وكفروا من لا يقول بقدم الحروف فيقول المضطر إلى الجواب إن عنيت بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم وإن أردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا يزيد عليه لأن تفهيم العوام حقيقة هذه المسألة عسر جداً فان قالوا قد قال النبي ﷺ « من قرأ حرفا من القرآن فله كذا »

فاثبت الحروف للقرآن ووصف القرآن بأنه غير مخلوق فلزم منه أن الحروف قديمة قلنا لا نزيد على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أن القرآن غير مخلوق وهذه مسألة وإن كان للقرآن حروف فهى مسألة أخرى. وأما أن الحروف قديمة فهى مسألة ثالثة ولم نزد عليه فلا نقول به ولا نزيد على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فإن زعموا أنه يلزم المسألتين السابقتين هذه المسألة قلنا هذا قياس وتفريع وقد بينا أن لا سبيل إلى القياس والتفريع بل يجب الاقتصار على ماورد من غير تفريق وكذلك إذا قالوا عربية القرآن قديمة لأنه قال القرآن قديم وقال (أنزلناه قرآنا عربيا) فالعربى قديم فنقول أما إن القرآن عربى فحق إذ نطق به القرآن وأما إن القرآن قديم فحق إذا نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم وأما أن عربية القرآن قديمة فهى مسألة ثالثة لم يرد فيها أنها قديمة فلا يلزم القول بها فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن التصرف فيه ونزمهم عن القياس والقول باللوازم بل نزيد فى التضييق على هذا ونقول إذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا لا يرخص فى أن يقول القرآن قديم مالم يرد لفظ القديم إذ فرق بين غير المخلوق والقديم إذ يقال كلام فلان غير مخلوق أى غير موضوع وقد يقال المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق إليه هذا وألا يتطرق إلى لفظ القديم فبينهما فرق ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ فان هذا اللفظ لا ينبغى أن يحرف ويبدل ويغير ويصرف بل يلزم أن يعتقد أنه حق بالمعنى الذى أراده وكل من وصف القرآن بأنه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود فقد أبدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد.

## فصـــل

فإن قيل من المسائل المعروفة قولهم إن الإيمان قديم فإذا سئلنا عنه فبم نجيب ؟ قلنا إن ملكنا زمام الأمر واستولينا على السائل منعناه عن هذا الكلام السخيف الذى لاجدوى له وقلنا إن هذا بدعة وإن كنا مغلوبين فى بلادهم فنجيب ونقول ما الذى أردت بالإيمان إنه أردت شيئا من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة وإن أردت به شيئا من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله تعالى قديمة وإن أردت ما ليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير مفهوم ولا متصور ومالا يفهم ولا يتصور ذاته كيف يفهم حكمه فى القدم والحدوث والأصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا؟ صفو مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه إلا بضرورة وسبيل المضطر ما ذكرنا فان وجدنا ذكيا مستفهما لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن المسألة وخلصناه عن الإشكال فى القرآن وقلنا ( اعلم ) أن كل شيء فله فى الوجود أربع مراتب وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البياض المكتوب عليه كالنار مثلا فانه لها وجودا فى التنور ووجودا فى الخيال والذهن وأعنى بهذا الوجود العلم بنفس النار وحقيقتها ولها وجود فى اللسان وهى الكلمة الدالة عليه أعنى لفظ النار ولها وجود فى البياض المكتوب عليه بالرقوم والإحراق صفة خاصة للنار كالقدم للقرآن ولكلام الله تعالى والمحرقة من هذه الجملة الذى فى التنور دون الذى فى الأذهان وفى اللسان وعلى البياض إذ لو كان المحرق فى البياض أو اللسان لاحترق ولكن لو قيل لنا النار

محرقة قلنا نعم فان قيل لنا كلمة النار محرقة قلنا لافان قيل حروف النار محرقة قلنا لا فان قيل مرقوم هذه الحروف على البياض محرقة قلنا لافان قيل المذكور بكلمة النار أو المكتوب بكلمة النار محرق قلنا نعم لأن المذكور والمكتوب بهذه الكلمة ما فى التنور وما فى التنور محرق فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالإحراق وصف النار وما يطلق عليه اسم القرآن وجوده على أربع مراتب أولها وهى الأصل وجوده قائما بذات الله تعالى يضاهى وجود النار فى التنور (ولله المثل الأعلى) ولكن لابد من هذه الأمثلة فى تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود والثانية وجوده العلمى فى أذهاننا عند التعلم قبل أن ننطق بلساننا ثم وجوده فى لساننا بتقطيع أصواتنا ثم وجوده فى الأوراق بالكتب فاذا سئلنا عما فى أذهاننا من علم القرآن قبل النطق به قلنا علمنا صفته وهى مخلوقة لكن المعلوم به قديم كما أن علمنا بالنار وثبوت صورتها فى خيالنا غير محرق لكن المعلوم به محرق وإن سئلنا عن صوتنا وحركة لساننا ونطقنا قلنا ذلك صفة لساننا فلساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو بعد الحادث حادث بالقطع لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروؤنا ومتلونا بهذه الأصوات الحادثة قديم كما إن ذكرنا حروف النار بلساننا كان المذكور بهذه الحروف محرقا وأصواتنا وتقطيع أصواتنا غير محرق إلا أن يقول قائل حروف النار عبارة عن نفس النار قلنا إن كان كذلك فحروف النار محرقة وحروف القرآن إن كان عبارة عن نفس المقروء فهى قديمة وكذلك المخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق

لأن المكتوب هو نفس النار أما الرقم الذى هو صورة النار غير محرق لأنه فى الأوراق من غير إحراق واحتراق فهذه أربع درجات فى الوجود تشتبه على العوام لا يمكنهم إدراك تفاصيلها وخاصة كل واحدة منهن فلذلك لا نخوض بهم فيها لا لجهلنا بحقيقة هذه الأمور وكنه تفاصيلها أن النار من حيث إنها فى التنور توصف بأنها محرقة وخامدة ومشتعلة ومن حيث انها فى اللسان يوصف بأنها عجمى و تركى وعربى وكثيرة الحروف وقليلة وما فى التنور لا ينقسم إلى العجمى والتركى والعربى وما فى اللسان لا توصف بالخمود والاشتعال وإذا كان مكتوبا على البياض يوصف بأنه أحمر وأخضر وأسود وأنه بقلم المحقق أو الثلث والرقاع أو قلم النسخ وهو فى اللسان لا يمكن أن يوصف بذلك واسم النار يطلق على مافى التنور وما فى القلب وما فى اللسان وما على القرطاس لكن باشتراك الاسم فأطلق على مافى التنور حقيقة وعلى مافى الذهن من العلم لا بالحقيقة لكن بمعنى أنه صورة محاكية للنار الحقيقى كما أن ما يرى فى المرآة يسمى إنسانا ونار إلا بالحقيقة ولكن بمعنى أنها صورة محاكية للنار الحقيقى والإنسان وما فى اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث وهو أنه دلالة دالة على ما فى الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والأول والثانى لا اختلاف فيهما ومافى القرطاس يسمى نارا بمعنى رابع وهو أنها رقوم تدل بالاصطلاح على مافى اللسان ومهما فهم اشتراك اسم القرآن والنار وكل شىء من هذه الأمور الأربعة فاذا ورد الخبر أن القرآن فى قلب العبد وأنه فى لسان

القارئ، وأنه صفة ذات الله صدق بالجميع وفهم معنى الجميع ولم يتناقض عند الأذكياء وصدق بالجميع مع الإحاطة بحقيقة المراد وهذه أمور جلية دقيقة لا أجلى منها عند الفطن الذكى ولا أدق وأغمض منها عند البليد الغبي فحق البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له قل القرآن غير مخلوق واسكت ولا تزد عليه ولا تنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث وأما الذكى فيروح عن غمة هذا الاشكال فى لحظة ويوصى بأن لا يحدث العامي به حتى لا يكلفه ما ليس فى طاقته وهكذا جميع موضع الإشكالات فى الظواهر فيها حقائق جلية لأرباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام فلا ينبغى أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة وإن لم يحرروا ألفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب لا أعنى بأكابر السلف الأكابر من حيث الجاه والاشتهار ولكن من حيث الغوص على المعانى والإطلاع على الأسرار وعند هذا ربما انقلب الأمر فى حق العوام واعتقدوا فى الأشهر أنه الأكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال.

## فصـــل

فإن قال قائل العامى إذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل ومن لم يعرف الدليل كان جاهلا بالمدلول وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته أى بالإيمان به والتصديق بوجوده أولا وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهته غيره ثانيا وبوحدانيته ثالثا وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعا وهذه الأمور ليست ضرورية

فهى إذا مطلوبة وكل علم مطلوب فلا سبيل إلى اقتناصه وتحصيله إلا بشبكة الأدلة والنظر فى الأدلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية إنتاجها وذلك لا يتم إلا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج وينجر ذلك شيئا فشيئا إلى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام إلى آخر النظر فى المعقولات وكذلك يجب على العامى أن يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به وصدقه ليس بضرورى بل هو بشر كسائر الخلق فلابدمن دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذبا ولا يمكن ذلك إلا بالنظر فى المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها إلى آخر النظر فى النبوات وهو لب علم الكلام (قلنا) الواجب على الخلق الإيمان بهذه الأمور والإيمان عبارة عن تصديق جازم لاتردد فيه ولا يشعر صاحبه بإمكان وقوع الخطأ فيه وهذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب . الأولى : وهى أقصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس وذلك هو الغاية القصوى وربما يتفق ذلك فى كل عصر لواحد أو اثنين ممن ينتهى إلى تلك الرتبة وقد يخلو العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعرفة لقلت النجاة وقل الناجون . الثانية : أن يحصل بالأدلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها ونفرة النفوس عن إبداء المراء فيها وهذا الجنس أيضا يفيد فى بعض الأمور وفى حق بعض

الناس تصديقا جازما بحيث لا يشعر صاحبه بامكان خلافه أصلا.
الثالثة : أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية أعنى القدرة التى جرت العادة باستعمالها فى المحاورات والمخاطبات الجارية فى العادات وذلك يفيد فى حق الأكثرين تصديقا ببادىء الرأى وسابق الفهم إن لم يكن الباطن مشحونا بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكك ومتجعا بتحذيق المجادلين فى العقائد وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس فمن الدليل الظاهر المفيد للتصديق قولهم لا ينتظم تدبير المنزل بمدبرين فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمماراة المجادلين يسبق من هذا الدليل إلى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق لكن لو شوشه مجادل وقال لم يبعد أن يكون العالم بين إلهين يتوافقان على التدبير ولا يختلفان فاسماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه ثم ربما يعسر حل هذا السؤال ودفعه فى حق بعض الأفهام القاصرة فيستولى الشك ويتعذر الرفع وكذلك من الجلى أن من قدر على الخلق فهو على الاعادة أقدر كما قال ( قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ) فهذا لا يسمعه أحد من العوام ذكى أو غبى إلا ويبادر إلى التصديق ويقول نعم ليست الاعادة بأعسر من الابتداء بل هى أهون ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه والدليل المستوفى هو الذى يفيد التصديق بعد تمام الأسئلة وجوابها بحيث لا يبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك الرابعة : التصديق لمجرد السماع ممن حسن الاعتقاد

فيه بسبب كثرة ثناء الخلق عليه فإن من حسن اعتقاده فى أبيه وأستاذه أو فى رجل من الأفاضل المشهورين قد يخبره عن شيء كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره فيسبق إليه اعتقاد جازم وتصديق بما أخبره عنه بحيث لا يبقى لغيره مجال فى قلبه ومستنده حسن اعتقاده فيه فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضى الله عنه إذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فكم من مصدق به جزما وقابل له قبولا مطلقا لا مستند لقوله إلا حسن اعتقاده فيه فمثله إذا لقن العامى اعتقادا وقال له أعلم أن خالق العالم واحد وأنه عالم قادر وأنه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا بادر إلى التصديق ولم يمازجه ريب ولا شك فى قوله وكذلك اعتقاد الصبيان فى آبائهم ومعلميهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها ويستمرون عليها من غير حاجة إلى دليل وحجة . الرتبة الخامسة : التصديق به الذى يسبق إليه القلب عند سماع الشيء مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق ولكن يلقى فى قلب العوام اعتقادا جازما كما إذا سمع بالتواتر مرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل من داره ثم يسمع من أحد غلمانه أنه قد مات اعتقد العامى جزما أنه مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله أن الغلام ربما قال ذلك عن إرجاف سمعه وأن الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض أو سبب آخر لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة وكم من أعرابى نظر إلى أسارير وجه رسول الله ﷺ وإلى حسن كلامه ولطف شمائله وأخلاقه

فآمن به وصدقه جزما لم يخالجه ريب من غير أن يعالجه بمعجزة يقيمها ويذكر وجه دلالتها . الرتبة السادسة : أن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر إلى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاده فى قائله ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبة مافى طباعه فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يصدق جميع ذلك بأدنى إرجاف ويستمر على اعتقاده جازما ولو أخبر بذلك فى حق صديقه أو بشىء يخالف شهوته وهواه توقف فيه أو أباه كل الإباء وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات لأن ما قبله استند إلى دليل ما وإن كان ضعيفا من قرينة أو حسن اعتقاد فى المخبر أو نوع من ذلك وهى أمارات يظنها العامى أدلة فتعمل فى حقه عمل الأدلة فإذا عرفت مراتب التصديق فاعلم أن مستند إيمان العوام فى هذه الأسباب وأعلى الدرجات فى حقه أدلة القرآن ومايجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ولا ينبغى أن يجاوز بالعامى إلى ماوراء أدلة القرآن ومافى معنـــاه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها إلى الطمأنينة والتصديق وماوراء ذلك ليس على قدر طاقته وأكثر الناس آمنوا فى الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم النكير بين أيديهم على مخالفيهم وحكايات أنواع النكال النازل بمن لا يعتقد اعتقادهم وقولهم إن فلانا اليهودى فى قبره مسخ كلبا وفلانا الرافضى انقلب خنزيرا أوحكايات منامات وأحوال هذا الجنس ينغرس فى نفوس الصبيان النفرة عنه والميل إلى ضده حتى ينزع الشك

بالـكلية عن قلبه فالتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ثم يقع نشوءه عليه ولا يزال يؤكد ذلك فى نفسه فإذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم وتصديقه المحكم الذى لايخالجه فيه ريب ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لا يبلغون إلا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم فى الباطل والحق جازمة لو قطعوا إربا إربا لما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلا لا حقيقيا ولا رسميا وكذا ترى العبيد والاماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الإسلام فإذا وقعوا فى أسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم إلى الإسلام مالوا معهم واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا بأخلاقهم كل ذلك لمجرد التقليد والتشبيه بالتابعين والطباع مجبولة على التشبيه لاسيما طباع الصبيان وأهل الشباب فبهذا يعرف أن التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الأدلة .

## فصـــل

لعلك تقول لا أنكر حصول التصديق الجازم فى قلوب العوام بهذه الأسباب ولكن ليس ذلك من المعرفة فى شىء وقد كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقادهو من جنس الجهل الذى لا يتميز فيه الباطل على الحق فالجواب أن هذا غلط ممن ذهب إليه بل سعادة الخلق فى أن يعتقدوا الشىء على ماهو عليه اعتقادا جازما لتنتقش قلوبهم بالصورة الموافقة لحقيقة الحق حتى إذا ماتوا وانكشف لهم الغطاء فشاهدوا الأمور على ما اعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار الخزى والخجلة ولا بنار جهنم ثانيا وصورة الحق إذا انتقش بها قلبه فلا نظر إلى السبب المفيد له أهو دليلى

حقيق أو رسمى أو إقناعى أو قبول بحسن الاعتقاد في قائله أو قبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس المطلوب الدليل المفيد بل الفائدة وهى حقيقة الحق على ماهى عليه فمن اعتقد حقيقة الحق فى الله وفى صفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر على ماهو عليه فهو سعيد وإن لم يكن ذلك بدليل محرر كلامى ولم يكلف الله عباده إلا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار متواترة من رسول الله ﷺ فى موارد الاعراب عليه وعرضه الإيمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم إلى رعاية الإبل والمواشى من غير تكليفه إياهم التفكر فى المعجزة ووجه دلالته والتفكر فى حدوث العالم وإثبات الصانع وفى أدلة الوحدانية وسائر الصفات بل الأكثر من إجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه بعد طول المدة بل كان الواحد منهم يحلفه ويقول آلله أرسلك رسولا فيقول والله الله أرسلنى رسولا وكان يصدقه بيمينه وينصرف ويقول الآخر إذا قدم عليه ونظر إليه والله ما هذا وجه كذاب وأمثال ذلك مما لا يحصى بل كان يسلم فى غزوة واحدة فى عصره وعصر أصحابه آلاف لا يفهم الأكثرون منهم أدلة الكلام ومن كان يفهمه يحتاج إلى أن يترك صناعته ويختلف إلى مسلم مدة مديدة ولم ينقل قط شيء من ذلك فعلم علما ضروريا أن الله تعالى لم يكلف الخلق إلا الإيمان والتصديق الجازم بما قاله كيفما حصل التصديق (نعم) لا ينكر ان للعارف درجة على المقلد ولكن المقلد فى الحق مؤمن كما أن العارف مؤمن فان قلت فبم يميز المقلدين نفسه وبين اليهود المقلد؟ قلنا المقلد

لا يعرف التقليد ولا يعرف أنه مقلد بل يعتقد فى نفسه أنه محق عارف ولا يشك فى معتقده ولا يحتاج مع نفسه إلى التمييز لقطعه بأن خصمه مبطل وهو محق ولعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وإن كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصا بها ومميزا بسببها عن خصومه فان كان اليهودى يعتقد فى نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده كما أن العارف الناظر يزعم أنه يميز نفسه عن اليهودى بالدليل واليهودى المتكلم الناظر أيضا يزعم أنه مميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لا يشكك الناظر العارف وكذلك لا يشكك المقلد القاطع ويكفيه فى الإيمان أن لا يشكله فى اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه فهل رأيت عاميا قط قداغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودى بل لا يخطر ذلك ببال العوام وإن خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا ما هذا الهذيان وكان به بين الحق والباطل مساواة حتى يحتاج إلى فرق فارق تبيينا أنه على الباطل وإنى على الحق وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعاً من غير طلب فهذه حالة المقلدين الموقنين وهذا إشكال لا يقع لليهودى المبطل لقطعه مذهبه مع نفسه فكيف يقع للمسلم المقلد الذى وافق اعتقاده ماهو الحق عند الله تعالى فظهر بهذا على القطع أن اعتقاداتهم جازمة وأن الشرع لم يكلفهم إلا ذلك ( فان قيل ) فان فرضنا عاميا مجادلا لجوجا ليس يقلد وليس يقنعه أدلة القرآن ولا الأقاويل الجليلة المفرقة السابقة إلى الافهام فماذا تصنع به؟ ( قلنا ) هذا مريض مال طبعه

عن صحة الفطرة وسلامة الخلقة الأصلية فينظر فى شمائله فان وجدنا اللجاج والجدل غالباً على طبعه لم نجادله وطهرنا وجه الأرض عنه إن كان يجاحدنا فى أصل من أصول الإيمان وإن توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول إن جاوزنا به من الكلام الظاهر إلى توفيق فى الأدلة عالجناه بما قدرنا عليه من ذلك وداوينا بالجدال المر والبرهان الحلو وبالجملة فنجتهد أن نجادله بالأحسن كما أمر الله تعالى ورخصتنا فى القدر من المداواة لا تدل على فتح باب الكلام مع الكافة فان الأدوية تستعمل فى حق المرضى وهم الأقلون وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب أن يوقى عنه الصحيح والفطرة الصحيحة الأصلية معدة لقبول الإيمان دون المجادلة وتحرير حقائق الأدلة وليس الضرر فى استعمال الدواء مع الأصحاء بأقل من الضرر فى إهمال المداواة مع المرضى فليوضع كل شىء موضعه كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) والمدعو بالحكمة إلى الحق قوم وبالموعظة الحسنة قوم آخرون وبالمجادلة الحسنة قوم آخرون على ما فصلنا أقسامهم فى كتاب القسطاس المستقيم فلا يطول باعادته .

# المضنون به على غير أهله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على موجب ما هدانا إلى حمده ووفقنا للقيام بشكره والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من انتسب إلى آدم عليه السلام وعلى صحبه الأخيار. اعلم أن لكل صناعة أهلا يعرف قدرها ومن أهدى نفائس صناعة إلى غير أربابها فقد ظلمها وهذا علق نفيس مضنون به على غير أهله فمن صانه عمن لا يعرف قدره فقد قضى حقه أكرمت بهذا العلق على سبيل التهادى أخى وعزيز أحمد صانه الله عن الركون إلى دار الغرور وأهله لمعرفة بعض حقائق الأشياء التى كانت معرفة جميعها مطلوبة لسيد ولد آدم عليه السلام حيث قال أرنا الأشياء كما هى وهذا العلق المضنون به على غير أهله يشتمل على أربعة أركان (الركن الأول) فى معرفة الربوبية (الركن الثانى) فى معرفة الملائكة (الركن الثالث) فى حقائق المعجزات (الركن الرابع) فى معرفة ما بعد الموت والانتقال من الدنيا إلى العقبى وفقنا الله تعالى لما يرضى ويحب فانه خير موفق ومعين وإليه المرجع والمصير.

## (الركن الأول فى علم الربوبية)

### فصـــل

الزمان لا يكون محدودا وخلق الزمان فى الزمان أمر محال فاليوم هو السكون الحادث فى اللغة وأيام الله حيث قال (وذكرهم بأيام الله) مراتب مخلوقاته ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه منها : قوله فى أربعة أيام فيوم مادة السماء ويوم صورتها ويوم كوا كبها ويوم نفوسها وقوله (خلق الأرض فى يومين) المادة والصورة ومادة السموات ومادة زوجها صورة واحدة ومادة الأرض مادة مشتركة بين أزواج وفحول وهى أخس لأنها مثل مومسة تقبل كل نا كح . ومنها : الجماد والمعدنيات داخلة فى الجماد والنبات والحيوانات العجم والإنسان . ومنها: الأرض والماء والهواء والنار والآثار العلوية والأجرام السماوية وكل ماهو فوق الأرض فهو سماء من طريق اللغة لأن أهل اللغة تقول كل ماعلاك فهو سماؤك وكل مادون الفلك يعنى فلك القمر بالنسبة إلى الأفلاك أرض لقوله (ومن الأرض مثلهن) (الأولى) كرة النار (والثانية) كرة الهواء (والثالثة) كرة الطين المجفف الذى فوق الماء (والرابعة) الماء (والخامسة) الأرض البسيطة (والسادسة) الممتزجات من هذه الأشيا (والسابعة) الآثار العلوية .

(فصل فليرتقوا فى الأسباب) الارتقاء: صعود الأخس إلى الأشرف حتى ينتهى إلى واجب الوجود كما قال (تعالى وأن إلى ربك المنتهى) وقوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) وقوله

تعالى (إن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) الأول انطباق فلك البروج على معدل النهار والفتق بعد الرتق ظهور الليل .

## فصل فى الرزق مقدر مضمون

وهو من المعقولات لا من المنقولات لأن الحق تعالى عقل ذاته وما توجبه ذاته فهو قد عقل جميع الموجودات وإن كان بالقصد الثانى وإنما يوجب وجود كل واحد منها أعنى من الموجودات المبدعات على ماوجد لأنه سبحانه وتعالى يعقل وجود الكل من ذاته فكما أن تعقله ذاته لا يجوز أن يتغير كذلك تعقله لكل ما توجبه ذاته ولكل مايعقل وجوده من ذاته لا يتغير بل يجب وجود كل ذلك ووجود أنواع الحيوانات وبقاؤها متعقل لا شك فيه خصوصا النوع الإنسانى والنوع إنما يبقى مستحفظا بالأشخاص وبلوغ كل شخص إلى الغاية التى يمكن أن يولد شخصا آخر مثله لا يمكن إلا ببقائه مدة وبقاؤه تلك المدة لا يصح إلا بما فيه قوام الحياة وقوام الحياة بالرزق لأنه تعالى يعقل وجود الكل من ذاته ووجود مايعقله من ذاته واجب وتعقل بقاء النوع الإنسانى ببقاء الأشخاص وتناسلهم وتعقل تناسلهم ببقاء كل شخص وتعقل بقاء كل شخص مدة بما فيه قوام حياته وهو الرزق والرزق إنما يكون من النبات والحيوان وهما الخبز واللحم والفواكه من جملة النبات وأكثر الحلاوى فوجب أن يكون الرزق مضمونا بتقدير الرءوف الرحيم لذلك قال تعالى ( وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)

## فصل

من لا يعرف حقيقة الرؤيا لا يعرف حقائق أقسام الرؤيا ومن لا يعرف حقيقة رؤيا الرسول عليه السلام وسائر الرسل بل رؤيا الذين ماتوا لا يعرف رؤيا الله تعالى فى المنام والعامى يتصور أن من رأى رسول الله فى المنام فقد رأى حقيقة شخصه وكما أن المعنى الذى وقع فى النفس حاكى الخيال عنه بلفظ فكذلك كل نقش ارتسم فى النفس يمثل الخيال له صورة ولا أدرى أنه كيف يتصور رؤية شخص الرسول فى المنام وشخصه مودع فى روضة المدينة وما شق القبر وما خرج إلى موضع يراه النائم ولئن سلمنا ذلك فربما يراه فى ليلة واحدة ألف نائم فى ألف موضع على صور مختلفة والوهم يساعد العقل فى أنه لا يمكن تصور شخص واحد فى حالة واحدة فى مكانين ولا على صورتين طويل وربع وشاب وكهل وشيخ ومن لا تحيط معرفته بفساد هذا التصور فقد قنع من غريزة العقل بالاسم والرسم دون الحقيقة والمعنى ولا ينبغى أن يعاتب بل لا ينبغى أن يخاطب فلعله يقول مايراه مثاله لاشخصه ويقال هو مثال شخصه أو مثال حقيقة روحه المقدسة عن الصورة والشكل فإن قال هو مثال شخصه الذى هو عظمه ولحمه فأى حاجة إلى شخصه وشخصه فى نفسه متخيل ومحسوس ثم من رأى شخصه بعد الموت دون الروح فكأنه ما رأى النبى بل رأى جسما كان يتحرك بتحريك النبى عليه الصلاة والسلام فكيف يكون رائيا له برؤية مثال شخصه بل الحق أنه مثال روحه المقدسة التى هى محل النبوة فما رآه من الشكل

ليس هو روح النبي وجوهره ولا شخصه بل مثاله على التحقيق (فإن قيل) فأى معنى لقوله عليه الصلاة والسلام «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى» (قلنا) لا معنى له إلا أن مارآه مثال واسطة بين النبي وبينه من تعريف الحق إياه فكما أن جوهر النبوة أعنى الروح المقدسة الباقية من النبي بعد وفاته منزهة عن اللون والشكل والصورة ولكن تنتهى تعريفاته إلى الأمة بواسطة مثال صادق ذى شكل ولون وصورة وإذا كان جوهر النبوة منزها عن ذلك فكذلك ذات الله منزه عن الشكل والصورة ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره من الصورة الجميلة التى تصلح أن تكون مثالا للجمال المعنوى الحقيقى الذى لا صورة له ولا لون ويكون ذلك المثال صادقا وحقا وواسطة فى التعريف فيقول النائم رأيت الله تعالى فى المنام لا بمعنى أنى رأيت ذاته كما يقول رأيت النبي لا بمعنى أنه رأى ذات النبي وروحه أوذات شخصه بل بمعنى أنه رأى مثاله (فان قيل) إن النبي له مثل والله تعالى لامثل له (قلنا) هذا جهل بالفرق بين المثل والمثال فليس المثال عبارة عن المثل فالمثل عبارة عن المساوى فى جميع الصفات والمثال لا يحتاج فيه إلى المساواة فإن للعقل معنى لا يماثله غيره (ولنا) أن نصور الشمس له مثالا لما بينهما من المناسبة فى شىء واحد وهو أن المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل فهذا القدر من المناسبة كاف فى المثال بل السلطان يمثل فى النوم بالشمس والقمر بالوزير والسلطان لا يماثل

الشمس بصورته ولا بمعناه ولا الوزير يماثل القمر إلا أن السلطان له استعلاء على الكافة ويعم أثره الجميع والشمس تناسبه فى هذا القدر والقمر واسطة بين الشمس والأرض فى إفاضة أثر النور كما أن الوزير واسطة بين السلطان والرعية فى إفاضة أثر العدل فهذا مثال وليس بمثل والله تعالى قال ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) فأى مماثلة بين نوره وبين الزجاجة والمشكاة والشجرة والزيت قال الله تعالى ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا - الآية) ذكر ذلك تمثيلا للقرآن والقرآن صفة قديمة لا مثل له فكيف صار الماء له مثالا وكم من المنامات عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من رؤيا لبن أو حبل فقال اللبن هو الإسلام والحبل هو القرآن إلى أمثال له لا تحصى وأى مماثلة بين اللبن والإسلام والحبل والقرآن إلا فى مناسبة وهو أن الحبل يتمسك به للنجاة والقرآن كذلك واللبن غذاء تغذى به الحياة الظاهرة والإسلام غذاء تغذى به الحياة الباطنة فهذا كله مثال وليس بمثل بل هذه الأشياء لا مثل لها والله تعالى لامثل له لكن له أمثلة محاكية لمناسبات معقولة من صفات الله تعالى فإنا إذا عرفنا المسترشد أن الله تعالى كيف يخلق الأشياء وكيف يعلمها وكيف يريدها وكيف يتكلم وكيف يقوم الكلام بنفسه مثلنا جميع ذلك بالإنسان ولولا أن الإنسان عرف من نفسه هذه الصفات لما فهم مثاله فى حق الله تعالى فالمثال فى حق الله تعالى جائز والمثل باطل فان المثال هو ما يوضح الشىء والمثل مايشابه

الشيء ( فإن قيل ) هذا التحقيق الذى ذكرتموه ليس يفضى إلى أن الله تعالى يرى فى المنام بل إلى أن الرسول أيضا لا يرى فان المرئى مثاله لا عينه فقوله «من رآنى فى المنام فقد رآنى» فهو نوع تجوز معناه كأنه رآنى وما سمع من المثال كأنه سمع منى (قلنا) وهذا ما يريده القائل بقوله رأيت الله تعالى فى المنام لا غير إما أن يريد به أنه رأى ذاته على ماهو عليه فلا فانه حصل الاتفاق على أن ذات الله تعالى لا ترى وأن مثالا يعتقده النائم ذات الله تعالى أو ذات النبي يجوز أن يرى وكيف ينكر ذلك مع وجوده فى المنامات فان لم يره بنفسه فقد تواتر إليه من جماعة أنهم رأوا ذلك إلا أن المثال المعتقد قد يكون صادقا وقد يكون كاذبا ومعنى الصادق أن الله تعالى جعل رؤياه واسطة بين الرائى وبين النبي فى تعريف بعض الأمور وفى قدرة الله تعالى خلق مثل هذه الواسطة بين العبد وبين اتصال الحق به وهو موجود فكيف يمكن إنكاره ( فان قيل ) إذا كانت رؤية الرسول تجوزا فالتجوز مما قد أذن فى إطلاقه فى حقه ولا يجوز فى حق الله تعالى من الإطلاقات إلا ما ورد الاذن به (قلنا) قد ورد الاذن باطلاق ذلك فان رسول الله ﷺ قال «رأيت ربى فى أحسن صورة» وهذا مما أورد فى الأخبار التى وردت فى إثبات الصورة لله تعالى حيث قال «إن الله خلق آدم على صورته» وليس المراد به صورة الذات إذ الذات لا صورة لها إلا من حيث التجلى بالمثال كما تجلى جبريل فى صورة دحية الكلبى وفى غيرها من الصور حتى انه رآه مرارا كثيرة وما رآه فى صورته الحقيقية إلا مرة أو مرتين وتمثل

جبريل فى صورة دحية الكلبي ليس بمعنى أنه انقلب ذات جبريل صورة دحية الكلبي بل انه ظهرت تلك الصورة للرسول مثالا مؤديا عن جبريل ما أوحى إليه وكذلك قوله تعالى (فتمثل لها بشراً سويا) وإذا لم يكن ذلك استحالة فى ذات الملك وانقلابا بل يبقى جبريل على حقيقته وصفته وإن ظهر للنبي فى صورة دحية الكلبي فلا يستحيل مثل ذلك فى حق الله تعالى فى يقظة ولا فى منام فهذا ما يدل من جهة الخبر على جواز إطلاقه وقد ورد عن السلف إطلاق ذلك ونقلت فيه آثار وأخبار ولولم يرد فيه إطلاق لكنا نقول يجوز إطلاق كل لفظة فى حق الله تعالى صادقة لا منع منه ولا تحريم إذا كان لا يوهم الخطأ عند المستمع وهذا لا يوهم رؤية الذات عند الأكثرين لكثرة تداول الألسنة له فان فرض شخص توهم عنده خلاف الحق فلا ينبغى أن يطلق معه القول بل يفسر له معناه كما يجوز أن تقول إنا نحب الله تعالى أو نشتاق إليه ونريد لقاءه وقد سبق إلى فهم قوم من هذه الاطلاقات خيالات فاسدة والأكثرون يفهمون معناه على وجهه من غير خيال فاسد ويراعى فى هذه الإطلاقات حال خيال المخاطب فيجوز الإطلاق من غير كشف ولا تفسير حيث لا إيهام ويجب الكشف عند الإيهام وعلى الجملة هذا يرد الخلاف إلى إطلاق اللفظ وجوازه بعد حصول الاتفاق على لفظ المعنى من أن ذات الله تعالى مرئية وأن المرئى مثال وظن من ظن استحالة المثال فى حق الله تعالى خطأ بل نضرب لله تعالى ولصفاته الأمثال وننزهه عن المثل ولا ننزهه عن المثال وله المثل الأعلى.

## فصــــل

قوله تعالى (قل هو الله أحد) . فرق بين الواحد والأحد قال الله تعالى (وإلهكم إله واحد ) فيقال الإنسان شخص واحد وصنف واحد والمراد به أنه جملة هي جملة واحدة ويقال ألف واحد فالواحد المشار إليه من طريق العقل والحس هو الذي يمتنع مفهومه عن وقوع الشركة فيه والأحد هو الذي لا تركيب فيه ولا جزء له بوجه من الوجوه فالواحد نفي الشريك والمثل والأحد نفي الكثرة في ذاته وقوله تعالى (الله الصمد) الصمد الغني المحتاج إليه غيره وهذا دليل على أن الله تعالى إحدى الذات وواحد لأنه لو كان له شريك في ملكه لما كان صمدا غنيا يحتاج إليه غيره بل كان هو أيضا يحتاج إلى شريكه في المشاركة أو التثنية ولو كان له أجزاء تركيب واحد لما كان صمدا يحتاج إليه غيره بل هو محتاج في قوامه ووجوده إلى أجزاء تركيبه وحــــده فالصمدية دليل على الواحدية والأحدية ولم يلد دليل على أن وجوده المستمر ليس مثل وجود الإنسان الذي يبقى نوعه بالتوالد والتناسل بل هو وجود مستمر أزلي وأبدي ولم يولد دليل على أن وجوده ليس مثل وجود الإنسان الذي يحصل بعد العدم ويبقى دائما إما في جنة عالية لا تفنى وإما في هاوية لا تنقطع ولم يكن له كفوا أحد دليل عــــلى أن الوجود الحقيقي الذي له تبارك وتعالى وهو الوجود الذي يفيد وجود غيره ولا يستفيد الوجود من غيره ليس إلا له تبارك وتعالى (فقوله قل هو الله أحد ) دليل على إثبات ذاته المنزه المقدس والصمدية نفي وإضافة نفي الحاجة عنه واحتياج غيره إليه والأحدية ولم يلد إلى آخر السورة

سلب ما يوصف به غيره تعالى عنه فلا طريق فى معرفة ذات الله تعالى أبين وأوضح من سلب صفات المخلوقات عنه .

فصـــل

يتخيل بعض الناس كثرة فى ذات الله تعالى من طريق تعدد الصفات وقد صحح قول من قال فى الصفات لا هو ولا غيره وهذا التخيل يقع من توهم التغاير ولا تغاير فى الصفات مثال ذلك أن إنسانا يعلم صورة الكتابة وله علم بصورة بسم الله التى تظهر تلك الصورة على القرطاس وهذه صفة واحدة وكمالها أن يكون المعلوم تبعا لها فإنه إذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس بلا حركة يد وواسطة قلم ومداد فهذه الصفة من حيث إن المعلوم انكشف بها يقال لها علم ومن حيث إن الألفاظ تدل عليها يقال لها القدرة كلام فإن الكلام عبارة عن مدلول العبارات ومن حيث إن وجود المعلوم تبع لها يقال لها القدرة ولا تغاير ههنا بين العلم والقدرة والكلام فان هذه صفة واحدة فى نفسها ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة وكل من كان أعور ينظر بالعين العوراء فلا يرى إلا مطلق الصفة فيقول هو هو وإذا التفت إلى الاعتبارات الثلاث فقال هى غيره ومن اعتبر مطلق الصفة مع الاعتبارات فقد نظر بعينين صحيحتين اعتقد أنها لا هو ولا غيره والكلام فى صفات الله تعالى وإن كان مناسبا لهذا المثال فهو مباين له بوجه آخر وتفهيم هذه المعانى بالكتابة عسير غير يسير وأما الوهم الذى وقع لبعض الناس أن المثال فى حق أوصاف الله تعالى لا يجوز فيدفعه أن ذلك المتوهم لم يميز بين المثل والمثال فإن المثال يحتاج إليه كما

ذكرناه فى أن يسترق للمعنى المعقول من الصور المحسوســـة صورة توضحه وتوصل ذلك المعنى المعقول إلى فهم المستفيد وأما المحسوس فلا يحتاج إلى مثال لأن المحسوس بعينه مندرج فى الخيال ألا ترى أن من رأى المقدحة والزند والنار تحصل بينهما لا يحتاج إلى مثال لهذه الأشياء ولكن المعقول المحض الذى لا يندرج فى الخيال ولا يضبطه الخيال فإنه يحتاج إلى الاستعانة بالخيال حتى يصل إلى فهم الضعفاء وليس لله تعالى مثل كما قال (ليس كمثله شىء) ولكن له مثال وقول النبى عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» إشارة إلى هذا المثال فإنه لما كان تعالى وتقدس موجودا قائما بنفسه حيا سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما فالإنسان كذلك ولولم يكن الإنسان بهذه الأوصاف موصوفا لم يعرف الله تعالى ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فان كل مالم يجدالإنسان له من نفسه مثالا يعسر عليه التصديق به والإقرار وقد أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيها الإنسان اعرف نفسك تعرف ربك ولذلك لا يحيط علم الإنسان بأخص وصف الله تعالى لأنه ليس فى المبدعات والمخلوقات مثال وأنموذج من ذلك الوصف الخاص وكذلك الاسم للوصف الخاص الذى له تعالى لأن الإنسان إنما يسمى الشىء بعد معرفته إياه وإذا لم يكن للانسان إليه طريق وأنموذج فلا علم له به ولا اسم له عنده ولا علامة فكيف يعرفه فلذلك لا يعرف الله إلا الله أعنى أخص وصفه وكنه معرفته فمن قال إن الإنسان حى

عالم قادر سميع بصير متكلم والله تعالى كذلك لا يكون هذا القائل مشبها فان التشبيه إثبات المشاركة فى الوصف الأخص ومن قال إن السواد عرض موجود وهو لون والبياض عرض موجود وهو لون لا يكون مشبها السواد بالبياض فان الاشتراك فى اللونية والعرضية والوجودية لا يكون تشبيها بينهما فإن هذه أوصاف تعمها والموجودات كلها مشتركة فى الوجود العام ولا تماثل بينها ولذلك لا تماثل بين السواد والبياض مع اشتراكهما فى اللونية والعرضية والوجودية فالمثال فى حق الله سائغ جائز والمثل مستحيل فإنا نقول الله تعالى مدبر متصرف فى العالم. وليس فى العالم مثال ذلك أن أصبع الإنسان يتحرك ويحركه علمه وإرادته وليس فيها العلم والإرادة فيقع التفهيم بسبب ذلك وتصور الضعيف إنه كيف يكون مدبر فاعل فى شيء غير مجاور له ولا حال فيه .

فصـــل

تكليف الله تعالى عباده لا يضاهى تكليف الإنسان عبده الأعمال التى يرتبط بها غرضه وما لا حظ له فيه وما لا يحتاج إليه فلا يكلفه به وتكليف الله تعالى عباده يجرى مجرى تكليف الطبيب المريض فإذا غلبت عليه الحرارة أمره بشرب المبردات والطبيب غنى عن شربه لا يضره مخالفته ولا ينفعه موافقته ولكن الضر والنفع يرجعان إلى المريض وإنما الطبيب هاد ومرشد فقط . فإن وفق المريض حتى وافق الطبيب شفى وتخلص وإن لم يوفق فخالفه تمادى به المرض وهلك وبقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه وفنائه فكما أن الله تعالى خلق للشفاء سببا مفضيا إليه كذلك خلق للسعادة سببا وهو الطاعات ونهى النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الأخلاق منجيات

ورذائل الأخلاق فى الآخرة مهلكات كما أن رذائل الأخلاط ممرضات فى الدنيا ومهلكات والمعاصى بالإضافة إلى حياة الآخرة كالسموم بالإضافة إلى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للأجساد طبا والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء النفوس يرشدون الخلق إلى طريق الفلاح بتمهيد الطريق المزكية للقلوب كما قال الله تعالى ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) ثم يقال إن الطبيب أمره بكذا ونهاه عن كذا وأنه زاد مرضه لأنه خالف الطبيب وأنه صح لأنه راعى قانون الطبيب ولم يقصر فى الاحتماء وبالحقيقة لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لأنه سلك غير طريق الصحة التى أمره الطبيب بها فكذلك التقوى هى الاحتماء الذى ينفى عن القلوب أمراضها وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الأجساد حياة الدنيا والمثال الآخر أن ملكا من ملوك الناس يمد بعض عبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه تلقاءه لينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميم العزم على أن لا يستخدمه أصلا ثم إن العبد إن ضيع المركوب وأهلكه وأنفق المال لا فى زاد الطريق كان كافرا للنعمة وإن ركب المركوب وأنفق المال فى الطريق متزودا به كان شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه أنال الملك حظا فانه لم يرد فى الانعام عليه وفى تكليفه الحضور حظا لنفسه ولكن أراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وإن خالف عدت مخالفته كفرانا والله تعالى يستوى عنده كفر الكافرين وإيمانهم

بالإضافة إلى جلاله واستغنائه ولكنه لا يرضى لعباده الكفر فانه
لا يصلح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الطبيب هلاك المرضى ويعالجهم
ولا يرضى الملك المستغنى عن عبده لعبده الشقاوة بالبعد عنه ويريد له
السعادة بالقرب منه وهو غنى عنه قرب أو بعد فهكذا ينبغى أن يفهم
أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصى سموم وتأثيرها فى القلوب
ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم كما لا تسعد الصحة إلا من أتى
بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك
وما ينفعك فان وافقتنى فلنفسك وإن خالفت فعليها كذلك قال الله
تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) وقوله
(من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وأما العقاب على ترك الأمر
وارتكاب النهى فليس العقاب من الله تعالى غضبا وانتقاما ومثال
ذلك أن من غادر الوقاع عاقبه الله تعالى بعدم الولد ومن ترك ارضاع
الطفل عاقبه بهلاك الولد ومن ترك الأكل والشرب عاقبه بالجوع
والعطش ومن ترك تناول الأدوية عاقبه بألم المرض وغضب الله
تعالى على عباده غير إرادته الإيلام كما أن الأسباب والمسببات يتأدى
بعضها إلى بعض فى الدنيا بترتيب مسبب الأسباب فبعضها يفضى إلى
الآلام وبعضها إلى اللذات ولا يعرف عواقبها إلا الأنبياء فكذلك
نسبة الطاعات والمعاصى إلى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق فالسؤال
عن أنه لم تفضى المعصية إلى العقاب كالسؤال فى أنه لم يهلك الحيوان
عن السم ولم يؤدى السم إلى الهلاك ولم خلق جسد الإنسان على وجه

يفعل فيه السم أثرا وينفعل البدن عنه وهو لا ينفعل عن البدن فكذلك الكلام فى أنه لم خلق الله تعالى نفس الإنسان على وجه تكملها وتنجيها الفضائل وتهلكها الرذائل هذا والله تعالى غير عاجز عن الاشباع من غير أكل والأدواء من غير شرب والإنشاء من غير مصاحبة وقاع والانماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الأسباب والمسببات ولذلك سر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون فى العلم وليس هذا بعجب وإنما العجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمرى أن من لا يهتدى إلى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ولو كان كذلك لضاع حظ النبات والحيوانات التى هى ألطف الحيوانات وأقربها إلى الاعتدال مثل الغنم والنعاج والقباج والدجاج وغيرها وكمال النبات أن يصير غذاء لما هو أعلى منه بالرتبة وهو الحيوان ولذلك يقوم بدل مايتحلل منه فيصير جزءمنه متشبها به وهذا كماله وكذلك نسبة الحيوانات المذبوحة إلى الإنسان ونسبة الانسان إلى الملائكة فى جنات عدن كما قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) وأما كون بعض الحيوانات العجم غذاء لبعض السباع الضارية فنى السباع الضوارى فوائد ومنافع سياسية وطبية يعرفها أرباب السياسة والأطباء ومثال من يتعجب من وضع هذه الأشياء على ترتيب النظام الكلى على موجب تقدير العزيز الحكيم كمثل الأعمى الذى دخل دارا فتعثر بالأوانى الموضوعة فى صحن الدار فقال لأهل الدار ما الذى أزال عقولكم لماذا لا تردون هذه الأوانى إلى مواضعها ولم تركتموها على الطريق؟

فقيل له إنها موضوعة فى مواضعها وإنما الخلل من فقد البصر وكمثل الأخشم الذى لا يدرك الروائح فيلوم واضع اللخالخ والمثلثات والفواكه العطرة الطيبة بين يديه فقال هذا قد شغل المكان فقط فقيل له فى العودة فائدة سوى اتخاذه على جهة الحطب وإنما المانع من إدراكه هو الخشم وههنا مباحثة أخرى منها أن الله تعالى كيف يأمر بالشىء ويمنع من البحث عنه والبصيرة لا تحصل إلا بالبحث عنه وهذا تعجب فاسد فان العمل يستـــدعى اعتقادا جازما أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يعرف بالتقليد المجرد على سبيل التصديق والإيمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول إليها بالبحث ولم يمنع عن البحث الخلائق كلهم بل الضعفاء العاجزون عن الاطلاع على حقائق البرهان ومعضلات البحث ومثال ذلك الطبيب الذى يأمر العليل بشرب الدواء ويمنعه عن البحث عن سبب كون هذا الدواء شافيا فانه يقصر عنه فهمه ويشق عليه ويعجز عنه ويزداد المرض ويستضر به فانه وجد على سبيل الندور مريضا ذكيا سالكا منهاج الطب وعلل الأمراض لم يمنعه من البحث ولم يمنعه عن ذكر المناسبة بين دوائه وبين مرضه بل إذا علم أنه ليس يؤمن بمجرد قوله وليس يقلد محض التقليد لما خص به من الذكاء وما يفهم من أسباب العلة وعلم أنه إذا فهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وإن لم يكن يفهم أعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ولم يمنع من البحث إذا علم استقلاله به إلا أن ذلك نادر فى المرضى جدا والأكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والأسرار والبحث

عنها فى الشرعيات من هذا القبيل وأما تسخير البهائم للانسان مثل من
يمشي خطوات مثلا ينظر إلى متنزهات ووجوه حسان فيقال له كيف
أتعب رجله وسخرها لأجل عينيه والعين آلته كما أن الرجل آلته فما
باله جعل إحداهما خادمة وأتعبها وجعل الأخرى مخدومة وطلب
راحتها وهذا جهل بالأقدار والمراتب بل العاقل يعلم أن الكامل أبداً
يفدى بالناقص وأن الناقص يستسخر لأجل الكامل وهو عين الحكمة
وليس ذلك بظلم فان الظلم هو التصرف فى ملك الغير والله تعالى
لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه ظلم
بل له أن يفعل ما يشاء فى ملكه ويكون عادلا والوحى الالهى والشرع
الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل فإن أراد بنبو العقل أن برهان العقل
يدل على استحالته كخلق الله تعالى مثل نفسه أو الجمع بين المتضادين فهذا
مالا يرد الشرع به وإن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه ولا يستقل
بالإحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال أن يكون فى علم الأطباء مثلا جلب
المغناطيس للحديد وأن المرأة لو مشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين
وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى أنه لا يقف على
حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه فلا ينبو عنه الحكم باستحالته
وليس كل مالا يدركه العقل محالا فى نفسه بل لو لم نشاهد قط النار
وإخراجها فأخبرنا مخبر وقال إنى أصك خشبة بخشبة وأستخرج من
بينهما شيئا أحمر بمقدار عدسة فتأكل هذه البلدة وأهليها حتى لا يبقى
منهم شىء من غير أن ينتقل ذلك إلى جوفها ومن غير أن يزيد فى حجمها

بل تأكل نفسها فلا تبقى هى ولا البلد لكنا نقول هذا الشيء ينبو عنه العقل ولا يقبله وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك وكذلك قد يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التى ليست مستحيلة وإنما هى مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فإن البعيد هو ما ليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه وأما معنى قول الله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وقوله تعالى (لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام يقال ناظر فلان فلانا وتوجه عليه سؤاله وقد يطلق ويراد به الاستخبار كما يسأل التلميذ أستاذه والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله (لا يسأل عما يفعل) إذلا يقال له لم قول إلزام فاما أن لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله (لم حشرتنى أعمى) وهذا القدر كاف فى جواب هذه الأسئلة ومن ترقى عن محل التقليد بأدنى كياسة ولم ينته إلى رتبة الاستقلال كان من الهالكين فنعوذ بالله من كياسة لا تنفع فان الجهالة أدنى إلى الخلاص والنجاة منها شعر :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا　　كنقص القادرين على التمام

## فصل

إذا عرفت أنك حادث وأن الحادث لا يستغنى عن محدثه فقد حصل لك البرهان على الإيمان بالله وما أقرب إلى العقل من هاتين المعرفتين أعنى أنك حادث وأن الحادث لا يحدث بنفسه وإذا عرفت نفسك وأنك جوهر خاصيتك معرفة الله ومعرفة ما ليس بمحسوس وليس البدن من قوام ذاتك فانهدام البدن لا يعدمك فقد

عرفت اليوم الآخر بالبرهان فانه لا معنى له إلا أن لك يومين يوم حاضر أنت فيه مشغول بهذا البدن ويوم آخر أنت فيه مفارق لهذا الجسد وإذا لم يكن قوامك بالجسد وقد فارقته بالموت فقد حصل اليوم الآخر وإذا عرفت أنك إذا فارقت المحسوسات بمفارقة الجسد تلقيت إما نعمة هي معرفة الله تعالى التي هي خاصية ذاتك ومنتهى لذاتك بمقتضى طبعك الأصلي لو لم تمرض بالميل إلى الشهوات وإما عذابا بالحجاب عن الله تعالى الذي هو منتهى شهوتك من حيث الطبع الأصلي كما قال الله تعالى (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) وعرفت أن سبب المعرفة الذكر والفكر والإعراض عن غير الله تعالى وسبب المرض المانع عن ذكر الله ومعرفته الإقبال على الشهوات والحرص على الدنيا وعرفت أن الله تعالى قادر على أن يعرف عموم عباده ذلك بواسطة الكشف لبعض خواص عباده وعرفت أنه قد فعل ذلك فقد عرفت رسله بالبرهان وآمنت وإذا عرفت أن هذه التعريفات للأنبياء إنما تكون في كسوة ألفاظ وعبارات توحى إليهم وتلقى في سمعهم إما في يقظة أو في منام فقد آمنت بالكتب وإذا عرفت أن أفعال الله تعالى منقسمة إلى ما فعله بواسطة وإلى ما فعله بغير واسطة وأن وسائطه مختلفة المراتب فالوسائط القريبة هم المقربون وعنهم يعبر بالملائكة لكن معرفة هذا بطريق البرهان عسير والقول فيه طويل فصدق الرسل في أخبارهم عنهم بعد أن عرفت صدق الرسل بالبرهان واكتف بذلك فانه درجة من درجات الإيمان يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات .

## فصل

كل ما يتوالد فلا يستحيل أن يتولد أصلا وما يتولد

لايستحيل أن يتوالد فقوله تعالى(إنا خلقنا الإنسان من نطفة)إنما عنى به الإنسان التوالدى ، وقوله ( خلقناكم من تراب ) عنى به الإنسان التولدى وقد تتولد العقارب من الباذروج ولباب الخبز والحيات من العسل والنحل من العجل المنخنق المنكسرة عظامه والبق من الخل وسام أبرص من القرنبيط والخنافس من البعرة ومن نوى النبق العقرب الجرارة ومن الشعر الحيات ومن الطين والمدر الفأر ومن طين أصول القصب الدائم الرطوبة الطير ولا سيما طير الماء وأمثال ذلك كما ذكر فى كتب الطلسمات وغيرها ثم يتوالد هذا المتولد ويبقى نوعه بالتوالد وانطباق دائرة معدل النهار على فلك البروج مما يدل على خراب العالم السفلى وتغييره للفصول أعنى الربيع والصيف والخريف والشتاء فلا يبقى الحرث والنسل كما قال تعالى(كل من عليها فان)يعنى على الأرض فخلق الله تعالى آدم من تراب ثم حصل منه التوالد ونظير ذلك مشاهد وكذا الصنائع والحرف تحصل من طريق الإلهام ثم تستفاد وتتعلم وتحصل النار من المقدحة والزند ثم تقتبس بعد حصولها ذلك تقدير العزيز العليم الذى خلق عند انفراج الدائرتين معدل النهار وفلك البروج الذى يتزايد الميل الذى خلق بينهما آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه فمن شك فى كيفية بدء الخلق ووضع الصانع الحكيم فى التوالد والتولد فلينظر إلى المحسوسات التى ذكرناها وأما النشأة الأخرى وكيفية عود النفوس والأرواح إلى أشباحها فمذكورة فى بابها .

## فصل

المبدعات والمخلوقات أحدثها الله تعالى بالترتيب فهو الأول الذى لا أول قبله ومنه تحصل المبدعات بل الممكنات بأسرها ثم ينزل الترتيب من الاشرف فالاشرف حتى ينتهى إلى المادة التى هى أخس الأشياء ثم ابتدأ تعالى من الأخس عائدا إلى الأشرف حتى انتهى إلى الإنسان ويعود الإنسان عند زكاء نفسه إلى حيث قال (ارجعى إلى ربك راضية مرضية) ولذلك قال (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) أما الظاهر فركوز فى غرائز العقول أن للكل مبدأ وأن للحادث محدثا وللممكن موجدا واجبا وأما الباطن فلأن وصفه الخاص لا يعرفه إلا هو وربما كان باطنا لغاية ظهوره كما أن الشمس التى هى فى غاية البعد عن هذا المثال ظاهر باهر وبسبب غاية ظهورها لا تدركها الحاسة المبصرة محاذاة ومقابلة (والميزان) ما تعرف به حقائق الأشياء ويميز به صحيح العقيدة من الفاسد وهو الواسطة بين السماء والأرض حيث قال (والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام) وذلك الميزان سر من أسرار الربوبية لا يعرفه إلا الراسخون فى العلم والله أعلم . الركن الثانى فى معرفة الملائكة : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الأنواع (مثال ذلك) القدرة فانها مخالفة للعلم والعلم مخالف للقدرة وهما مخالفا اللون واللون والقدرة والعلم أعراض قائمة بغيرها فكذلك بين الملك والشيطان والجن اختلاف ومع ذلك فكل واحد جوهر قائم بنفسه

وقد وقع الاختلاف بين الجن والملك فلا يدرى أهو اختلاف بين النوعين كالاختلاف بين الفرس والانسان أو الاختلاف فى الأعراض كالاختلاف بين الانسان الناقص والكامل وكذا الاختلاف بين الملك والشيطان وهو أن يكون النوع واحدا والاختلاف واقعا فى العوارض كالاختلاف بين الخير والشرير والاختلاف بين النبى والولى والظاهر أن اختلافهم بالنوع والعلم عند الله تعالى وهذه الجواهر المذكورة لا تنقسم أعنى أن محل العلم بالله تعالى واحد لا ينقسم فان العلم الواحد لا يحل إلا فى محل واحد وحقيقة الانسان كذلك فالعلم والجهل بشىء واحد فى محل واحد متضادان وفى المحلين غير متضادين وأما أن هذا الجوهر غير منقسم وهل هو متحيز أم لا فهذا الكلام عائد إلى معرفة الجزء الذى لا يتجزأ فان استحال الجزء الذى لا يتجزأ فهذا الجوهر غير منقسم ولا متحيز وإن لم يستحل الجزء الذى لا يتجزأ فيمكن أن يكون هذا الجوهر متحيزا وقد قال قوم لا يجوز أن يكون غير منقسم ولا متحيز فان الله تعالى غير منقسم ولا متحيز فما الذى يفصل هذا من ذلك وهذا غير مبرهن عليه لأنه ربما تباينا فى حقيقة الذات وإن سلب عنهما الانقسام والتحيز والأمور المكانية وتلك سلوب والاعتبار بالحقائق لأن ما سلب عن الحقائق كالعرضين المختلفين بالحد والحقيقة الحالين فى محل واحد فان إيجاب احتياجهما إلى المحل وكونهما فى المحل لا يفيد تماثلهما فكذلك سلب الاحتياج إلى المحل والمكان لا يفيد اشتراك الشيئين ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر

أعنى جواهر الملائكة وإن كانت غير محسوسة وهذه المشاهدة على ضربين أما على سبيل التمثل كقوله تعالى (فتمثل لها بشرا سويا) وكما كان النبي عليه الصلاة والسلام يرى جبريل فى صورة دحية الكلبي والقسم الثاني أن يكون لبعض الملائكة بدن محسوس كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بهذا فكذلك بعض الملائكة وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفا على إشراق نور النبوة كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوف عند الادراك على إشراق نور الشمس وكذا فى الجن والشياطين .

## فصل

وقوع مزاج قريب من مزاج آخر غير مستحيل فنسبة نفس مزاج واحد هو قريب إلى مزاج آخر إلى نفس ذلك المزاج نسبة مقارنة فان كان لانسان مزاج خاص وله نفس خاصة ثم مات صاحب ذلك المزاج وحدث بعده مزاج آخر قريب منه وذلك عند الأدوار والتشكلات الفلكية مثال ذلك حدث مزاج وتشكل الفلك على هيئة مخصوصة ثم عادت تلك التشكلات بأسرها عودا يمكن لها وإن لم يكن بالنسبة المخصوصة إلى مبدأ واحد فحدث مزاج آخر استحق للمزاج الحادث نفسا أخرى لتلك النفس مع النفس المفارقة التى كانت للمزاج المناسب له مناسبة ما فلا تتعلق النفس المفارقة بهذا المزاج تعلقا كليا لاستحالة تصرف النفسين فى بدن واحد فتتعلق بذلك المزاج تعلقا دون تعلق تلك النفس الحادثة معه فتزداد خيرا إن كانت خيرة وشرا إن كانت

شريرة ولذلك يقال لكل إنسان جنى يشاكله ويعاونه أو شيطان يغويه ويضله وإن حدث مزاجان فى زمان واحد فى بدنين أو فى مكانين وحدثت لهما نفسان كانتا تربين ففى الأبدان تربان وفى النفوس تربان وكل من تكون مناسبة الأرواح المفارقة إلى روحه أكثر حدث به من تلك الاتصالات أنواع من الأخلاق فيكون عرافا كاهنا أو صاحب تنجيم أو غير ذلك وربما كانت القوة الوهمية بعد المفارقة بحيث يصير لها العالم المحسوس بدنا ولا تتعداه إلى العالم الأعلى فتطالع الأسباب الجزئية فى هذا العالم فتستفيد النفس البدنية المتصلة بها معرفة ما والشرير منها فى غاية الشر لأنها خرجت عن المادة فالشرير شيطان والخير من الطبقة الناقصة جن وللجن والشياطين علائق يتمسك بها البشر وأفعال روحانية هى مولدات لأفعال طبيعية والخلاص عن المادة دليل كمال القوة سواء كانت تلك القوة قوة رداءة أو قوة خير وأما القاعد عن اليمين والشمال فقالوا فيهما ما قالوا والحق أن هذا سر إنما يعرفه الأنبياء المرسلون عليهم السلام وملائكة السموات المدبرون المتصرفون فى أجرام السموات لا يعلم أعداد تلك الأجرام إلا الله تعالى كما قال الله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وملك الموت هو الملك الذى يأمره الله تعالى بقبض الأرواح متضمنا تفريق المزاج الذى استحق قبول تلك النفس مثاله مثال مطفىء السراج بالنفخ والنفخ نفخان نفخ يوقد كما قال تعالى (فنفخنا فيه من روحنا) ونفخ يطفىء كما قال تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) وقال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم

قيام ينظرون ) الركن الثالث في المعجزات وأحوال الأنبياء عليهم السلام : تسبيح الحصا وقلب العصا حية تسعى وكلام البهائم وكلام الشاة التى قالت للنبي عليه الصلاة والسلام حين سمتها اليهودية لا تأكل منى فانى مسمومة وأمثال ذلك على ثلاثة أقسام القسم الأول الحسى والثانى الخيالى والثالث العقلى ( القسم الأول ) الحسى وهو أن يخلق الله العلم والحياة والقدرة فى الحصى حتى يتكلم وفى البهيمة العقل والقدرة والنطق وذلك ليس بمحال فان الله تعالى قادر على أن يخلق فى الباذروج حياة وقدرة وسما ويخلق منه عقربا ويخلق من نوى النبق كذلك ويخلق من لحوم البقر النحل ومن النطفة الانسان وسائر الحيوانات من موادها فهو قادر على أن يخلق بإعجاز نفس مقدسة نبوية فى الحصاة حياة وقدرة ومن شاهد خلق الحية النضناضة من شعر امرأة ويحس ذلك ولا يتعجب من قلب الشعر حية فكيف يتعجب من قلب العصا حية والخشب كان ذا نفس نامية نباتيـــة والشعر لم يكن قط ذا نفس والأجسام متماثلة فكما جاز ذلك فى أجسام الناس جاز ذلك فى سائر الأجسام وإن كان الجسم الإنسانى بسبب اعتدال المزاج قابلا لهذه الأشياء فكل جسم مستعد لقبول المزاج المعتدل وإن كان الاعتدال موقوفا على الحرارة والرطوبة فليس يمتنع أن يكون كل جسم قابلا للحرارة والرطوبة ويكون دعاء النبي وهمته يؤثران فى كينونة هذه الأشياء من غير مهلة ومدة وإن جرت العادة أن يخلق الله تعالى مثل هذه الأشياء فى مدة وبذلك يظهر شرف الأنبياء وخرق العادة ليس

بمحال مثال ذلك الشمس والنار فان ما يحصل من تأثير الشمس في المائعات وغيرها إنما يحصل بمدة على سبيل التدريج وما يحصل من إسخان النار يكون دفعة فلم استحال أن يكون تأثير مراد الأنبياء على وجه تكون نسبته نسبة إسخان النار إلى إسخان الشمس (القسم الثاني) العقلي وهو قول الله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وهو شهادة كل مخلوق ومحدث على خالقه وموجده كشهادة البناء على البانى والكتابة على الكاتب ويقال لذلك لسان الحال والمتكلمون يقولون هذه دلالة الدليل على المدلول والحمق من الناس لا يعرفون هذه الرتبة ولا يقرون (بها) (القسم الثالث) الخيالي أن لسان الحال يصير مشاهدا محسوسا على سبيل التمثيل وهذه خاصية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما أن لسان الحال يتمثل في المنام لغير الأنبياء ويسمعون صوتا وكلاما كمن يرى في منامه أن جملا يكلمه أو فرسا يخاطبه او ميتا يعطيه شيئا أو يأخذ بيده أو يسلب منه شيئا أو تضير أصبعه شمسا أو قمرآ أو يصير ظفره أسدا أوغير ذلك مما يراه النائم في منامه فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرون ذلك في اليقظة وتخاطبهم هذه الأشياء في اليقظة فإن المتيقظ لا يميز بين أن يكون ذلك نطقا خياليا أو نطقا حسيا من خارج والنائم إنما يعرف ذلك بسبب انتباهه والتفرقة بين النوم واليقظة ومن كانت له ولاية تامة تفيض تلك الولاية أشعتها على خيالات الحاضرين حتى انهم يرون ما يراه ويسمعون مايسمعه والتمثل الخيالي أشهر هذه الأقسام والإيمان بهذه الأقسام كلها وأجمعها واجب .

## فصــــل

وأما شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء فالشفاعة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الالهية على جوهر النبوة وينتشر منها إلى كل جوهر استحكمت مناسبته مع جوهر النبوة لشدة المحبة وكثرة المواظبة على السنن وكثرة الذكر بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ومثاله نور الشمس إذا وقع على المـاء فانه ينعكس منه إلى موضع مخصوص من الحائط لا إلى جميع المواضع وإنمـا اختص ذلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء فى الموضع وتلك المناسبة مسلوبة على سائر أجزاء الحائط وذلك الموضع هو الذى إذا خرج منه خط إلى موضع النور من الماء حصلت منه زاوية إلى الأرض مساوية للزاوية الحاصلة من الخط الخارج من الماء إلى قرص الشمس بحيث لا يكون أوسع منه ولا أضيق مثال ذلك لائح وهذا لا يمكن إلا فى موضع مخصوص من الجدار فكما أن المناسبات الوضعية تقتضى الاختصاص بانعكاس النور فالمناسبات المعنوية العقلية أيضا تقتضى ذلك فى الجواهر المعنوية ومن استولى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الالهية فأشرق عليه النور من غير واسطة ومن استولت عليه السنن والاقتداء بالرسول ومحبة أتباعه ولم ترسخ قدمه فى ملاحظة الوحدانية لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة فافتقر إلى واسطة فى اقتباس النار كما يفتقر الحائط الذى ليس مكشوفا للشمس إلى واسطة الماء المكشوف للشمس وإلى مثل هذا ترجع حقيقة الشفاعة فى الدنيا فالوزير الممكن فى قلب

الملك المخصوص بالعناية قد يفضى الملك عن هفوات أصحاب الوزير يعفو عنهم لا لمناسبة بين الملك وأصحاب الوزير لكن لأنهم يناسبون الوزير المناسب للملك ففاضت العناية عليهم بواسطة الوزير لا بأنفسهم ولو ارتفعت الواسطة لم تشملهم العناية أصلا لأن الملك لا يعرف أصحاب الوزير واختصاصهم به إلا بتعريف الوزير وإظهاره الرغبة فى العفو عنهم فيسمى لفظه فى التعريف وإظهاره الرغبة فى العفو عنهم فيسمى لفظة فى التعريف وإظهار شفاعة على سبيل المجاز وإنما الشفيع مكانته عند الملك وإنما اللفظ لاظهار الغرض والله مستغن عن التعريف ولو عرف الملك حقيقة اختصاصه بالوزير لاستغنى عن اللفظ وحصل العفو بشفاعة لا نطق فيها ولا كلام والله تعالى عالم به فلو أذن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى التلفظ بما هو معلوم عند الله تعالى لكانت ألفاظهم ألفاظ الشفعاء وإذا أراد الله تعالى أن يمثل حقيقة الشفاعة بمثال يدخل فى الحس والخيال لم يكن ذلك التمثيل إلا بألفاظ مألوفة بالشفاعة ويدل على ذلك انعكاس النور بطريق المناسبة وأن جميع ما ورد فى الأخبار عن استحقاق الشفاعة متعلق بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من صلاة عليه أو زيارة لقبره أو جواب المؤذن والدعاء له عقيبه وغير ذلك مما يحكم علاقة المودة والمحبة والمناسبة معه . ( الركن الرابع فى أحوال ما بعد الموت ).

فصـــل

فى عذاب القبر النفس إذا فارقت البدن حملت القوة الوهمية معها كما ذكرناها وتتجرد عن البدن منزهة ليس يصحبها شىء من

الهيئات البدنية وهى عند الموت عالمة بمفارقتها عن البدن وعن دار الدنيا متوهمة نفسها الانسان المقبور الذى مات وعلى صورته كما كان فى الدنيا يتخيل ويتوهم وتتخيل بدنها مقبورا ويتخيل الآلام الواصلة إليها على سبيل العقوبات الحية على ماوردت به الشرائع الصادقة فهذا عذاب القبر وإن كانت سعيدة تتخيله على صورة ملائمة على وفق ما كانت تعتقده من الجنات والأنهار والحدائق والغلمان والولدان والحور العين والكأس من المعين فهذا ثواب القبر فلذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» فالقبر الحقيقى هـذه الهيئات وعذاب القـبر وثوابه ما ذكرناهما والنشأة الأخرى خروج النفس عن غبار هذه الهيئات كما يخرج الجنين من القرار المكين كما قال تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) دليل ظاهر ومثال بين لهذه النشأة .

## فصـــل

قول النبى صلى الله عليه وسلم «من مات فقد قامت قيامته» الفاء هنا للتعقيب يعنى قامت قيامة الميت عند موته مثال ذلك من سرق نصابا كاملا من حرز فقد استحق قطع يده وهذا عقاب لا يتأخر عن هذا الفعل وقال تعالى أيضا (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله) والقيامة الكبرى ميعاد عند

الله تعالى لا يجليها لوقتها إلا هو وعلمها عند الله والأوقات والأزمنة وإن كان فيها تشابه فلكل واحد منها خواص ببعض أنواع الوجود يعتبر ذلك فى أوقات الحرث والنسل وغيرهما وعند المتكلمين يرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى فانه تعالى يخصص وقتا يوجد فيه موجودا بإرادته ومشيئته مع أن الأوقات متشابهة بالاضافة إلى القدرة وإلى ذات القديم سبحانه وتعالى والفلاسفة يقولون إن مبادىء الحوادث حركات الأفلاك وأن أدوارها مختلفة وكل شكل من تشكلات مباين غيره من التشكلات مقرر ذلك فى براهين اقليدس إذ كل تشكل وكل عود من تلك التشكلات لا تعود بعينها وبذلك يبطلون دعوى المنجمين فى التجربة لكل عود وتشكل من تشكلات الفلك فيجوز أن يتجدد دور مباين لسائر الأدوار تحدث فيه حيوانات غريبة الشكل لم ير مثلها قبلها قط وإذا ألقينا حجرا فى الماء يحدث فيه شكل مستدير تكون استدارة هذا الشكل مناسبته لعمقه وكلما ازداد عمقه ازدادت تلك الدائرة فاذا ألقينا حجرا آخر قبل تمام هذه الدائرة لم يلزم أن تكون حركة الماء فى النوبة الثانية كحركته فى النوبة الأولى لأن فى الماء الأولى ساكن وفى الأخرى متحرك فان تشكيل الحجر للمتحرك خلاف تشكيله للساكن فتختلف الاشكال مع تساوى الأسباب لامتزاج أثر السابق باللاحق وهب أن تشكلا للمتحرك وافق شكلا آخر فكيف يكون مقومات الثوابت والأوجات وسائر الجوزاهرات على مثل ما كان عليه فى التشكل الأول فلا يستحيل أن يكون فى التقدير

الأزلى للأدوار دور يخالف هـذه الأدوار يقتضى نمطا من نظام الوجود والابداع على خلاف النمط المعهود ولا يستحيل أن يكون ذلك النمط بديعا لم يسبق له نظير ولا أن يكون حكمه باقيا لا يلحقه مثل الدور السابق المنسوخ فيبقى النمط الحاصل من الابداع مستمراً فى جنسه وإن كانت تتبدل أحواله فيكون ميعاد القيامة الكبرى حصول ذلك التشكل الغريب من الأسباب العالية فيكون سبباً كليا جامعا لجميع الأرواح فيعم حكمها كافة الأرواح فتكون قيامة عامة مخصوصة بوقت لا تتسع القوة البشرية لمعرفتها أعنى لمعرفة وقتها ولا الأنبياء المرسلون عليهم الصلاة والسلام فان الأنبياء أيضاً يكشف لهم ما يكشف بقدر احتمالهم وقبولهم فاذا لم يقم برهان كلامى ولا فلسفى على استحالته وجب التصديق به إذا ورد الشرع به تشريحا لا يتطرق إليـه الاحتمال والتأويل وقد صرح الشرع به تصريحاً ضرورياً يجب الإيمان به ولا يمكن تأويله وكما جاز أن يحدث دور بشكل يحدث بسببه أنواع من الحيوانات لم يعهد مثلها فكذلك يجب أن يحدث زمان يحشر فيه الموتى وتجمع أجزاؤهم وتعود إلى أشباحهم وأرواحهم فكما أن الجاهل يتأمل فصل الشتاء ويتعجب أن يحصل فيه نبات وثمار إذا ورد فصل الربيع عاين ذلك وبين زمانى الفصلين بعد فى هذه الدار فكذلك بين زمان النشأة الأولى التى تحصل للانسان بالتناسل وزمان النشأة الأخرى التى تحصل للانسان بالاحياء والاعادة كون بعيد لا يقاس أحدهما على الثانى .

## فصـــل

عود النفس إلى البدن بعد مفارقتها عنه فى القيامة أمر ممكن غير مستحيل ولا ينبغى أن يتعجب منه بل التعجب من تعلق النفس بالبدن فى أول الأمر أظهر من تعجب عودها إليه بعد المفارقة وتأثير النفس فى البدن تأثير فعل وتسخير ولا برهان على استحالة عود هذا وصيرورة هذا البدن مستعدا مرة أخرى لقبول تأثيره وتسخيره بقى ههنا تعجب من ضعفاء العقول وهو أن ذلك الاستعداد الإنسانى يحصل قليلا قليلا بالتدريج من نطفة فى قرار مكين ثم من علقة إلى تمام الخلقة وإذا لم يكن كذلك لا يقبل استعداد قبول التسخير ودفع هذا التعجب إنا قد بينا أن ما هو ممكن بالتدريج إنما هو التوالد وأما التولد فلا يكون بالتدريج بل حدوثه ممكن دفعة واحدة ألا ترى أن الفار الذى يتوالد يكون بالتدريج وباجتماع الذكر والأنثى وبعد حمل وسفاد وأن التولدى منه يكون دفعة فانه لم يوجد قط مدر ولا تراب بعضه فأر وبعضه بالقوة قريب إلى حجم الفأر وكذلك الذباب الذى يتولد فى الصيف من العفونات يكون دفعة ولم توجد عفونة تغيرت عن حالها وصارت بالقوة قريبة إلى أن تستحيل ذبابا من غير مهلة وتدريج والنشأة الثانية تولدية من تلك الأجزاء التى كانت فى الأصل وإن تفرقت وانخلعت صورها فيرد الله تعالى واهب الصور تلك الصور إلى موادها ويحصل المزاج الخاص مرة أخرى ولها نفس حدثت عند حدوث ذلك المزاج ابتداء فتعود بالتسخير والتصرف إليها مع العلاقة

التى بينهما مثال ذلك راكب سفينة غرقت السفينة وتفرقت أجزاؤها
وانتقل الراكب بالسباحة إلى جزيرة ثم ترد تلك الأجزاء بعينها إلى
الهيئة الأولى وتوطد وتؤكد عاد إليها راكب السفينـــة وأجراها
وتصرف فيها كما شاء ولا يجب أن يستحق هذا الحشر وجميع الأجزاء
والمزاج المجدد نفسا أخرى فان حدوث المزاج يستحق حدوث نفس
له أما عود المزاج إلى الحالة الأولى فلا يستحق إلا عود النفس إلى
الحالة الأولى وأما ظن من ظن أن الأجزاء الأرضية لا تفى بذلك
فظن ووهم لا اعتبار بهما فمن قاس الانسان والأجزاء الأرضية التى
فيها بأجزاء الأرض وأى مهندس استخرج بالمساحة ذلك الحد ، أما
الاختلاف الراجع إلى ذلك فى الكتب الالهية فى التوراة أن أهل
الجنة يمكثون فى النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة وأن
أهل النار كذا أو أزيد ثم يصيرون شياطين وفى الإنجيل أن الناس
يحشرون ملائكة لا يطعمون ولا ينامون ولا يشربون ولا يتوالدون
وفى القرآن أن الناس يحشرون كما خلقهم الله تعالى أول مرة كما قال
تعالى (فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) وسؤال إبراهيم
عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى (رب أرنى كيف تحي الموتى) وقوله
عزير عليه السلام حكاية منه (أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله
مائة عام ثم بعثه) ومكث أصحاب الكهف وهو قوله تعالى (وكذلك
بعثناهم ليتساءلوا بينهم-إلى قوله-ليعلموا أن وعد الله حق) دلائل على
أن هذه النشأة كائنة ممكنة يجب الإيمان بها وكان فى قديم الدهر فيها

اختلاف الناس والأنبياء عليهم السلام يثبتون تلك بالبراهين والأمثلة المحسوسة والتعجب من النشأة الأولى أكثر من الأخرى إلا أن النشأة الأولى محسوسة مشاهدة معتادة فسقط التعجب فانا لو سمعنا أن إنسانا حرك نفسه فوق امرأة مرارا كما يحرك الممخض وخرج من أجزائه شيء مثل زبد سيال فيخفى ذلك الشيء في بعض أعضاء المرأة ويبقى مدة على هذه الحالة ثم يصير علقة ثم العلقة تصير مضغة ثم المضغة تصير عظاما ثم تكسى العظام لحما ثم يحصل فيه الحركة ثم يخرج من موضع لم يعهد خروج شيء منه على حالة لا يهلك أمه ولا يشق عليها في ولادته ثم يفتح عينيه ويحصل في ثدي الأم شيء مثل شراب مائع لم يكن قبل ذلك فيها ويغتذي به الطفل إلى أن يصير هـــذا الطفل بالتدريج صاحب صناعات واستنباطات بل ربما هذا الشيء الذي أصله نطفة وهو عند الولادة أضعف خلق الله يصير عن قريب ملكا جبارا قهارا يملك أكثر العالم ويتصرف فيه فإن التعجب من ذلك أكثر وأوفر من التعجب من النشأة الأخرى والأصل أن كل شيء لم يشاهده الانسان ولم يعرف سببه يحصل له منه التعجب والتعجب هيئة تحصل للانسان عند مشاهدة شيء لم يشاهده قبل ذلك أو سماع شيء لم يعرف سببه ولم يسمعه قبل ذلك .

## فصـــل

تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور وبالموت ينكشف الغطاء كما قال الله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك) ومما يكشفه

له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده وهى مقادير تلك الآثار وأن بعضها أشد تأثيرا من البعض ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى أن يجرى سببا يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيراتها فى التقريب والأبعاد فحد الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ومثاله فى العالم المحسوس مختلف فمنه الميزان المعروف ومنه القبان للاثقال والأسطرلاب لحركات الفلك والأوقات والمسطرة للمقادير والخطوط والعروض لمقادير حركات الأصوات فالميزان الحقيق وإذا مثله الله عز وجل للحواس مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها فحقيقة الميزان وحده موجودة فى جميع ذلك وهو مايعرف به الزيادة من النقصان وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل وللخيال عند التمثيل والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات والتصديق بجميع ذلك واجب .

## فصل

والحساب جمع متفرقات المقادير وتعريف مبلغها وما من إنسان إلا وله أعمال متفرقة نافعة وضارة ومقربة ومبعدة لا تعرف فذلكتها وقد لا تحصر آحاد متفرقاتها فاذا حصرت المتفرقات وجمع مبلغها كان حسابا فان كان فى قدرة الله تعالى أن يكشف فى لحظة واحدة للعالمين متفرقات أعمالهم ومبلغ آثارها فهو أسرع الحاسبين ومعلوم أن فى قدرته ذلك فاذن هو أسرع الحاسبين قطعا وسئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه كيف يحاسب الله الخلق فى لحظة من

غير تشويش ولا غلط فقال رضى الله عنه كما يرزقهم مع سائر الحيوانات بلا تشويش ولا غلط .

## فصــــل

الصراط حق وما قيل فيه إنه مثل الشعرة فى الدقة فهو ظالم فى وصفه بل أدق من الشعر بل لا مناسبة بين دقته ودقة الشعر وحدته وحدة السيف كما لا مناسبة فى الدقة بين الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس الذى ليس من الظل ولا من الشمس وبين دقة الشعر ودقة الصراط مثل دقة الخط الهندسى الذى لا عرض له أصلا لأنه على مثال الصراط المستقيم والصراط المستقيم عبارة عن الوسط الحقيقى بين الأخلاق المتضادة لذلك قد بين الله بهذا الدعاء فى سورة الفاتحة حيث قال (اهدنا الصراط المستقيم) وقال فى حق المصطفى صلوات الله عليه (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقال صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال تعالى شأنه (وإنك لعلى خلق عظيم) مثال ذلك السخاوة بين التبذير والبخل والشجاعة بين التهور والجبن والاقتصاد بين الاسراف والاقتار والتواضع بين التكبر والدناءة والعفة بين الشهوة والخمود فهذه الأخلاق لها طرف إفراط وطرف تقصير وهما مذمومان والوسط ليس من الافراط ولا من التقصير فهو على غاية البعد من كل طرف ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم «خير الأمور أوساطها» مثال ذلك الوسط الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس لا من الظل ولا من الشمس والتحقيق فى ذلك أن كمال

الآدمى فى المشابهة بالملائكة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المتضادة وليس فى إمكان الإنسان الانفكاك عنها بالكلية فكلفه الله تعالى بما يشبه الانفكاك وإن لم يكن حقيقة الانفكاك وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد والعودى لا أبيض ولا أسود فالبخل والتبذير من صفات الإنسان والمقتصد السخى كأنه لا بخيل ولا مبذر فالصراط المستقيم وهو الوسط الحق بين الطرفين الذى لا ميل له إلى أحد الجانبين وهو أدق من الشعر فالذى يطلب غاية البعد من الطرفين يكون على الوسط ولو فرضنا حلقة حديد محماة بالنار وقعت نملة فيها وهى تهرب بطبعها من الحرارة فلا تموت إلا على المركز لأنه الوسط الذى هو غاية البعد من المحيط المحرق وتلك النقطة لا عرض لها فإذاً الصراط المستقيم هو الوسط بين الطرفين ولا عرض له فهو أدق من الشعر ولذلك خرج عن القدرة البشرية الوقوف عليه فلا جرم بورود أمثالنا النار بقدر ميله عنه كما قال تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) وقال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فإن العدل بين المرأتين فى المحبة والوقوف على درجة متوسطة لا ميل فيه إلى إحداهما كيف يدخل تحت الامكان فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم الذى يحكى الله تعالى حقيقته عن النبى صلى الله عليه وسلم وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه مر على صراط الآخرة مستويا من غير ميل لأنه فى هذا العالم عود نفسه التحفظ عن الميل فصار ذلك وصفا طبيعيا

له فان العادة طبيعة خامسة هذا حق قطعا كما ورد به الشرع وجاء في الحديث «يمر المؤمن على الصراط كالبرق الخاطف».

فصــل

اللذات المحسوسة الموجودة في الجنان من أكل وشرب ونكاح يجب التصديق بها لامكانها وهي كما تقدم حسى وخيالى وعقلى أما الحسى فبعد رد الروح إلى البدن كما ذكرناه وأما الكلام في أن بعض هذه اللذات مما لا يرغب فيها مثل اللبن والاستبرق والطلح المنضود والسدر المخضود فهذا مما خوطب به جماعة يعظم ذلك في أعينهم ويشتهونه غاية الشهوة وفي كل صنف وكل إقليم مطاعم ومشارب وملابس تختص بقوم دون قوم ولكل واحد في الجنة ما يشتهيه كما قال تعالى (ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) وربما يعظم الله تعالى في الآخرة شهوة لا تكون تلك الشهوة معظمة في دار الدنيا كالنظر إلى ذات الله تعالى فان الشهوة والرغبة الصادقة فيها في الآخرة دون الدنيا وأما الخيالى فلا يخفى إمكانه ولذته كما في النوم إلا أنه مستحقر لانقطاعه عن قريب فلو كانت دائمة لم يدرك فرق بين الخيالى والحسى لأن التذاذ الإنسان بالصور من حيث انطباعها في الخيال والحس لا من حيث وجودها من خارج فلو وجد من خارج ولم يوجد في حسه بالانطباع فلا لذة ولو بقى المنطبع في الحس وعدم الخارج لدامت اللذة وللقوة المتخيلة قدرة على اختراع الصور في هذا العالم إلا أن صورها المخترعة متخيلة وليست بمحسوسة ولا منطبعة في القوة الباصرة فلذلك لو اخترع صورة جميلة في غاية

الجمال وتوهم حضورها ومشاهدتها لم تعظم لذته لأنه ليس يصير
مبصراً كما فى النوم فلو كانت له قوة على تصويرها فى القوة الباصرة
كما له قوة على تصويرها فى القوة المتخيلة لعظمت لذته ونزلت منزلة
الصورة الموجودة من خارج ولا تفارق الآخرة الدنيا فى هذا المعنى
إلا من حيث كمال القدرة على تصوير الصورة فى القوة الباصرة وكل
ما يشتهيه يحضر عنده فى الحال فتكون شهوته بسبب تخيله وتخيله
بسبب إبصاره أى بسبب انطباعه فى القوة الباصرة فلا يخطر بباله شىء
يميل إليه إلا ويوجد فى الحال أى يوجد بحيث يراه وإليه الإشارة
بقوله عليه الصلاة والسلام إن فى الجنة سوقا تباع فيه الصور والسوق
عبارة عن اللطف الإلهى الذى هو منبع القدرة على اختراع الصور
بحسب المشيئة وانطباع القوة الباصرة بها انطباعا ثابتا إلى دوام المشيئة
لا انطباعا هو معرض للزوال من غير اختيار كما فى النوم فى هـــذا
العالم وهذه القدرة أوسع وأكمل من القدرة على الايجاد خارج الحس
لأن الموجود من خارج الحس لا يوجد فى مكانين وإذا صار مشغولا
باجتماع واحد ومشاهدته وممارسته صار مشغوفا به محجوباً عن غيره
وأما هذا فيتسع اتساعا لا ضيق فيه ولا منع حتى إذا اشتهى مشاهدة
الشىء مثلا ألف شخص فى ألف مكان فى حالة واحدة لشاهدوه كما
خطر ببالهم فى أماكنهم المختلفة وأما الابصار الحاصل عن شخص
الشىء الموجود من خارج الحس لا يكون إلا فى مكان واحد وحمل
أمر الآخرة على ما هو أوسع وأتم للشهوات وأوفق بهـا أولى

ولا نقص فى قدرة الإيجاد. وأما الوجه الثالث: وهو الوجود العقلى فأن تكون هذه المحسوسات أمثلة للذات العقلية التى ليست بمحسوسة لكن العقليات تنقسم إلى أنواع كثيرة مختلفة اللذات كالحسيات فتكون الحسيات أمثلة لها وكل واحد يكون مثالا للذة أخرى مما رتبته فى العقليات توازى رتبة المثال فى الحسيات فانه لو رأى فى المنام الخضرة والماء الجارى والوجه الحسن والأنهار المطردة باللبن والعسل والخمر والأشجار المزينة بالجواهر واليواقيت واللآلىء والقصور المبنية من الذهب والفضة والسرر المرصعة بالجواهر والغلمان الماثلين بين يديه للخدمة لكان المعبر يفسر ذلك بالسرور ولا يحمله على نوع واحد بل يحمل كل واحد على نوع آخر من أنواع السرور وقرة العين يرجع بعضه إلى سرور العلم وكشف المعلومات وبعضه إلى سرور المملكة ونفاذ الأمر وبعضه إلى قهر الأعداء وبعضه إلى مشاهدة الأصدقاء وإن شمل الجميع اسم اللذة والسرور فهى مختلفة المراتب مختلفة الذوق لكل واحد مذاق يفارق الآخر فكذلك اللذات العقلية ينبغى أن تفهم كذلك وإن كان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فجميع هذه الأقسام ممكنة فيجوز أن يجمع بين الكل لواحد ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدر استعداده فالمشغوف بالتقليد والجمود على الصور الذى لم تنفتح له طرق الحقائق تمثل له هذه الصور واللذات والعارفون المستصغرون لعالم الصور واللذات المحسوسة يفتح لهم من لطائف السرور واللذات العقلية ما يليق بهم ويشفى

شرههم وشهوتهم إذ حد الجنة أن فيها لكل امرىء ما يشتهيه وإذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العقليات واللذات والقدرة واسعة والقوة البشرية عن الإحاطة بعجائب القدرة قاصرة والرحمة الإلهية ألقت بواسطة النبوة إلى كافة الخلق القدر الذى احتملته أفهامهم فيجب التصديق بما فهموه والاقرار بما وراء منتهى الفهم فى أمور تليق بالكرم الإلهى ولا تدرك بالفهم البشرى وإنما يدرك ذلك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

## فصـــل

أما التقرب لمشاهدة الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام فان المقصود منه الزيارة والاستمداد من سؤال المغفرة وقضاء الحوائج من أرواح الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام والعبارة عن هذا الامداد الشفاعة وهذا يحصل من جهتين الاستمداد من هذا الجانب والامداد من الجانب الآخر ولزيارة المشاهد أثر عظيم فى هذين الركنين أما الاستمداد فهو بانصراف همة صاحب الحاجة باستيلاء ذكر الشفيع والمزور على الخاطر حتى تصير كلية همته مستغرقة فى ذلك ويقبل بكليته على ذكره وخطوره بباله وهذه الحالة سبب منبه لروح ذلك الشفيع أو المزور حتى تمده تلك الروح الطيبة بما يستمد منها ومن أقبل فى الدنيا بهمته وكليته على إنسان فى دار الدنيا فإن ذلك الإنسان يحس بإقبال ذلك المقبل عليه ويخبره بذلك فمن لم يكن فى هذا العالم فهو أولى بالتنبيه وهو مهيأ لذلك التنبيه فان اطلاع من هو خارج عن

أحوال العالم إلى بعض أحوال العالم ممكن كما يطلع في المنام على أحوال من هو في الآخرة أهو مثاب أو معاقب فان النوم صنو الموت وأخوه فبسبب النوم صرنا مستعدين لمعرفة أحوال لم نكن مستعدين في حالة اليقظة لها فكذلك من وصل إلى الدار الآخرة ومات موتا حقيقيا كان بالاطلاع على هذا العالم أولى وأحرى فأما كلية أحوال هذا العالم في جميع الأوقات لم تكن مندرجة في سلك معرفتهم كما لم تكن أحوال الماضين حاضرة في معرفتنا في منامنا عند الرؤيا ولآحاد المعارف معينات ومخصصات منها همة صاحب الحاجة وهي استيلاء صاحب تلك الروح العزيزة على صاحب الحاجة وكما تؤثر مشاهدة صورة الحي في حضور ذكره وخطور نفسه بالبال فكذلك تؤثر مشاهدة ذلك الميت ومشاهدة تربته التي هي حجاب قالبه فان أثر ذلك الميت في النفس عند غيبة قالبه ومشهده ليس كأثره في حال حضوره ومشاهدة قالبه ومشهده ومن ظن أنه قادر على أن يحضر في نفس ذلك الميت عند غيبة مشهده كما يحضر عند مشاهدة مشهده فذلك ظن خطأ فان للمشاهدة أثرا بينا ليس للغيبة مثله ومن استعان في الغيبة بذلك الميت لم تكن هذه الاستعانة أيضاً جزافا ولا تخلوا من أثر ما كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «من صلى علي مرة صليت عليه عشراً» « ومن أجاب المؤذن حلت له شفاعتي» «ومن زار قبري حلت له شفاعتي» فالتقرب بقالبه الذي هو أخص الخواص به وسيلة تامة متقاضية للشفاعة والتقرب بولده الذي هو بضعة منه ولو بعد توالد

وتناسل والتقرب بمشهده ومسجده وبلدته وعصاه وسوطه وبعله وعضادته والتقرب بعادته وسيرته والتقرب بكل ماله منها مناسبة إليه تقرب موجب للقرب إليه مقتض لشفاعته فانه لا فرق عند الأنبياء فى كونهم فى دار الدنيا وفى كونهم فى دار الآخرة لا فى طريق المعرفة فان آلة المعرفة فى الدنيا الحواس الظاهرة وفى العقبى آلة يعرف بها الغيب اما فى كسوة مثال واما على سبيل التصريح وأما الأحوال الأخر فى التقرب والقرب والشفاعة فلا تتغير والركن الأعظم فى هذا الباب الامداد والاهتمام من جهة الممد وإن لم يشعر صاحب الوسيلة بذلك المدد فانه لو وضع شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عضادته أو سوطه على قبر عاص أو مذنب نجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب وإن كان فى دار إنسان أو بلدة لا يصيب تلك الدار وأهلها وتلك البلدة وسكانها ببركاتها بلاء وإن لم يشعر بها صاحب الدار وساكن البلدة فان اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى العقبى مصروف إلى ماهو به منسوب ودفع المكاره والأمراض والعقوبات مفوضة من جهة الله تعالى إلى الملائكة وكل ملك حريص على إسعاف ما حرص النبى صلوات الله عليه بهمته إليه عن غيره كما كان فى حال حياته فان تقرب الملائكة بروحه المقدسة بعد موته أزيد من تقربهم به فى حال حياته وقد حكى أن أبا طاهر الهجرى القرمطى رفع إنسانا على عنقه حتى يجر ميزاب الكعبة فمات الإنسان على عنقه حتى يجر ميزاب الكعبة فمات الإنسان على عاتقه وخر هو ميتا وأن جماعة

من المصريين نقبوا فى جدار روضة النبى صلى الله عليه وسلم وقصدوا إخراج شخصه ونقله إلى مصر كان ذلك فى نصف الليل فسمع أهل المدينة صوتا من الهواء احفظوا نبيكم معاشر المسلمين احفظوا نبيكم فأوقدوا السراج بل أوقدوا السرج والشموع والمشاعل ورأوا ذلك النقب فى الجدار وحوله جماعة من المصريين موتى ونقل أنه صلى الله عليه وسلم غرس غصنا رطبا فى قبر إنسان وقال رفع الله تعالى عن صاحبه العذاب ما دام هذا الغصن رطبا وذلك من بركات يديه صلى الله عليه وسلم وكل من أطاع سلطانا وعظمه فاذا دخل بلده ورأى فيها سهما من جعبة ذلك السلطان أو سوطا له فانه يعظم تلك البلدة فالملائكة عليهم السلام يعظمون النبى فاذا رأوا ذخائره فى دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه وخففوا عليه العذاب ولذلك السبب ينفع الموتى أن توضع على قبورهم المصاحف ويتلى القرآن على رءوس قبورهم ويكتب القرآن على قراطيس وتوضع القراطيس فى أيدى الموتى فبذه أنواع المناسبات على حسب حال من يريد أن يسوى كل مسموع ومشروع على قضية معقولة والأصل فى ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده وإن اجتمع الحذاق وتفكروا فى الشكل الموضوع على مناسبة الأعداد لسهولة الولادة حالة الطلق ما عرفوا تلك الخاصية فكيف يطمع الانسان أن يعرف حقائق ما ورد به الشرع من الأوامر والنواهى والأخبار والوعد والوعيد وغير ذلك والعقل ضعيف وتصرفه مختصر بالاضافة

إلى تلك العجائب والخواص ( قد قررت ) يا أخى طيب الله عيشك بعض ما يمكن التلويح إليه على وفق ما انتهت فطانتى إليه وأوصيك ومن معك بالإيمان بهذه الأشياء التى ورد الشرع بتصحيحها دون التوقف فيها ونعوذ بالله من التوقف وسأهدى إليك من بعد أن وفقنى الله تعالى علقا مضنونا آخر اسمه المضنون به على غير أهله أحق وأولى من هذا المصنف فان فى هذا مسائل قررتها فى عدة مواضع ومسائل لم أقررها إلا فى ذاك المصنف أما المضنون الموجود فقد كان عزيمتى على تقرير أشياء فيه لم أقررها فى شىء من كتبى اللهم إلا فى احياء العلوم فان فيه تلويحات وإشارات إلى رموز لا يعرفها إلا أهلها والله المعين الهادى وهو حسبنا وإليه المرجع والمصير .

# الأجوبة الغزالية فى المسائل الاخروية

## (المضنون الصغير)

بسم الله الرحمن الرحيم

(سئل) الشيخ الإمام الأجل الزاهد السيد حجة الإسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ونور ضريحه عن معنى قوله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) ما التسوية وما النفخ وما الروح ؟ (فقال) التسوية فعل فى المحل القابل للروح وهو الطين فى حق آدم عليه السلام والنطفة فى حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج فانه كما لا يقبل النار يابس محض كالتراب والحجر ولا رطب محض كالماء بل لا تتعلق النار إلا بمركب أى من يابس ورطب ولا كل مركب فإن الطين مركب ولا تشتعل فيه النار بل لابد بعد تركيب الطين الكثيف من تردد فى أطوار الخلقة حتى يصير نباتا لطيفا فتدب فيه النار وتشتعل فيه وكذلك الطين بعد أن ينشئه الله خلقا بعد خلق فى أطوار متعاقبة يصير نباتاً فيأكله الآدمى فيصير دما فتنتزع القوة المركبة فى كل حيوان صفوة الدم الذى هو أقرب إلى الاعتدال فيصير نطفة فيقبلها الرحم ويمتزج بها منى المرأة فتزداد عند ذلك اعتدالا ثم ينضجها الرحم بحرارته فتزداد

تناسبا حتى تنتهى فى الصفاء واستواء نسبة الأجزاء إلى الغاية فتستعد لقبول الروح وإمساكها كالفتيلة التى تستعد عند شرب الدهن لقبوله النار وإمساكها فالنطفة عند تمام الاستواء والصفاء تستحق باستعدادها روحا يدبرها ويتصرف فيها فتفيض إليها الروح من جود الجواد الحق الواهب لكل مستحق مايستحقه ولكل مستعدما يقبله على قدر قبوله واحتماله من غير منع ولا بخل فالتسوية عبارة عن هذه الأفعال المرددة لأصل النطفة فى الأطوار السالكة بها إلى صفة الاستواء والاعتدال .

## فصــــل

وسئل ما النفخ ؟ ( فقال ) النفخ عبارة عما أشعل نور الروح فى فتيلة النطفة وللنفخ صورة ونتيجة أما صورته فاخراج الهواء من جوف النافخ إلى جوف المنفوخ فيه حتى يشتعل الحطب القابل للنار فالنفخ سبب الاشتعال وصورة النفخ الذى هو سبب فى حق الله تعالى محال والمسبب غير محال وقد يكنى بالسبب عن الفعل الذى يحصل المسبب عنه على سبيل المجاز وإن لم يكن الفعل المستعار له على صورة الفعل المستعار منه كقوله تعالى (غضب الله عليهم فانتقمنا منهم) والغضب عبارة عن نوع تغير فى الغضبان يتأذى به ونتيجته الهلاك المغضوب عليه وإيلامه فعبر عن نتيجة الغضب بالغضب وعن نتيجة الانتقام بالانتقام وكذلك عبر عما ينتج نتيجة النفخ بالنفخ وإن لم يكن على صورة النفخ (فقيل) له فما السبب الذى اشتعل به نور الروح فى فتيلة النطفة ( قال ) هو صفة فى الفاعل

وصفة فى المحل القابل أما صفة الفاعل فالجود الإلهى الذى هو ينبوع الوجود على ماله قبول الوجود فهو فياض بذاته عـلى كل حقيقة أوجدها ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة ومثالها فيضان نور الشمس على كل قابل للاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما فالقابل للاستنارة وهى الملونات دون الهواء الذى لا لون له وأما صفة القابل فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية كما قال سويته ومثاله صقالة الحديد فان المرآة التى ستر الصدأ وجهها لا تقبل الصورة وإن كانت محاذية صورة فلو حاذتها الصورة واشتغل الثقيل بتصقيلها فكلما حصل الصقال حدثت فيها الصورة المحاذية من ذى الصورة المحاذية فكذلك إذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح من غير تغير فى الخالق بل إنما حدث الروح الآن لا قبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لا قبله كما أن الصورة فاضت من ذى الصورة على المرآة فى حكم الوهم من غير حدث فى الصورة ولكن كان لا يحصل من قبل لا لأن الصورة ليست مهيأة لأن تنطبع فى المرآة لكن لأن المرآة لم تكن صقيلة قابلة للصورة (فقيل) له فما الفيض؟ (فقال) لا ينبغى أن تفهم من الفيض هنا ما تفهم من فيضان الماء من الإناء على اليد فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء من الماء عن الإناء واتصاله باليد بل أفهم منه ما تفهمه من فيضان نور الشمس على الحائط ولقد غلط قوم فى نور الشمس أيضا فظنوا أنه ينفصل شعاع من جرم الشمس ويتصل بالحائط وينبسط عليه وهو خطأ بل نور الشمس سبب

لحدوث شىء يناسبه فى النورية وإن كان أضعف منه فى الحائط المتلون.
كفيضان الصورة على المرآة من ذى الصورة فإنه ليس بمعنى انفصال
جزء من صورة الإنسان واتصاله بالمرآة بل على معنى أن صورة الإنسان
مثلا سبب لحدوث صورة تماثلها فى المرآة المقابلة للصورة وليس فيهما
اتصال وانفصال إلا السببية المجردة وكذلك الجود الإلهى سبب لحدوث
نور الوجود فى كل ماهية قابلة للوجود فيعبر عنه بالفيض .

## فصـــل

قيل له قد ذكرت التسوية والنفخ فما الروح وما حقيقته وهل
هو حال فى البدن حلول الماء فى الإناء أو حلول العرض فى الجوهر
أم هو جوهر قائم بنفسه ؟ فان كان جوهرا قائما بنفسه فمتحيز هو أم
غير متحيز وإن كان متحيزا فما مكانه أهو القلب أو الدماغ أو موضع
آخر وإن لم يكن متحيزا فكيف يكون جوهرا غير متحيز ؟ ( فقال )
هذا سؤال عن سر الروح الذى لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فى كشفه لمن ليس أهلا له فان كنت من أهله فاسمع واعلم أن الروح
ليس بجسم يحل البدن حلول الماء فى الإناء ولا هو عرض يحل القلب
والدماغ حلول السواد فى الأسود والعلم فى العالم بل هو جوهر وليس
بعرض لأنه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات وهذه علوم
والعلوم أعراض ولو كان موضوعا والعلم قائم به لكان قيام العرض
بالعرض وهذا خلاف المعقول ولأن العرض الواحد لا يفيد إلا
واحدا فيما قام به والروح يفيد حكمين متغايرين فإنه حين ما يعرف

خالقه يعرف نفسه فدل على أن الروح ليس بعرض والعرض لا يتصف
بهذه الصفات ولا هو جسم لأن الجسم قابل للقسمة والروح لا ينقسم
لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشيء الواحد وبالجزء الآخر
منه جهل بذلك الشيء الواحد بعينه فيكون في حالة واحدة عالما
بالشيء جاهلا به فيتناقض لأنه في محل واحد وإلا فالسواد والبياض
في جزأين من العين غير متناقض والعلم والجهل بشيء واحد في شخص
واحد محال وفي شخصين غير محال فدل على أنه واحد وهو باتفاق
العقلاء جزء لا يتجزأ أي شيء لا ينقسم إذ لفظ جزء غير لائق به
لأن الجزء إضافة إلى الكل ولا كل هنا فلا جزء إلا أن يراد به ما يريد
القائل بقوله الواحد جزء من العشرة فإنك إذا أخذت جميع الأجزاء
التي بها قوام العشرة في كونها عشرة كان الواحد من جملتها وكذلك إذا
أخذت جميع الموجودات أو جميع ما به قوام الإنسان في كونه إنسانا
كان الروح واحدا من جملتها فإذا فهمت أنه شيء لا ينقسم فلا يخلو إما
أن يكون متحيزا أو غير متحيز وباطل أن يكون متحيزا إذ كل متحيز
منقسم والجزء الذي لا يتجزأ باطل أن يكون منقسما بأدلة هندسية وعقلية
أقربها أنه لو فرض جوهر بين جوهرين لكان كل واحد من الطرفين يلقى
من الوسط غير ما يلقى الآخر فيجوز أن يقوم بالوجه الذي يلقاه هذا
الطرف علم وبالوجه الآخر جهل فيكون عالما جاهلا في حالة واحدة بشيء
واحد وكيف لا ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لا تتجزأ لكان

الوجه الذى يحاذينا ونراه غير الوجه الآخر الذى لا نراه فإن الواحد لايكون مرئيا وغير مرئى فى حالة واحدة ولكانت الشمس إذا حاذت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه دون الوجه الآخر فإذا ثبت أنه لا ينقسم وأنه لا يتجزأ ثبت أنه قائم بنفسه وغير متحيز أصلا .

فصـــل

قيل له وما حقيقة هذه الحقيقة وما صفة هذا الجوهر وما وجه تعلقه بالبدن أهو داخل فيه أو خارج عنه أو متصل به أو منفصل عنه؟(قال) رضى الله عنه لا هو داخل ولا هو خارج ولا هو منفصل ولا متصل لأن مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال الجسمية والتحيز وقد انتفيا عنه فانفك عن الضدين كما أن الجماد لا هو عالم ولا هو جاهل لأن مصحح العلم والجهل الحياة فإذا انتفت انتفى الضدان ( فقيل له ) هل هو فى جهة ( فقال ) هو منزه عن الحلول فى المحال والاتصال بالأجسام والاختصاص بالجهات فإن كل ذلك صفات الأجسام وأعراضها والروح ليس بجسم ولا عرض فى جسم بل هو مقدس عن هذه العوارض ( فقيل له ) لم منع الرسول عليه السلام عن إفشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) (فقال) لأن الافهام لا تحتمله لأن الناس قسمان عوام وخواص أما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبله ولا يصدقه فى صفات الله تعالى فكيف يصدقه فى حق الروح الإنسانية ولهذا أنكرت الكرامية والحنبلية ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك وجعلوا الإله جسما إذ لم

يعقلوا موجودا إلا جسما مشارا إليه ومن ترقى عن العامية قليلا نفى الجسمية وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فأثبت الجهة وقد ترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجودا لا فى جهة (فقيل له) ولم لا يجوز كشف هذا السر مع هؤلاء (فقال) لأنهم أحالوا أن تكون هذه الصفات لغير الله تعالى فإذا ذكرت هذا لبعضهم كفروك وقالوا إنك تصف نفسك بما هو صفة الإله على الخصوص فكأنك تدعى الإلهية لنفسك (فقيل له) فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله ولغير الله تعالى أيضا (فقال) لأنهم قالوا كما يستحيل فى ذوات المكان أن يجتمع اثنان فى مكان واحد يستحيل أيضا أن يجتمع اثنان لا فى مكان لأنه إنما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد لأنه لو اجتمعا لم يتميز أحدهما عن الآخر فكذلك لو وجد اثنان كل واحد منهما ليس فى مكان فبم يحصل التمييز والعرفان ولهذا أيضا قالوا لا يجتمع سوادان فى محل واحد حتى قيل المثلان يتضادان (فقيل) هذا إشكال قوى فما جوابه (قال) جوابه أنهم أخطئوا حيث ظنوا أن التمييز لا يحصل إلا بالمكان بل يحصل التمييز بثلاثة أمور أحدها بالمكان كجسمين فى مكانين، والثانى بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين والثالث بالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة فى محل واحد مثل اللون والطعم والبرودة والرطوبة فى جسم واحد فإن المحل واحد والزمان واحد ولكن هذه معان مختلفة الذوات بحدودها وحقائقها فيتميز اللون عن الطعم بذاته لا بمكان وزمان ويتميز العلم عن القدرة والارادة بذاته وإن كان الجميع شيئا واحدا فاذا تصور أعراض مختلفة الحقائق فبأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى .

## فصـــل

فقيل هنا دليل آخر على إحالة ماذكرتموه أظهر من طالب التفرقة وهو أن هذا تشبيه وإثبات لاخص وصف الله تعالى فى حق الروح (فقال) هيهات فان قولنا الانسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم وأنه تعالى كذلك ليس فيه تشبيه لأنه ليس ذلك أخص الوصف فكذلك البراءة عن المكان والجهة ليس أخص وصف الإله بل أخص وصفه أنه قيوم أى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به وأنه موجود بذاته لا بغيره فكل ما سواه موجود به لا بذاته بل ليس للأشياء من ذواتها إلا لعدم وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية والوجود لله تعالى ذاتى ليس بمستعار وهذه الحقيقة أعنى القيومية ليست إلا لله تعالى (فقيل له) ذكرت معنى التسوية والنفخ والروح ولم تذكر معنى النسبة فى الروح وأنه لم قال من روحى ولم نسبه إلى نفسه فان كان لأن وجوده به فجميع الأشياء أيضا كذلك وقد نسب البشر إلى الطين فقال (إنى خالق بشرا من طين) ثم قال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) وإن كان معناه أنه جزء من الله تعالى فاض على القلب كما يفيض المال على السائل فيقول أفضت عليه من مالى فهذه تجزئة لذات الله وقد أبطلتم هذا وذكرتم أن إفاضته ليست بمعنى انفصال جزء منه (فقال) هذا كقول الشمس لو نطقت وقالت أفضت على الأرض من نورى فيكون صدقا ويكون معنى النسبة أن النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه وإن كان فى غاية الضعف بالإضافة إلى نور الشمس وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان وفى قوته

العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها وهذه مضاهاة ومناسبة فلذلك خص بالإضافة وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلا ( فقيل له ) ما معنى قوله تعالى ( قل الروح من أمر ربى ) وما معنى عالم الأمر وعالم الخلق ( فقال ) كل ما يقع عليه مساحـــة وتقدير وهو عالم الأجسام وعوارضها يقال إنه من عالم الخلق والخلق هنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والأحداث يقال خلق الشيء أى قدره قال الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى تقدر ثم تقطع الأديم ومالا كمية له ولا تقدير فيقال إنه أمر ربانى وذلك للمضاهاة التى ذكرناها وكل ما هو من هذا الجنس من أرواح البشر وأرواح الملائكة يقال إنه من عالم الأمر فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والتحيز وهو مالا يدخل تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه ( فقيل له ) أتوهم أن الروح ليس مخلوقا وإن كان كذلك فهو قديم ( فقال ) قد توهم هذا جماعة وهو جهل بل نقول إن الروح غير مخلوق بمعنى أنه غير مقدر بكمية ولا مساحة فانه لا ينقسم ولا يتحيز ونقول إنه مخلوق لكنه بمعنى أنه حادث وليس بقديم وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة ولكن الحق أن الروح البشرية حدثت عند استعداد النطفة للقبول كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة وإن كانت الصورة سابقة الوجود على الصقالة وإيجاد هذا البرهان أنه إن كانت الأرواح موجودة قبل الابدان لكانت إما كثيرة أو واحدة وباطل وحدتها وكثرتها فباطل وجودها وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان

لعلمنا ضرورة بأن ما يعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو ولو كان الجوهر العاقل منهما واحدا لاستحال اجتماع المتضادين فيه كما يستحيل فى زيد وحده ونعنى بالجوهر العاقل الروح ومحال كثرتها لأن الواحد محال أن لا يثنى ولا ينقسم إذا كان ذا مقدار كالأجسام فالجسم ينقسم فانه ذو مقدار وذو بعض فيتبعض أما ماله ولا مقدار فكيف ينقسم وأما تقدير كثرتها قبل التعلق بالبدن فمحال لأنها إما أن تكون متماثلة أو مختلفة وكل ذلك محال وإنما استحال التماثل لأن وجود المثلين محال فى الأصل ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل وجسمين فى مكان واحد لأن الاثنين يستدعى مغايرة ولا مغايرة هنا وسوادان فى محلين جائز لأن هذا يفارق ذلك فى المحل إذا اختص بمحل لا يختص به الآخر وكذلك يجوز محل واحد فى زمانين إذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص فليس فى الوجود مثلان مطلقا بل بالاضافة كقولنا زيد وعمرو هما مثلان فى الإنسانية والجسمية وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية ومحال تغايرهما لأن التغاير نوعان أحدهما باختلاف النوع والماهية كتغاير الماء والنار وتغاير السواد والبياض والثانى بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية كتغاير الماء الحار والماء البارد فان كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع والماهية فمحال لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهى نوع واحد وإن كانت متغايرة بالعوارض فمحال أيضا لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام منسوبة إليها بنوع ما إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ولو فى القرب من السماء والبعد عنها مثلا أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف محالا

وهذا ربما يحتاجون فى تحقيقه إلى مزيد تقدير لكن هذا القدر ينبه عليه (فقيل له) كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجسام ولا تعلق لها الأجسام فكيف تكثرت وتغايرت؟(فقال) لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافا مختلفة من العلم والجهل والصفاء والكدورة وحسن الأخلاق وقبحها فبقيت منهامتغايرة فعقلت كثرتها بخلاف ما قبل الأجساد فانه لا سبب لتغايرها .

فصــــل

فقيل له ما معنى قوله عليه السلام أن الله تعالى خلق آدم على صورته وروى على صورة الرحمن (فقال) الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال ووضع بعضها من بعض واختلاف تركيبها وهى الصورة المحسوسة وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة بل للمعانى ترتيب أيضا وتركيب وتناسب ويسمى ذلك صورة فيقال صورة المسألة كذا وكذا وصورة الواقعة وصورة المسألة الحسابية والعقلية كذا والمراد بالتسوية فى هذه الصورة هى الصورة المعنوية والاشارة به إلى المضاهاة التى ذكرناها ويرجع ذلك إلى الذات والصفات والأفعال فحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا بجسم ولا جوهر متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا هو منفصل ولا هو داخل فى أجسام العالم والبدن ولا هو خارج وهذا كله فى حقيقة ذات الله تعالى وأما الصفات فقد خلق حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما والله تعالى كذلك وأما الأفعال فمبدأ فعل الآدمى إرادة يظهر أثرها

فى القلب أولا فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب فيتصاعد منه إلى الدماغ ثم يسرى منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من الدماغ ومن الأعصاب إلى الأوتار والرباطات المتعلقة بالعضل فتنجذب الأوتار فيتحرك بها الأصابع ويتحرك بالأصابع القلم وبالقلم المداد مثلا فيحدث منه صورة ما يريد كتبه على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل فانه مالم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولا لا يمكن إحداثه على البياض ثانيا ومن استقرأ أفعال الله تعالى وكيفية أحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السموات والكواكب وذلك بطاعة الملائكة له فى تحريك السموات علم أن تصرف الآدمى فى عالمه أعنى بدنه يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر وهو مثله وانكشف له أن نسبة شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش ونسبة الدماغ نسبة الكرسى والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعا ولا يستطيعون خلافا والأعصاب والأعضاء كالسموات والقدرة فى الأصابع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الأجسام والقرطاس والقلم والمداد كالعناصر التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتركيب والتفرقة ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ فمن اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله عليه السلام إن الله تعالى خلق آدم على صورته ومعرفة ترتيب أفعال الله تعالى معرفة غامضة يحتاج فيها إلى تحصيل علوم كثيرة وما ذكرناه إشارة إلى جملة منها (قيل له) فما معنى قوله عليه السلام «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ( قال ) لأن الأشياء تعرف

بالأمثلة المناسبة ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقى من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق فلولا أن الله تعالى جمع فى الآدمى ماهو مثال جملة العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من العالم وكأنه رب فى عالمه متصرف لما عرف العالم والتصرف والربوبية والعقل والقدرة والعلم وسائر الصفات الالهية فصارت النفس بمضاهاتها وموازناتها مرقاة إلى معرفة خالق النفس وفى استكمال المعرفة بالمسألة التى قبل هذه ما يكشف الغطاء عن وجه هذه المسألة (فقيل) له إن كانت الأرواح حادثة مع الأجساد فما معنى قوله عليه السلام «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام» وقوله عليه السلام «أنا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا» وقوله «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» فقال ليس فى هذا ما يدل على قدم الروح بل يدل على حدوثه وكونه مخلوقا نعم ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هين فان تأويلها ممكن والبرهان القاطع لا يدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر كما فى ظواهر التشبيه فى حق الله تعالى أما قوله عليه السلام «خلق الله الأرواح قبل الأجساد» فلعله أراد بالأرواح الملائكة وبالأجساد أجساد العالم من العرش والكرسى والسموات والكواكب والهواء والأرض والماء وكما أن أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة بالإضافة إلى جرم الأرض وجرم الأرض أصغر من جرم الشمس بكثير ثم لا نسبة لجرم الشمس إلى فلكها ولا لفلكها إلى السموات التى فوقه ثم كل ذلك اتسع له الكرسى إذ وسع كرسيه السموات والأرض والكرسى صغير بالاضافة إلى العرش فاذا تفكرت فى جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق

لفظ الأجساد فكذلك فاعلم وتحقق أن أرواح البشر بالاضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالاضافة إلى أجساد العالم ولو انفتح لك باب معرفة الأرواح لرأيت الأرواح البشرية بالاضافة إلى أرواح الملائكة كسراج اقتبست من نار عظيم طبق العالم وتلك النار العظيمة هى أرواح الملائكة ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبة ولا يجتمع فى مرتبة واحدة اثنان بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع والرتبة أما الملائكة فكل واحد نوع برأسه هو كل ذلك النوع وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون) وبقوله عليه السلام الراكع منهم لا يسجد والقائم لا يركع وأنه ما من واحد منهم إلا له مقام معلوم فلا يفهم إذا من الأرواح والأجساد المطلقة إلا أرواح الملائكة وأجساد العالم وأما قوله عليه السلام «أنا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا» فالخلق هنا هو التقدير دون الإيجاد فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا مخلوقا ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود وهو معنى قولهم أول الفكر آخر العمل بيانه أن المهندس المقدر للدار أول ما يمثل فى نفسه صورة الدار فيحصل فى تقديره دار كاملة وآخر ما يوجد من أثر أعماله هى الدار الكاملة وهى أول الأشياء فى حقه تقديرا وآخرها وجودا لأن ما قبلها من ضرب اللبن وبناء الحيطان وتركيب الجزوع وسيلة إلى غاية وكمال وهى الدار ولأجلها تقدمت الآلات والأعمال فاذا عرفت هذا فاعلم أن مقصود فطرة الآدميين

إدراكهم بسعادة القرب من الحضرة الإلهية ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء وكانت النبوة مقصودة بالإيجاد والمقصود كمالها وغايتها لا أولها وإنما تكمل بحسب سنة الله تعالى بالتدريج كما تكمل عمارة الدار بالتدريج فتمهد أصل النبوة بآدم عليه السلام ولم يزل ينمو ويكمل حتى بلغ الكمال بمحمد عليه السلام وكان المقصود كمال النبوة وغايتها وتمهيد أوائلها وسيلة إليها كتأسيس البنيان وتمهيد أصول الحيطان فانه وسيلة إلى كمال صورة الدار ولهذا السر كان خاتم النبيين فان الزيادة على الكمال نقصان وكمال شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص فذو الأصابع الستة ناقص لأن السادسة زيادة على الكفاية فهو نقصان فى الحقيقة وإن كانت زيادة فى الصورة وإليه الاشارة بقوله عليه السلام مثل النبوة كمثل دار معمورة لم يبق فيها إلا موضع لبنة فكنت أنا موضع تلك اللبنة أو لفظ هذا معناه فاذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه إذ بلغ به الغاية والكمال والغاية أول فى التقدير آخر فى الوجود وأما قوله عليه السلام «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» فهو أيضا إشارة إلى ما ذكرناه وأنه كان نبيا فى التقدير قبل تمام خلقة آدم عليه السلام لأنه لم ينشأ خلق آدم إلا لينتزع الصافى من ذريته ولا يزال يستصفى تدريجا إلى أن بلغ كمال الصفاء فقبل الروح القدسى النبوى المحمدى ولا تفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار مثلا وجودين وجود فى ذهن المهندس ودماغه حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار ووجودها خارج الذهن فى الأعيان والوجود الذهنى سببه

الوجود الخارجي العيني فهو سابق لا محالة فكذلك فاعلم أن الله تعالى يقدر أولا ثم يوجد على وفق التقدير ثانيا وإنما التقدير يرسم في اللوح المحفوظ كما يرسم تقدير المهندس أولا في اللوح أو في القرطاس فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعا من الوجود فيكون هو سببا للوجود الحقيقي وكما أن هذه الصورة ترسم في لوح المهندس بواسطة القلم والقلم يجرى على وفق العلم بل العلم يجريه فكذلك تقدير صورة الأمور الالهية ترسم أولا في اللوح المحفوظ وإنما ينتقش اللوح المحفوظ من القلم والقلم يجرى على وفق العلم واللوح عبارة عن موجود قابل لنقش الصور فيه والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش فان حد القلم هو الناقش لصور المعلومات في اللوح واللوح هو المنتقش بتلك الصور وليس من شرطهما أن يكونا قصبا أو خشبا بل من شرطهما أن يكونا قصبا أو خشبا بل من شرطهما أن لا يكونا جسمين فالجسمية لا تدخل في حد القلمية وحقيقتها بل روح القلمية واللوحية هو ماذكرنا والزائد عليه صورته لا معناه فلا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ولوحه لائقا بأصبعه ويده وكل ذلك على ما يليق بذاته وإلهيته فتقدس عن حقيقة الجسمية بل جملتها جواهر روحانية عالية بعضها معلم كالقلم وبعضها متعلم كاللوح فان الله تعالى علم بالقلم فاذا فهمت نوعى الوجود فقد كان نبيا قبل آدم عليه السلام بمعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الثانى الحسى والعينى والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين آمين .

# فهـــرس المجموعة

## منهاج العارفين



## الرسالة اللدنية

## أيها الولد

## فيصل التفرقة



## مشكاة الأنوار

## رسالة الطير



## الرسالة الوعظية

## الجام العوام عن علم الـكلام

## المضنون به على غير أهله

المضنون الصغير



تم بحمد الله